رحلة في براهين وجود الله

(العقل يشهد... والكون ينطق)

إعداد

أحمد رأفت فيشار

قرأه وقدّم له

د. عطية أبو النور

دكتوراه الشريعة الإسلامية

(كلية دار العلوم- جامعة القاهرة)

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

(حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف)

قال تعالى:

﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ وَيُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ(٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۚ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٢٧) ﴾ سورة الروم

تقديـــم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذا كتاب : "**رحلة في براهين وجود الله – العقل يشهد والكون ينطق**" ، وهي رحلة إيمانية تُبرهن – بحق – على وجود الله تعالى، من خلال الاستناد إلى الدليل العقلي، واستنطاق ما في الكون والإنسان من دلائل وبراهين، مما يُرسّخ الإيمان ويُعمّق اليقين بوجود الله رب العالمين، وقد طاف بنا معدُّ هذا الكتاب بين ثلاثة محاور:

الأول: استنباط براهين وجود الله تعالى من خلال التأمل في خلق الإنسان، تلك المعجزة التي تسير على الأرض.

الثاني: استخراج براهين وجود الله تعالى من خلال النظر في عالم الحيوان والنبات.

الثالث: الوقوف على دلائل وجوده سبحانه وتعالى من خلال استنطاق ما في الكون من دقة في التصميم، وجمال في التكوين..

كل ذلك في تسلسل منطقي، ولغة سهلة، وأسلوب شائق، فجزى الله مؤلفه خير الجزاء، وجعل ما قدم في ميزان حسناته، ورزقنا وإياه الإخلاص والقبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. عطية أبو النور

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الحمد لله الذي أودع في القلوب فطرةً تهدي، وفي العقول نورًا يضيء، وفي الكون آياتٍ ناطقةً لمن أراد أن يبصر ويهتدي.

هذا الكتاب ليس مناظرةً فلسفيةً جافة، ولا تجميعًا لأقوال متناثرة؛ بل هو رحلة صادقة نسير فيها معًا لنبحث عن المعنى الحقيقي للوجود، ونكشف زيف التصورات المادية، ونبيّن أن الإيمان بالله ليس استسلامًا ولا ضعفًا، بل هو انتصار للفطرة، وطمأنينة للعقل، وسكينة للروح.

وأود أن أوضّح منذ البداية أن كل ما ورد فيه من براهين هو ثمرة ما تتبعته وتعلّمته من العالم الجليل الدكتور سامي عامري – حفظه الله – اعتمادًا على كتابيه "**براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم**" و*"**الإلحاد في مواجهة نفسه**"* حيث إن معظم الاقتباسات مستمدة منهما، كما استفدتُ كذلك من كتاب "**منهجية الوصول إلى الحق**" للمهندس محمد شاهين التاعب، وكتاب "**الله يتجلّى في عصر العلم**"، كما أفدتُ كثيرًا من شرح الدكتور أيمن الجمل، الذي كان منذ عامين ولا يزال مرشدًا ومعلمًا لي في هذا الطريق، وإلى جانب ذلك، رجعتُ إلى عدد من الكتب والمقالات العلمية المتخصصة والمصادر الإلكترونية.

لقد جاءت فكرة هذا الكتاب من شعوري بوجود فجوة واضحة بين عامة القرّاء والكتب العلمية الرصينة المتخصصة في الرد على الإلحاد؛ فمع أن تلك الكتب الثمينة عميقة ونافعة، وهي من أعمال العلماء الأجلاء الذين بذلوا جهودًا عظيمة في دراسة هذا المجال، وقد نقلتُ عنها واستفدتُ منها كثيرًا، لكن كثيرًا من القرّاء – وأنا واحد منهم – قد يجدون صعوبة في استيعابها بسهولة . فقد فكنت أقرأ بعض الشروح والأمثلة فأشعر بثقلها، وأحتاج إلى إعادة القراءة لفهم المقصود. ومن هنا جاء حرصي على الكتابة بأسلوب مختلف: أقرب إلى الناس، أوضح في الأمثلة، ثم أعرض العمق تدريجيًا بخطوات هادئة يمكن للقارئ تتبعها حتى يصل – بإذن الله – إلى الحقيقة.

ولذلك حاولتُ أن يكون هذا الكتاب بعيدًا عن التبسيط السطحي من جهة، وعن الإغراق في التجريد الفلسفي من جهة أخرى، وأن يجمع بين الوضوح والعمق؛ بين الأمثلة التي تقرّب الفكرة، والبراهين التي تثبّتها، ليكون مدخلًا سهلًا لمن يبحث، وجسرًا نحو الكتب المتخصصة لمن أراد التوسع.

ومن هنا، أرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لاستكمال هذه الرحلة إلى نهايتها؛ إذ إن الأفكار لا تتجلّى على وجهها الصحيح إلا باكتمال مسارها، ومع اكتمال هذه الرحلة ستتضح – بإذن الله – الصورة كاملةً متماسكة، **وسيتبيّن للقارئ كيف تقود البراهين العقلية والفطرية والكونية إلى حقيقة وجود الله تعالى**، وكيف تتآزر هذه الأدلة وتلتقي في الدلالة على خالق هذا الكون ومدبّره. وسيتضح له أيضًا أن أقوى البراهين وأجلّها على وجود الله تعالى مبثوثة في كتابه العزيز، نورًا وهدايةً وحجّةً قائمةً على مرّ الزمان.

وأما أنا، فلست سوى طالب علم أمام جهود علمائنا الأجلاء، أنقل ما تعلّمتُه بصدقٍ وإخلاص، وأسأل الله أن يجعله نافعًا، وأن يكتب له القبول، وأن يجعل فيه خيرًا وهدايةً لمن يقرؤه وينتفع بما فيه.

حفظ الله علماءنا الأفاضل، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فهم كالنجوم نهتدي بنورها في ظلمات هذا العصر، وهم ورثة الأنبياء، ومنارات للعلم والهداية لكل باحث عن الحق.

ولا أنسى أن أرفع يدي شكرًا ودعاءً لوالديَّ، اللذين غرسا في قلبي حب الإيمان، وصدق التعلّق بالله، والسعي للخير... فلكما مني كل البر والدعاء والرضا.

وإلى كل قلبٍ صادق يبحث، وعقلٍ يتفكّر، وروحٍ تشتاق إلى النور... أهدي هذا الكتاب

م.أحمد رأفت فيشار

٢٠٢٦/١/١

الفهرس

الباب الأول: **الإنسان... المعجزة التي تسير على الأرض**

مقدمة..... ١٣

الفصل الأول: خلق الإنسان ينفي العشوائية

- المبحث الأول: من مدخل العقل إلى ورطة الإلحاد ١٤
- المبحث الثاني: الزمن لا يُنتج معجزة – بل يقتلها ٢٠
- المبحث الثالث: برمجة بلا مبرمج – الشيفرة الوراثية ٢٩

الفصل الثاني: ما وراء المادة (الإرادة الحرة – العقل – الأخلاق – الفطرة)...٤٧

- المبحث الأول: هل تختار بإرادتك؟ إذن أنت لست مادة..... ٥٠
- المبحث الثاني: العقل الواعي..... ٥٤
- المبحث الثالث: إذا كانت المادة لا تشعر – فمن أين جاءت الرحمة؟ ٦١
- المبحث الرابع: الفطرة – صرخة القلب التي لا تُكذَّب ٦٩

الفصل الثالث: حين يتكامل الخلق ويهتدي من تلقاء نفسه

- المبحث الأول: الزوجية بين الذكر والأنثى ٧٦
- المبحث الثاني: من خلية بلا عقل إلى إنسان مكتمل ٨١

خاتمة الباب ٨٨

الباب الثاني: حين تنطق المخلوقات بالهداية... أدلّة عالم الحيوان والنبات..٩٣

الفصل الأول: فنّ الخداع عند زهرة الأوركيد وزهرة المطرقة وخداع العنكبوت ٩٥

الفصل الثاني: كائنات بلا عقل... وتصرفات تفوق العقل ١٠١

الباب الثالث: هذا الكون – دقّة في التصميم وجمال في التكوين

الفصل الأول: بداية الكون – الدليل العقلي والعلمي على الخلق ١٠٧

الفصل الثاني: برهان التوافق العقلي للكون

المبحث الأول: كونٌ مفهوم بدقة... وعقلٌ مُبرمج للفهم ١٣٧

المبحث الثاني: الضبط الدقيق للكون ينفي العشوائية ١٥١

الفصل الثالث: برهان الجمال – من الذي زيّن الكون لذوقك؟ ١٥٩

خاتمة الباب ١٦٦
تعقيب: الإنسان بين مأساة الإلحاد وتكريم الإيمان ١٧١
التوحيد ضرورة عقلية لا مفر منها ١٩٥
فن التعامل مع الشبهات.....٢٠٩
خاتمة الرحلة: البراهين واضحة بين يديك ٢٢٥

***

الباب الأول : الإنسان... المعجزة التي تسير على الأرض

إذا تأملنا في أنفسنا كبشر، فلن نجد أمامنا مجرد أجساد وأعضاء مادية، بل سنجد كائنًا بالغ التعقيد، اجتمعت فيه أنظمة دقيقة، وقدرات عقلية ونفسية وأخلاقية مدهشة.

فإذا نظرنا إلى الجانب المادي من الإنسان، وجدنا قلبًا ينبض بلا توقف، وجهازًا عصبيًا يربط أجزاء الجسد بعضها ببعض، وعينًا تستقبل الضوء وتحوله إلى صور، وأجهزة أخرى كثيرة تعمل معًا في تناغم دقيق، بحيث يؤدي كل منها وظيفته في المكان والوقت المناسبين.

ثم نتأمل داخل كل خلية من خلايا أجسادنا، فنجد الشيفرة الوراثية(DNA) ، التي تحمل المعلومات اللازمة لبناء الإنسان، وتوجّه عمل الخلايا، وتحدد وظائفها بدقة مدهشة.

وهذا ما سنتناوله في الفصل الأول.

لكن الإنسان ليس مجرد جسد مادي؛ فهناك العقل الذي يفكر ويحلل ويبدع ويخترع، والإرادة التي تختار وتميّز، والأخلاق التي تدرك الخير والشر، وتشعر بالذنب عند الخطأ، وتميل إلى الرحمة والعدل، والنفس التي تتطلع إلى الله عند الشدائد، وتتساءل عن معنى وجودها وغاية حياتها.

وهذا ما سنتناوله في الفصل الثاني.

ثم نتأمل الإنسان من زاوية أخرى، فنجد تكاملًا عجيبًا بين أجزائه ووظائفه، يظهر بوضوح في العلاقة بين الذكر والأنثى؛ فلكل منهما خصائص جسدية ووظيفية تتكامل مع خصائص الآخر، وبهذا التكامل تستمر الحياة ويتكوّن الإنسان.

والأعجب من ذلك كله أننا إذا رجعنا إلى بداية تكوّن الإنسان، وجدنا خلية صغيرة تبدأ رحلتها في ظلمات الرحم؛ فتنقسم، ثم تتخصص، وتنتظم، وتتحول خطوة بعد خطوة إلى أنسجة وأعضاء وأجهزة متكاملة، حتى يتكوّن هذا الإنسان المعقد.

وكل هذه المراحل الدقيقة تحدث دون أن يملك الجنين وعيًا يخطط لها، أو عقلًا يدير تفاصيلها، ومع ذلك تسير في ترتيب بالغ الدقة، منذ اللحظات الأولى لتكوّنه وحتى خروجه إلى الحياة.

وهذا ما سنتناوله في الفصل الثالث.

وهكذا، في هذا الباب، سنقف مع الإنسان نفسه؛ مع جسده، وعقله، وإرادته، وأخلاقه، ورحلته منذ بدايته الأولى، لنتأمل هذه الآيات المتنوعة، ونرى كيف تقودنا إلى التساؤل عن مصدر هذا النظام الدقيق، وهذه القدرات المدهشة، وهذه الهداية التي تصاحب الإنسان منذ بداية تكوّنه.

***

الفصل الأول: خلق الإنسان ينفي العشوائية

المبحث الأول: من مدخل العقل... إلى ورطة الإلحاد

يهدف هذا المبحث إلى توضيح اللوازم العقلية الضرورية للإلحاد؛ فحين ينفي الإنسان وجود الخالق، يلزم من هذا النفي أن يكون الإنسان والكون — بكل ما فيه من نظام ودقة وإبداع — نتاج الصدفة والمادة العمياء.

ومن هنا نسأل :لماذا يلزم من نفي الخالق أن تكون العشوائية هي التفسير لهذا النظام والدقة والإبداع؟

للإجابة عن هذا السؤال، يكفي أن نعرض مثالًا بسيطًا:

تخيّل أنك دخلت غرفة فوجدت فيها لابتوبًا يعمل أمامك :شاشته مضيئة، برامجه تُفتح وتُغلق، وأزراره تستجيب بأدق ما يكون، حينها ستطرح على نفسك سؤالًا لا مفرّ منه: من الذي صمّم هذا الجهاز؟

وللإجابة، لا يملك العقل إلا ثلاثة احتمالات:

١. أن اللابتوب خرج من العدم.

٢. أن مكوّناته تجمّعت عشوائيًا عبر الزمن.

٣. أن هناك مهندسًا عاقلًا صمّمه وصنعه بقصد وإتقان.

الاحتمال الأول: خروج اللابتوب من العدم

لكن ما هو "العدم" أصلًا؟

العدم هو: لا شيء... لا مكان، ولا زمان، ولا طاقة، ولا قوانين، ولا ذرات، ولا حتى إمكانية لحدوث شيء.

فهل يمكن **لهذا** «اللاشيء» أن **يُنتج** شيئًا؟! هل يمكن للنفي المحض أن يتحول إلى إثبات؟!

الجواب واضح :عقليا لا يمكن؛ لأن العدم لا يملك وجودًا أصلًا، **وما لا وجود له لا يمكن أن يُنتج وجودًا**.

فكيف يخرج شيء من لا شيء؟ ولو صحّ أن اللابتوب خرج من العدم، لانهار أساس العقل كلّه؛ إذ لن يبقى فرق بين أن يظهر لابتوب أمامك الآن، أو هاتف جديد، أو سيارة، أو حتى مدينة كاملة، **بلا سبب، من العدم، وفي أي لحظة**.

ونحن نعلم يقينًا أن هذا لا يحدث، ولم يحدث، ولن يحدث؛ لأن العقل البشري يعلم ببداهته أن العدم لا يُنتج وجودًا.

وهذا الحكم لا يقرّره العقل وحده، بل يؤكّده العلم كذلك؛ فالعلم كلّه قائم على مبدأ السبب والنتيجة، فإذا جاز أن تظهر الأشياء بلا سبب، بطلت القوانين، وسقط التفسير، ولم يعد للعلم أي معنى.

وفي هذا السياق، يقول الفيلسوف البريطاني "والتر ستيس" في كتابه (تاريخ نقدي للفلسفة اليونانية): "إن كل من يدرس المنطق **يدرك أن السببية هي أعظم القوانين العلمية**، والركيزة التي تستند إليها سائر القوانين الأخرى. فإذا لم نؤمن بحقيقة أن كل ما بدأ في الوجود لا بد له من سبب، وأن ذات الظروف تؤدي حتماً إلى ذات النتائج؛ **فإن صرح العلوم سيتلاشى على الفور**؛ إذ إن كل بحث علمي، مهما كان، يفترض سلفاً هذه الحقيقة." انتهي [١]

إذن فالقول بأن اللابتوب خرج من العدم ليس تفسيرًا، بل ادّعاءً عبثيًا يصادم بداهة العقل وقواعد العلم معًا.

وبذلك يسقط الاحتمال الأول سقوطًا تامًا، ولا يبقى له أي وزن عقلي أو علمي.

الاحتمال العقلي الثاني: اجتماع العناصر عشوائيًا

إن المنكر لوجود صانع حكيم لا يجد أمام عقله مهرباً إلا هذا التفسير:

---

[١] Walter Terence Stace: A Critical History of Greek Philosophy ١٩٣٤ p٦

ما دام الصانع غير موجود، فليس أمامنا إلا المادة العمياء ؛ حيث سيقول : بما أن الطبيعة تحتوي على العناصر الأولية للابتوب، فلا بد أن هذه العناصر قد تجمعت عشوائياً عبر ملايين السنين حتى نتج هذا الجهاز!

فلو حللنا عناصر الجهاز سنجد أنها موجودة في الطبيعة ؛ الحديد في الصخور ، السيليكون في الرمل ،البترول في باطن الأرض ، والمعادن الأخرى...

لكن ماذا يلزم من هذا السيناريو؟ يلزم أن ذرات الطبيعة بدأت تتحرك بلا قصد ولا عقل عبر ملايين السنين:

- فالتصقت ذرات الحديد ''صدفة'' لتكوّن الهيكل المعدني،
- وارتطمت ذرات السيليكون ''صدفة'' فصنعت شرائح إلكترونية دقيقة،
- وتوافقت هذه الشرائح مع الهيكل ''صدفة'' في أماكنها الصحيحة،
- وتحول البترول ''صدفة'' إلى أزرار بلاستيكية مناسبة،
- ثم قرر الرمل — بصدفةٍ جديدة — أن يتحول إلى زجاج ناعم يُصبح شاشة،
- ثم اتحدت جميع هذه العناصر، بلا عقل ولا قصد... لتُنتج جهازًا يعمل بدقة مذهلة!

ولا تنسَ أن هذه العناصر لا يجوز أن تختلط عشوائيًا بكل ما حولها: فالحديد لو ارتبط عشوائيًا بالكبريت أو الكلور أو الصوديوم لنتجت مواد أخرى لا علاقة لها بالجهاز أصلًا.

وهذا بالضبط ما يلزم من القول بأن الطبيعة المادّية العمياء هي التي أنتجت اللابتوب، **إذا أُنكر وجود الصانع: مزيج من الذرات بلا عقل ولا قصد... يُفترض أنه أنتج هذا الإتقان والدقة المذهلين!**

الاحتمال العقلي الثالث: وجود مهندس صانع

إذا كان اللابتوب منظمًا، يعمل بدقة، وتنفذ برامجه بانسجام، فإن العقل يقود مباشرة إلى استنتاج واحد: لا بد من وجود مهندس عاقل هو الذي صمّمه وبرمجه.

(ملخص :إما أن تكون الطبيعة المادية العمياء العشوائية هي من أنتجت اللابتوب... أو أن عقلًا حكيمًا ومبدعًا هو من صممه وأحكمه.)

مثال ثانٍ لترسيخ فكرة العشوائية ولوازم إنكار الصانع

تخيّل أنك وجدت ساعة رقمية على الأرض، فسأل عقلك مباشرة" :من أين أتت هذه الساعة؟"

هنا أمامك احتمالان عقليان فقط:

١- العشوائية المطلقة:

المنكر لوجود صانع سيضطر لتفسير الساعة بأن الطبيعة، بكل ما فيها من بلاستيك وزجاج ودوائر إلكترونية، قد اجتمعت عشوائيًا لتكوّن الساعة.

٢ - أو أن هناك من صمّمها، وركّب أجزائها، وبرمجها، لتعمل وتعرض الوقت بهذه الدقة.

وقِس على ذلك أي شيء في الطبيعة؛ فبحسب هذا التصور، إما صانع حكيم، وإما العشوائية، ولا ثالث لهما.

ومن هنا ننطلق ونسأل: كيف وُجد الإنسان؟

ليس أمام العقل إلا ثلاثة احتمالات رئيسة للإجابة:

١ .أن الإنسان خرج من **العدم (اللاشيء)**.

٢ .أن ذرات المادة وعناصرها اجتمعت عبر الزمن **بطريقة عشوائية**، بلا قصدٍ ولا وعي، حتى تكوَّن الإنسان، أي أنه **نتاج الطبيعة المادية العشوائية**.

٣ .أن هناك **خالقًا عظيمًا خلق الإنسان عن قصد، وأحكم بناءه بدقة وإتقان**.

والمؤمن بطبيعة الحال يختار الاحتمال العقلي الثالث :**الاعتراف بوجود خالق حكيم** .

أمّا الملحد، فبما أنه يرفض وجود الخالق، والعدم —كما بيَّنا — مستحيل، فلا يبقى أمامه سوى الاحتمال الثاني: أن الإنسان والحيوان والنبات نتاج الطبيعة المادية؛ أي أن **المادة وعناصرها تفاعلت عبر الزمن بشكل عشوائي ، حتى ظهرت الكائنات الحية، وعلى رأسها الإنسان.**

وبناءً على ذلك، سيكون تفسيره لوجود الإنسان أنه يتكوّن من عناصر موجودة في الطبيعة، كما رأينا في مثال الكمبيوتر، وأن هذه العناصر اجتمعت وتفاعلت عشوائيًا، ثم استمرت هذه التفاعلات والتغيرات عبر الزمن، حتى ظهرت الكائنات الحية وتطورت حتى ظهر الإنسان.

وفعلًا، إذا نظرنا إلى جسم الإنسان، وجدنا أنه يتكوّن من مجموعة من العناصر الكيميائية، من أهمها: الكربون، والأكسجين، والهيدروجين، والنيتروجين، والفسفور، والكالسيوم، وغيرها. وهذه العناصر ليست غريبة عن الأرض، بل هي موجودة فيها وفي بيئتها، وتدخل في تكوين التربة والماء والصخور والنباتات وسائر الموجودات المادية.

فجسم الإنسان — بكل أعضائه وأجهزته — يتكوّن في النهاية من هذه العناصر؛ فالحديد الموجود في دمنا عنصر موجود في الأرض، يصل إلينا من خلال الغذاء، والكالسيوم الذي يدخل

في بناء عظامنا موجود في المعادن والتربة، والماء الذي يشكّل نسبة كبيرة من أجسامنا يتكوّن من الهيدروجين والأكسجين الموجودين في البيئة من حولنا.

وبعد موت الإنسان، تعود هذه العناصر مرة أخرى إلى الأرض، فتستمر دورة المادة في الطبيعة.

وهذا الأصل المادي لجسد الإنسان هو ما أخبرنا الله تعالى به في القرآن الكريم؛ فقد أخبرنا عن أصل الإنسان من الأرض والطين، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾]المؤمنون: ١٢.[

وقال سبحانه:

﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ** وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾]طه: ٥٥.[

وقال سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد أثبت العلم أن الماء عنصرٌ أساسي في تكوين الكائنات الحية، كما أن العناصر التي تقوم عليها أجساد الكائنات — كالكربون والهيدروجين والأكسجين وغيرها — موجودة في الأرض والبيئة من حولنا، ومنها تتكوّن أجساد الكائنات الحية.

وهنا تتضح لنا الصورة التي يقوم عليها التصور المادي :**مادةٌ وعناصر موجودة في الطبيعة، تتفاعل مع مرور الزمن بشكلٍ عشوائي، حتى تظهر الكائنات الحية، دون الحاجة — وفق هذا التصور — إلى خالقٍ قصد وجودها وأوجدها عن علمٍ وإرادة** .

وتذكر أن هذه العناصر لا يمكن أن تتحد بأي صورة كانت، **بل لا بد أن تتفاعل مع ما يناسبها، وبالصورة التي تسمح بتكوين التراكيب والجزيئات اللازمة لبناء الجسم**؛ فالكربون لا بد أن يرتبط بعناصر أخرى في تراكيب معينة، وكذلك الهيدروجين والأكسجين والنيتروجين وغيرها، حتى تتكوّن المركبات والجزيئات التي تدخل في بناء خلايا الإنسان وأعضائه.

وهذا التصور — أي ردّ وجود الإنسان في النهاية إلى المادة والتفاعلات العشوائية — ليس مجرد استنتاج وصلنا إليه نحن، بل هو بالفعل جزء من التصور المادي الذي عبّر عنه أئمة الإلحاد ؛ ومن هؤلاء ستيفن هوكينج، الذي قال:

*"الإنسان ليس سوى **وسخ كيميائي** على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم عادي في الضواحي الخارجية لأحد المجرات بين مائة مليار مجرة[٢]"*

ويُظهر كلام هوكينج كيف ينظر الإلحاد إلى الإنسان على أنه مجرد تفاعلٍ كيميائي عشوائي بلا روحٍ ولا معنى، كأنه صدفةٌ حدثت في كونٍ بلا هدف.

ويقول الفيلسوف الملحد برتراند راسل[٣] واصفًا حقيقة النظرة الإلحادية للإنسان:

"الإنسان نتاج أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنهاية التي تسعى إليها؛ فأصله ونماؤه وآماله ومخاوفه وحبّه ومعتقداته، كل ذلك ليس إلا نتاجًا **لتواطؤٍ عرضيٍّ للذرات**... وقد قُدِّر له الفناء بفناء النظام الشمسي، ولا بدّ أن يُدفن المعبد الكامل لإنجازات الإنسان تحت حطام كونٍ منهار[٤].

ببساطة، الإنسان مجرد تراكم وتفاعل ذرات بلا قصد أو وعي أو معنى أو هدف.

وسيمرّ بنا في هذا الكتاب، خلال هذه الرحلة، أقوالٌ أخرى لكثير من أئمة الإلحاد والفلاسفة الماديين، وسيتضح لنا من خلالها بصورةٍ أكبر ما الذي يترتب على هذه النظرة إلى الإنسان، وما خطورة الإلحاد حين ينظر إلى الإنسان بعيدًا عن خالقه وغايته.

خاتمة المبحث

بعد أن عرضنا التركيب المادي لجسم الإنسان، وتحدثنا عن أجزائه، رأينا أن هذا الجسم —— في نهاية التحليل —— مكوَّن من عناصر موجودة في الطبيعة، وأن هذه العناصر نفسها تدخل في تركيب التربة والماء والهواء وسائر مكونات البيئة من حولنا. وأصبح واضحًا لنا أيضًا مفهوم **العشوائية** الذي يقصده الملحد عند الحديث عن «الطبيعة المادية العشوائية.«

وعليه، نحن أمام احتمالين لا ثالث لهما:

١ .الاحتمال الأول :أن مادةً غير حية، مكوَّنة من ذرات وعناصر لا تملك قصدًا ولا إرادة، تفاعلت عبر الزمن، فأنتجت جميع الكائنات الحية، على اختلاف أنواعها وتعقيدها، وعلى رأسها الإنسان، بكل ما فيه من دقةٍ وإحكامٍ وعقلٍ ووعي .

---

[٢] (Reality on the Rocks: Beyond Our Ken, ١٩٩٥)

[٣] برتراند راسل: فيلسوف وعالم منطق ورياضيات بريطاني أحد أعلام الفلسفه التحليليه وحاصر علي جائزه نوبل للاداب

[٤] *"(Bertrand Russell, Mysticism and Logic, cited in Mary Poplin, Is Reality Secular?, InterVarsity Press, ٢٠١٤, p.٤٥)*

تنبيه :ليس سيناريو العشوائية وحده هو المأزق؛ فحتى المادة نفسها — التي يُفترض أنها اجتمعت وتفاعلت عبر الزمن — تحتاج إلى تفسير :**من أين جاءت هذه المادة أصلًا؟** فهي ليست أزلية، بل لها بداية، وقد وُجدت بعد أن لم تكن موجودة.

فمن أين جاء وجودها؟ وهذا ما سنوضحه بإذن الله في **الباب الثالث: باب الكون**؛ حيث سنبيّن أن الكون كله، بما فيه المادة والطاقة والقوانين، له بداية، وأن الأدلة العقلية والعلمية تشير إلى أن الكون حادثٌ بعد عدم، وأن **العدم المحض لا يمكن أن يُنتج شيئًا؛ لأنه لا شيء أصلًا، بل لا بد من مُوجِدٍ أوجد هذا الكون عن علمٍ وحكمة.**

٢ .الاحتمال الثاني :أن هناك خالقًا حكيمًا، هو الذي خلق الإنسان وأتقن خلقه، ونفخ فيه من روحه، وجعله مكرَّمًا، عاقلًا، ومختارًا.

وبذلك نكون قد أنهينا هذا التمهيد العقلي، وفي المبحث القادم، إن شاء الله، سنفند هذا الزعم، ونجيب عن الأسئلة الجوهرية: هل فعلًا الذرات العمياء قادرة على الخلق؟ وهل الصدفة وحدها تستطيع أن تنتج كائنًا معقدًا مثل الإنسان؟!

***

المبحث الثاني: الزمن لا يُنتج المعجزة... بل يقضي عليها

بعد أن بيَّنا أن البديل الوحيد للإيمان بوجود خالق — عند الملحد — هو افتراض أن ذرات الكربون والهيدروجين والنيتروجين والكالسيوم وسائر العناصر الموجودة في الكون قد اجتمعت وتفاعلت وحدها، بلا عقل ولا هدف، وعلى مدار آلاف السنين، حتى تكوَّنت الكائنات الحية، وعلى رأسها الإنسان؛ يبقى السؤال:

هل هذا ممكن عقلًا؟ وهل يمكن لهذه الذرات الصمّاء أن ترتّب نفسها بنفسها لتصنع كائنًا حيًّا؟

وليس أي كائن، بل **الإنسان**؛ ذلك الكائن المعقّد الذي يجمع في جسده وعقله ووعيه أنظمةً هائلة تعمل معًا في تناغمٍ دقيق.

فلنقرّب الصورة قليلًا: الإنسان ليس مجرد كومة من اللحم والعظام، بل هو **منظومة متكاملة بالغة التعقيد.**

من الخارج قد يبدو الأمر بسيطًا: عينان، أنف، أذنان، يدان ورجلان ...لكن عند الغوص في داخله، نكتشف أنه أشبه بـ«مجرة بيولوجية» هائلة من الأنظمة الدقيقة المتناسقة، حيث كل جزء مرتبط بالآخر بدقة مدهشة:

- الجهاز العصبي :شبكة كهربائية–كيميائية مذهلة، تمتد في كل أركان الجسد. فيه مئات المليارات من الخلايا العصبية (النيورونات)، كل خلية منها متصلة بآلاف الوصلات، تنقل الإشارات بسرعة هائلة، لتنسق بين الأعضاء والعضلات والحواس. ومن خلاله يستطيع الإنسان أن يشعر بالألم والحرارة واللمس، وأن يحرك جسده، ويستجيب للمؤثرات من حوله. لولا هذا الجهاز ما استطاع الإنسان أن يتحرك أو يشعر أو يستجيب لأي مؤثر.
- الجهاز الدوري :القلب مضخة دقيقة تعمل بلا توقف، تضخ آلاف اللترات من الدم يوميًا، والدم يسري عبر شبكة هائلة من الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية، يبلغ مجموع أطوالها عشرات الآلاف من الكيلومترات. ويحمل الدم الأكسجين والمواد الغذائية إلى الخلايا، وينقل الفضلات وثاني أكسيد الكربون بعيدًا عنها، في عملية مستمرة لا تتوقف ما دام الإنسان حيًّا.
- الجهاز الهضمي :يهضم، ويمتص، ويفرز، وينظم ملايين التفاعلات الكيميائية يوميًا، مع بكتيريا نافعة تعمل في تناغم مدهش.
- الكبد :يُعد من أكثر أعضاء الجسم تعقيدًا، ويؤدي مئات الوظائف الحيوية؛ فهو يساهم في تنقية الدم من بعض السموم والمواد الضارة، ويخزن بعض الفيتامينات والمعادن، ويصنع بروتينات مهمة، ويساهم في تنظيم مستوى السكر في الدم، كما ينتج العصارة الصفراوية التي تساعد على هضم الدهون. وكل ذلك يحدث باستمرار دون أن يشعر الإنسان بمعظم هذه العمليات.
- الكُليتان :ترشّح حوالي ٥٠ جالون دم يوميًا، وتستخرج السموم وتعيد امتصاص العناصر المفيدة.
- العين :تحتوي على أكثر من ١٠٠ مليون خلية ضوئية، تتعامل مع الضوء واللون والحركة والعمق، وترسل إشارات دقيقة إلى المخ باستمرار.
- الدماغ :أعظم أعجوبة في جسد الإنسان؛ مركز القيادة والتحكم، يضم شبكة مذهلة من الخلايا العصبية، يُقدَّر عددها بما يزيد عن ٨٠–١٠٠ مليار خلية. كل خلية منها متصلة بآلاف المسارات، لتشكل معًا مليارات المليارات من الروابط العصبية. هذا العضو العجيب هو

المسؤول عن التفكير، والذاكرة، وتنظيم كل حركة لا إرادية وإرادية في الجسم. إنه أعقد من أي حاسوب صنعته البشرية، ومع ذلك يعمل بلا انقطاع منذ لحظة الولادة وحتى آخر العمر.

- الـ **DNA**: شريط تعليمات مذهل بطول ٣ مليارات زوج قاعدي، ولو طُبع هذا الشريط لملأ عشرات المجلدات، والأعجب أن كل خلية من خلايا جسمك تحتوي على نسخة كاملة من هذا الشريط المعجز! (وسنشرح الإعجاز الكامن فيه في المبحث القادم بإذن الله).

وكل هذه المنظومات تعمل معًا في وقت واحد، بلا فوضى ولا تصادم، وفي تنسيق كامل يبهر العقول.

فأي عقل يقبل أن ينسب كل هذا الانسجام والإبداع إلى الصدفة والزمن الأعمى؟

وإذا كان العقل لا يقبل أن تكون الطبيعة العمياء هي التي أوجدت جهاز الكمبيوتر، فمن باب أولى أن يصعب قبول أن تكون هي التي أوجدت الإنسان، وهو أعقد بكثير من أي اختراع بشري.

فالإنسان الذي صمّم اللابتوب لا يُقارن أصلًا بتعقيد خلية واحدة من خلايا جسمه؛ فالخلية الواحدة تحمل معلومات وتعليمات هائلة، وتضم أنظمة دقيقة تعمل معًا بصورة متناسقة، أعقد بكثير من أي نظام هندسي صنعه الإنسان.

فإذا كان وجود اللابتوب بهذا التعقيد يدل بداهةً على وجود من صمّمه وصنعه، فكيف بالإنسان، الذي يتكوّن جسده من تريليونات الخلايا، وتعمل داخله أجهزة وأنظمة مترابطة في تناغم مذهل؟

ثالثًا: هل الزمن هو صانع المعجزات؟

الجواب المعتاد من الملحد غالبًا يكون: "أنا أُقرّ بأن الإنسان كائن شديد التعقيد، ومن الصعب أن تنشئه المادة العشوائية، لكنك تغفل أمرًا مهمًا: نحن لا نتحدث عن لحظة واحدة، بل عن ملايين السنين! فالمادة لم تُنتج الحياة في يوم أو سنة، وإنما عبر زمنٍ طويل ، وخلال هذه المدة تجمعت الذرات وتفاعلت مع بعضها وتطورت حتى وصلت إلى ما نراه اليوم".

ونجيب فنقول: **الزمن ليس صانعَ معجزات**؛ فالزمن ليس عقلًا يُفكّر، ولا يدًا تبني، ولا إرادةً تُخطّط، وإنما هو مجرد وعاءٍ تجري فيه الأحداث، لا فاعلٌ يُنشئ شيئًا من العدم، ولا يُرتّب العناصر في نظامٍ معقَّد.

لنأخذ مثالًا بسيطًا: لو وضعنا مجموعة من قطع الحديد والأسلاك والدوائر الإلكترونية في مكان ما، وتركناها لمليون سنة، فهل سنعود لنجدها قد تجمعت وتكوّنت وحدها إلى روبوت يعمل ويتحرك ويستجيب للأوامر؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

في الواقع، مرور الزمن وحده لا يجعل هذه العناصر تنتظم لتصنع روبوتًا، بل إن العوامل الطبيعية ستؤدي مع مرور الوقت إلى تلفها وتآكلها؛ فالحديد سيصدأ، والأسلاك ستتلف، والدوائر الإلكترونية ستتحلل، بدلًا من أن تتجمع تلقائيًا لتكوين جهاز يعمل.

إذن:

- **الزمن وحده لا يبني نظامًا معقدًا، بل يؤدي إلى التآكل والتلف.**
- **والعشوائية لا تصنع تنظيمًا دقيقًا، بل تفتقد أصلًا إلى القصد والتوجيه.**

وهذا ليس رأيًا دينيًا أو فلسفيًا، بل حقيقة علمية قاطعة يؤكدها القانون الثاني للديناميكا الحرارية.(**Second Law of Thermodynamics**) هذا القانون ينص باختصار:(في أي نظام مغلق، تزداد الفوضى (الانتروبيا (**Entropy**) مع مرور الزمن، بينما تقلّ الطاقة القابلة للاستخدام) أي أن الأنظمة المعقدة تميل دائمًا إلى التفكك والانهيار، لا إلى التنظيم والبناء.

وبالتالي: أي نظام تُرك وحده مع الزمن، فإنه سينهار حتمًا: البيوت تنهار، الأجهزة تتعطّل، الحديد يصدأ، الكائنات تهرم وتموت، النجوم تفقد وقودها شيئًا فشيئًا فتخبو وتبرد، ومنها الشمس التي تبث الضوء والحرارة لكنها في النهاية تسير نحو النفاد.

إذن نحن أمام قانون كوني صارم: الزمن عدو النظام والتعقيد، لا شريك في بنائه.

يؤكد الفيزيائي بول ديفيز(**Paul Davies**)[٥] :

"القانون الثاني للديناميكا الحرارية لا يقتصر في عمله على الأمور الهندسية، بل هو قانون أساسي للطبيعة ، لا يوجد سبيل للفرار منه".انتهي[٦]

ولهذا نقول: إن اعتماد الملحد على الزمن كحجة في خلق الكائنات المعقدة هو وهم علمي وعقلي كبير.

فالزمن في ذاته لا يخلق، بل يهدم؛ لا يُنظّم، بل يُفكّك.

---

[٥] **بول ديفيس** : **فيزيائي انجليزي شهير**، لا أدري ، من أبرز الشخصيات الفكريه في الغرب كتابه في علاقه العلم والايمان

[٦] Paul Davies, The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life (Orion productions, ١٩٩٩) p ٥١

خدعة الملاحدة أنهم يعلمون أن قولهم: «الذرات اجتمعت فجأة وخلقت إنسانًا» يبعث على السخرية، فغيّروا العبارة وقالوا: «لم يحدث فجأة، بل اطور على مدار السنين.« لكن الحقيقة أن هذه السنين تجعل الأمر أكثر استحالة؛ لأن كل نظام، مهما كان بسيطًا، إن تُرك وحده دون عقل يوجّهه أو إرادة تُنظّمه، فإنه يتفكك ويضمحل، ولا يكتمل:

- الحديد مع مرور الزمن يصدأ، لكنه لا يصنع شيئًا؛ فالزمن يفسده ولا يمنحه قدرة على الإبداع.
- تراب الأرض مع الزمن لا يتحوّل إلى كائن حي، بل يتفتّت أكثر فأكثر حتى يصير غبارًا تذروه الرياح.

فالعوامل الطبيعية — —كالرياح والمياه والحرارة — لا تملك قدرة على "الإبداع"، بل هي أدوات "تفكيك"؛ تُحوّل المادة الصلبة إلى فتات متناثر.

وهذا ما ينسجم مع الحقيقة القرآنية التي يراها الإنسان كل يوم، حيث يقول الله عز وجل : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥)

هذه الآية تذكّر الإنسان بحقيقة يراها كل يوم: أن النبات، وسائر مكوّنات الطبيعة، إن تُركت للطبيعة وحدها ومع مرور الزمن، لا تزداد إلا هُشاشة وضعفًا حتى تصير هشيماً تذروه الرياح.

فهذا هو سلوك الطبيعة :تهدم ولا تبني، وتفسد ولا تصلح ، وعليه فالزمن جزء من مسار الانحدار، لا سبب من أسباب البناء.

وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى مختبرات ولا معادلات معقّدة، وليست استنتاجًا خاصًّا بالفيزيائيين وحدهم، بل هي واضحة مبثوثة أمام أعين الناس في كل ما حولهم: فكل ما يُترك للوقت وحده يفسد، ولا شيء في الكون ينتظم أو يتعقّد من تلقاء نفسه، إلا بتدبيرٍ وغيبٍ من خارج الكون، وهو ما يدل على وجود خالق.

ولذلك فإن الزعم بأن الزمن قادر على أن يُنشئ التعقيد والنظام ليس إلا خداعًا علميًّا صريحًا، ومخالفةً واضحة لأحد أعظم القوانين الفيزيائية التي تحكم الكون كله.

(وسيعود معنا القانون الثاني في مواضع أخرى من هذا الكتاب، ليظهر بوضوح أكبر كيف يستحيل مع الزمن نشوءُ أي نظام معقد دون خالق مريدٍ عليم).

سرّ الحياة... اللغز الذي لم يُفكّ

والأعمق من مسألة «الزمن» التي يلوّح بها الفكر المادي، هو السؤال الأعظم الذي يتجاوز الزمن والمادة والصدفة كلها:

من أين جاءت الحياة أصلًا؟ إن ظهور الحياة على الأرض ليس مسألة تراكم سنوات، ولا نتيجة طبيعة عمياء، بل هو قفزة وجودية عجز العلم والفلسفة إلى اليوم عن تفسيرها:

- كيف ظهر أول كائن حي؟
- كيف وُلِد "الحَيّ" من "الميّت"؟
- كيف تحوّلت جزيئات ميتة لا وعي لها ولا إرادة... إلى كائن حي قادر على النمو والتكاثر؟

هذه ليست خطوة بسيطة في سلسلة أحداث، بل أعظم معجزة في عالم الأحياء؛فإنك تستطيع أن تخلط التراب بالماء وتعرضه للشمس ملايين السنين، ومع ذلك لن ترى دودةً واحدة تظهر منه تلقائيًا.

لماذا؟ لأن الحياة ليست مجرد تركيب كيميائي، بل نظامٌ مركّب، وشفرة، ومعلومة، وتنظيم ذاتي، وإصلاح ذاتي، وآلية نسخ، ومراقبة ،وتكاثر...

وهذه كلها لا توجد في المادة الميتة بأي صورة.

وفي هذا السياق يقول عالم الفلك الشهير فريد هويل (**Fred Hoyle**) :

"إن احتمال نشأة الحياة من المادة غير الحية يشبه احتمال تكوين طائرة بوينج ٧٤٧ بفعل إعصار عَصَف بمقلب قمامة!"٧ انتهي

وأيضا العالم الكبير (فرانسيس كريك) –الحاصل على جائزة نوبل والمكتشف المشارك لبنية الـ **DNA–** يقول في كتابه (الحياة نفسها): "ليس بوسع إنسان أمين، مُسلَّح بكل المعرفة المتاحة لنا الآن، سوى القول: إنَّ نشأة الحياة تبدو أشبه بالمعجزة؛ فكثيرة جداً هي الظروف التي كان ينبغي توفرها وانضباطها بدقة من أجل السماح بنشأة الحياة .« ٨انتهي

---

٤ Fred Hoyle: The Intelligent Universe , ١٩٠-٩١

٨ Francis Crick, Life Itself (New York: Simon and Schuster, ١٩٨١), ٨٨

ولهذا كانت الحياة سراً أعظم، وبرهاناً باهراً لا يملكه إلا الله وحده، فهو الذي يمنح الوجود للمادة الصماء، ويودع فيها روح الحياة، كما يقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥)

إنها صورة يشاهدها الإنسان كل يوم: حبّة جامدة مدفونة في التراب، فإذا ما أصابها الماء دبّت فيها الحياة، فتشقّ الأرض، وتخرج جذورًا وساقًا وأوراقًا وثمرًا.

فمن الذي أودع في هذه الحبة الضعيفة قوة الحياة، مع أنها لا تملك شيئًا من نفسها؟

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)

الحياة كلها سرٌّ إلهي؛ لو اجتمع البشر كلهم على أن يخلقوا ذبابةً — وهي من أصغر المخلوقات — لعجزوا ،فكيف بخلق إنسان كامل؟!

وتأمل الإعجاز في أصغر وحدة حيّة :**الخلية الحية... أعجب مصانع الكون**.

الخلية الحية هذه الوحدة الدقيقة، التي لا تُرى بالعين المجرّدة، تحمل بداخلها منظومةً أعقد من أي مصنع ضخم في العالم:

- النواة (مركز القيادة) :هي "خزنة" المعلومات الهائلة، تحفظ داخلها الشريط الوراثي (**DNA**) الذي يحتوي على تعليمات بناء كل ذرة في جسمك؛ كأنها مكتبة كونية لا تقدر بثمن.
- الميتوكوندريا (محطات التوليد) :هي مراكز الطاقة التي لا تهدأ، تحوّل الغذاء والأكسجين إلى "وقود حيوي" يمدّ الخلية بالقدرة على الحركة والاستمرار.
- الريبوسومات (خطوط الإنتاج) :آلات دقيقة تعمل كالمترجم، تقرأ شيفرة النواة لتصنع "البروتينات"؛ تلك اللبنات العظيمة التي تبني الجسم وتصلحه وترممه بلا توقف.
- الشبكة الإندوبلازمية وجهاز جولجي (شبكات الشحن والاتصالات) :أنظمة نقل وتغليف ذكية تنقل الأوامر والمواد داخل الخلية بدقة مذهلة، وكأنها أسرع وأدق بريد لوجستي في الوجود.

وكل ذلك يعمل بتناغم فائق لا ينقطع، منذ اللحظة الأولى لتكون الجنين في رحم الأم، وحتى آخر نفس في عمر الإنسان. إنها ليست مجرد نقطة مجهرية، بل هي معجزة حية ناطقة، تشهد على عظمة الخالق الحكيم الذي أبدع كل شيء خلقه.

ولكي تتصور حجم هذا التعقيد بصورة أوضح، تأمل وصف مايكل دانتون **(Michael Denton)** للخلية : »إننا لو ضخمنا الخلية ألف مليون مرة حتى يصبح قطرها ٢٠ كيلومترًا، وكأنها منطاد ضخم قادر على تغطية مدينة كبيرة مثل لندن أو نيويورك، فسيبدو لنا حال الخلية أوضح في نظامه وتعقيده وتكامل عمل من يسكنونها.

ستبدو لنا ملايين الفتحات في جدار الخلية، تفتح وتغلق بحسب حاجة الخلية لما يبقيها حية ولتحقق تواصلها مع بقية الخلايا. وداخل الخلية تنتظم الممرات والطرق السريعة على صورة بالغة التعقيد، منها ما يقود إلى بنك الذاكرة المركزي في نواة الخلية، **ومنها ما يقود إلى مصانع تجميع وحدات المعالجة، وهناك المكتبات، والشرطة، ومصانع الطاقة، وعمال الصيانة، ونقلة البضائع، وآلات النسخ، والترجمة**«... انتهي [٩]

ويكفي أن تعلم أن الخلية الواحدة في جسمك تقوم بآلاف التفاعلات الكيميائية في الثانية الواحدة، وكل تفاعل منها يحدث في مكانه وزمانه الصحيح، ضمن منظومة دقيقة ومتكاملة.

لكن يبقى سؤال مهم: من أين تعرف الخلية ماذا تفعل؟ وكيف تعرف متى تنقسم، وماذا تنتج، وأي وظيفة تؤدي؟

هنا نصل إلى جانب آخر من هذا التعقيد، وهو **المعلومات الموجودة داخل الخلية نفسها؛** فليست الخلية مجرد مجموعة من المواد والتفاعلات الكيميائية، بل تحتوي أيضًا على تعليمات دقيقة تنظّم عملها وتوجّه وظائفها.

ولئن كان هذا الكتاب لن يتوسع في تفاصيل الإعجاز الطبي، فلا ينبغي أن نمرّ مرور الكرام على أعجب ما في هذا الجانب :**الشفرة الوراثية (DNA)** .

فالـ DNAهو الجزيء الذي يحمل **المعلومات الوراثية** التي تحدد كيفية بناء الكائن الحي وتوجّه نموه ووظائفه المختلفة. والمذهل أن هذه المعلومات كلها محفوظة داخل الخلية في صورة شيفرة دقيقة، مكوّنة من أربعة أحرف فقط، لكنها تحمل كمًّا هائلًا من التعليمات.

---

[٩] Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis, p. ٣٢٨.

فكيف يمكن لأربعة أحرف فقط أن تحمل كل هذه المعلومات؟ وكم يبلغ حجم هذا «الكتاب» الموجود داخل كل خلية؟

وهذا ما سنتناوله في المبحث القادم بعون الله، بشيء من التفصيل.

***

وقبل الدخول في المبحث الثالث، لابد أن أوضّح نقطة محورية جدًا، وهي سببٌ آخر جعلني أبدأ الفصل الأول بالأمثلة: عندما نقول إن الساعة يستحيل أن تتكوّن عشوائيًا، فالكلام هنا ليس عن شكل ساعة ولا عن قيمة صناعتها، بل عن عجز الطبيعة ذاتها—عجز المادة والطاقة—عن إنتاج أي شيء منظم من الأساس *بدون خالق*.

فالهواء، والماء، والتراب، والحرارة، والضوء، والكواكب، والنجوم... كل أشكال المادة والطاقة التي أمام أعيننا **نعرف سلوكها الفيزيائي جيدًا**: إنها لا تصمّم شيئًا، لا تبني نظامًا، لا ترتّب أجزاء، لا تهندس شكلًا، لا تكتب معلومة، ولا تُنشئ أي منظومة من تلقاء نفسها.

ولذلك: إذا كانت الطبيعة عاجزة تمامًا عن تكوين ساعة، أو بيت، أو أي اختراع بشري بسيط...**فإن عجزها عن تكوين الكائنات الحيّة من باب أولى**.

وهنا نطبق قاعدة "الاستدلال بالأَوْلَى"، وهي من أرسخ المبادئ العقلية التي لا يختلف عليها ذو عقل في شؤون الحياة كلها؛ فإذا كان العقل يحكم باستحالة أن تبني الطبيعة "ساعة" أو "بيتاً"، فإن حكمه باستحالة بنائها لـ "إنسان" هو من باب أَوْلَى وأوجب.

لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ فالطبيعة المادية التي تقف عاجزة أمام تركيب ساعة بسيطة، كيف تملك القدرة على بناء "عين" تبصر، أو "قلب" ينبض، أو "جنين" كامل يتخلق من نطفة؟! وكيف تتحول المادة الجامدة التي نعرف ركودها وثبات خصائصها إلى "مصنع للحياة" يخرج الحي من الميت؟!

***

المبحث الثالث: برمجة بلا مبرمج؟! الشيفرة الوراثية تُجيبك

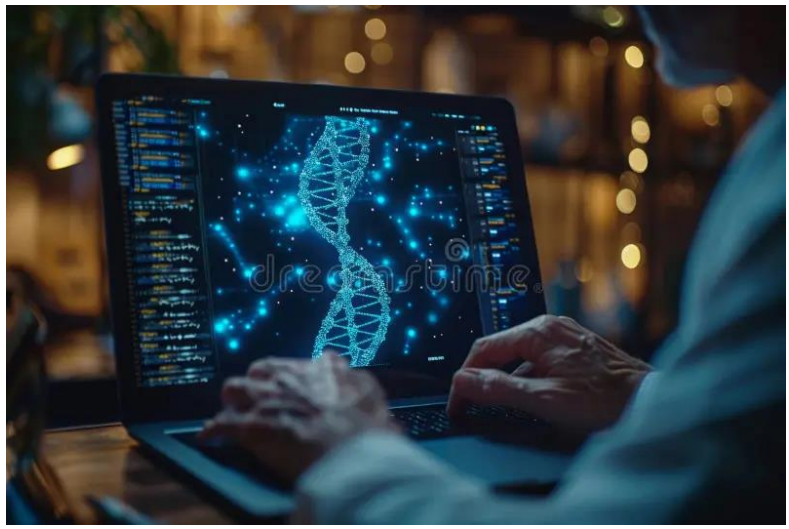

يقول عالم الأحياء الشهير الملحد كريغ فنتر: «**الحياة نظام برمجيات للحمض النووي الصبغي.**(**Life is a DNA software system**) »» (١٠)

وهذه العبارة، رغم بساطتها، تفتح أمامنا بابًا إلى واحد من أعظم مظاهر التعقيد في الكائن الحي :الDNA، أو الحمض النووي، الذي يحمل الشيفرة الوراثية للكائن الحي.

من اللابتوب إلى أعظم برنامج وراثي في الكون

في المبحث السابق تناولنا التعقيد المذهل لجسم الإنسان، وكيف أن سلوك الطبيعة وحده لا يستطيع إنتاج هذا النظام المعقّد، ورأينا أن مجرد تجمّع أجزاء الجسم — بعشوائية أي دون خالق — أمر مستحيل، لأن الزمن في ذاته عدو للنظام، والأنظمة المعقدة تنهار مع مرور الوقت كما هو معروف علميًا.

لكن التعقيد في الإنسان لا يقتصر على جسده المادي فقط، بل يمتد إلى ما هو أعظم : البرنامج الداخلي الذي يحكم كل خلية، أي الشيفرة الوراثية**DNA** ، أعقد نظام تشغيل عرفه الكون كله.

لتوضيح الفكرة، يمكننا التفكير في مثال مألوف :الكمبيوتر .لو فتحنا اللابتوب واشتغل، فنسأل طبيعيًا: من كتب نظام التشغيل؟ ومن كتب البرامج مثل الوورد، والإكسل، والفوتوشوب؟

---

١٠ J. Craig Venter, "The Big Idea: Craig Venter On the Future of Life," The Daily Beast (October ٢٥, ٢٠١٣). <www.thedailybeast.com/articles/٢٠١٣/١٠/٢٥/the-big-idea-craig-venter-the-future-of-life.html>.

من كتب الأكواد التي تجعل كل شيء يعمل بتناغم ودقة؟ هل يمكن أن تتجمّع هذه الأكواد وحدها؟ هل المعادن والمواد في الجهاز رتّبت نفسها لتنتج برنامجًا؟

بالطبع لا، الجواب الوحيد هو وجود مبرمج ذكي وضع كل شيء بعلمه وقصده.

والآن، ننتقل من اللابتوب إلى جسم الإنسان، حيث يوجد أعظم نظام تشغيل على الإطلاق :الكود الوراثي**DNA** ، البرنامج الذي وضعه الله في كل خلية من خلايا جسدك، ويدير حياتك منذ اللحظة الأولى، فالإنسان ليس مجرد لحم وعظم ودم، بل هو برنامج رقمي معقّد يحدد شكلك، لون عينيك، نوع شعرك، صوتك، مناعتك، حتى قابليتك لأمراض معينة، وكل ذلك يعمل بتناغم بديع يُظهر عظمة الخالق.

والمفاجأة أن كل خلية في جسدك — من أول جلدك إلى طرف ظفرك — تحتوي على نفس الشيفرة الوراثية بالكامل، كأن في كل خلية نسخة كاملة من "كتاب حياتك".

وفوق ذلك، لا توجد بصمتان وراثيتان متطابقتان بين أي اثنين من البشر! يعني أن الذرات العشوائية (الكربون، الهيدروجين، الأكسجين) التي يتكوّن منها جسم الإنسان، والتي يُفترض — حسب إنكار الخالق — أنها "كوّنت" الإنسان، استطاعت أن تنتج مليارات النسخ من البشر، **ومع ذلك لا يوجد واحد منهم يطابق الآخر تمامًا!**

لنبدأ ببساطة :ما هي الشيفرة الوراثية؟

الشيفرة الوراثية ليست حبرًا ولا مجلدات، بل لغة كيميائية مكتوبة بأربعة حروف فقط **A – T – C – G**. وكل حرف من هذه الشيفرة عبارة عن جزيء صغير جدًا، مصنوع من عناصر بسيطة: الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والنيتروجين، والفوسفور — نفس المكونات البسيطة الموجودة في تربة الأرض. ومع ذلك، هذه العناصر البسيطة تتجمع بطريقة دقيقة لتكوّن شيفرة حياة الإنسان بالكامل!

كيف تتجمع هذه العناصر لتصبح شيفرة حياة؟

جسمك مكوَّن من العناصر نفسها: الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأكسجين، والفوسفور. هذه العناصر تتجمع لتكوين مركبات دقيقة تُسمّى النيوكليوتيدات، وهي وحدات البناء الأساسية للـ **DNA**.

كل نيوكليوتيد يتكوّن من ثلاثة أجزاء:

١. سكر رايبوز منقوص الأكسجين .(**Deoxyribose**)

٢. مجموعة فوسفات.

٣. قاعدة نيتروجينية من بين أربع فقط **A** :، **T**، **G**، .**C**

وللتسهيل، اختصر العلماء أسماء هذه القواعد إلى الحروف الأربعة:

- **A** =الأدينين(**Adenine**)
- **T** =الثايمين(**Thymine**)
- **G** =الجوانين(**Guanine**)
- **C** =السيتوزين(**Cytosine**)

وتعمل هذه القواعد الكيميائية بنظام محكم جدًا:

- **A**دائمًا يقابل**T**
- **G**دائمًا يقابل**C**

عندما تصطف هذه "الحروف الكيميائية" جنبًا إلى جنب، تتكوّن سلسلة **DNA**، وهي ليست ترتيبًا عشوائيًا، بل مكتوبة بدقة كبيرة، تحمل تعليمات واضحة لبناء جسمك بالكامل: لون عينيك، شكل أعضائك، طريقة عمل مناعتك، وحتى طريقة عمل خلايا دمك! يمكنك تخيّل الأمر مثل كتاب كبير جدًا :كل نيوكليوتيد هو حرف، والحروف تصطف لتكوّن كلمات، والكلمات جملًا، والجمل كتبًا كاملة — وهذه الكتب هي الجينات التي تحمل أوامر الحياة.

إليكم صورتين توضحان ارتباط المركبات الكيميائية وتكوين المعلومة، حيث تتجمع العناصر البسيطة جدًا بتنسيق دقيق لتكوّن الشيفرة الوراثية المعقدة التي تحمل تعليمات حياة الإنسان كاملة.

وفي نهاية المبحث، إن شاء الله، ستكون الصورة كاملة عن كيف تكونت المعلومة الحيوية في الإنسان، وقد اتضحت لنا بفضل الله تعالى عظمة هذا الإعجاز.

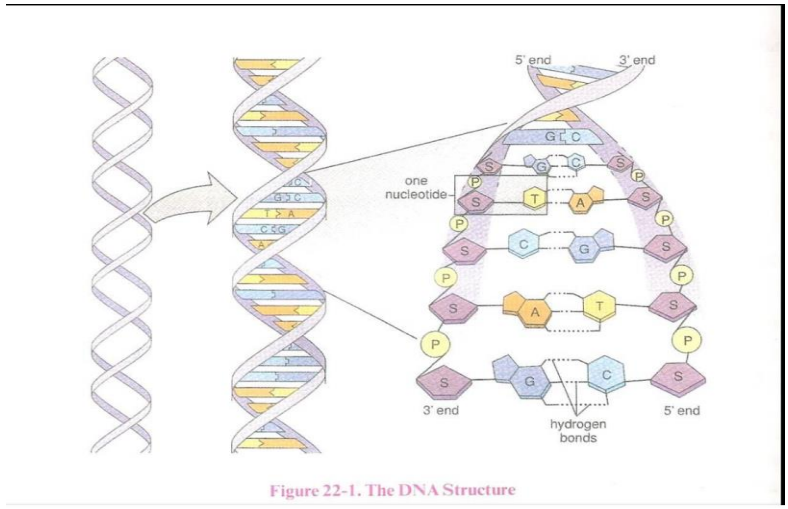

Figure 22-1. The DNA Structure

ما تراه في الصورة هي خريطة مذهلة توضّح الطريقة التي تتشابك بها المركبات الكيميائية لتكوين الشيفرة الوراثية.

انظر كيف يقابل الأدينين (**A**) دائمًا الثايمين(**T**) ، وكيف يقابل الجوانين (**G**) دائمًا السيتوزين(**C**) ، في نظام صارم ودقيق لا يتبدل ولا يخطئ.

والآن، ننتقل إلى **الصورة الثانية**، وهي أكثر تفصيلًا، لنرى بدقة أكبر كيف تترابط هذه العناصر معًا، وكيف تتحول هذه الحروف الأربعة إلى شيفرة تحمل هذا الكم الهائل من المعلومات.

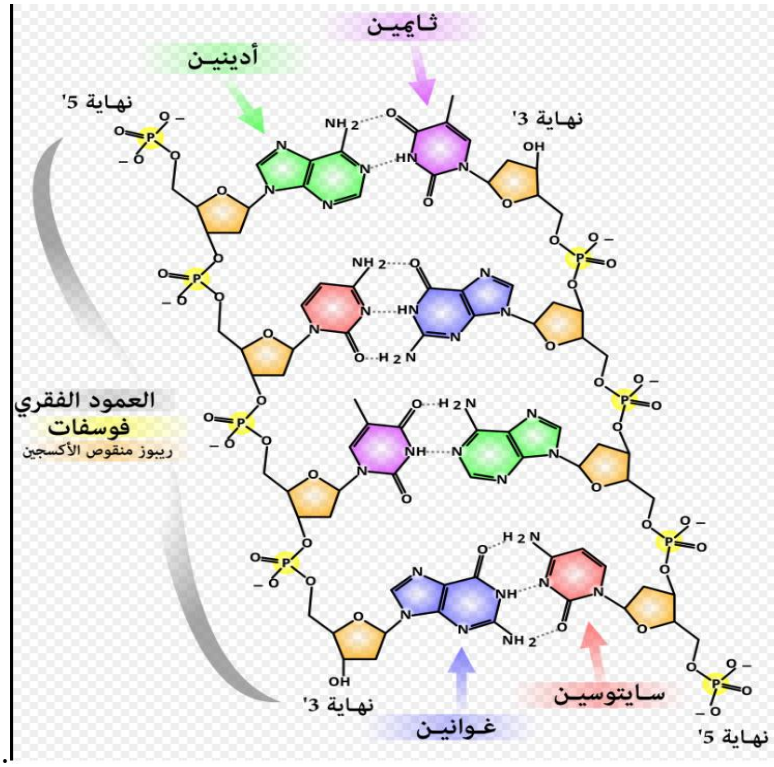

هذه الروابط الدقيقة، المصنوعة من ذرات صامتة، تتحول إلى لغة حية تفيض بالمعلومات... لغة تحمل التعليمات التي تحدد بناء جسدك ووظائفه وصفاته، وهي تشبه لغات البرمجة، وفي ذلك يقول ريتشارد دوكنز، وهو من أبرز ملاحدة العصر:

»**يحمل الحمض النووي الصبغي معلومات مماثلة بصورة كبيرة لنوع معلومات الكمبيوتر. وبإمكاننا أن نقيس سعة الجينوم بـ«البتات (bits)** «**أيضًا إذا أردنا ذلك. لا يحمل الحمض النووي الصبغي شَفرة ثنائية، وإنما هي شَفرة رباعية؛ ففي حين يُمثل (١) و(٠) وحدة المعلومة في برمجة الكمبيوتر، تُمثل (T) و (A)و (C)و (G)وحدات الجينوم**[١١]«

فكما تُستخدم مجموعة محدودة من الرموز في لغات البرمجة لتخزين معلومات وتعليمات معقّدة، يستخدم الـ **DNA**أربعة أحرف أساسية هي (**A**) و (**T**)و (**G**)و(**C**)، ويعتمد ترتيبها على حمل المعلومات الوراثية.

حجم الشيفرة الوراثية في جسمك

الشيفرة الوراثية البشرية تحتوي على أكثر من ٣,١مليار زوج قاعدي ـــــوهذه الأزواج تمثل الجينوم البشري بالكامل.

والأعجب أن هذه الشيفرة موجودة كاملة في كل خلية من خلاياك، وعدد خلاياك يزيد على **٣٠تريليون خلية !**

أي في جسم الانسان أكثر من **٣٠ تريليون مكتبة صغيرة**، وكل مكتبة تحتوي على كتاب ضخم واحد مكتوب بـ ٣,١مليار زوج قاعدي من التعليمات الكيميائية.

ولو أردنا طباعة المعلومات الوراثية الموجودة في خلية واحدة على الورق كما في هذه الصورة، لاحتجنا إلى ما يقارب مليون صفحة كاملة!

وليس هذا كل شيء، بل الشيفرة الوراثية تُنسخ باستمرار، وتُترجم، وتُصلح نفسها ذاتيًا، وتصدر أوامر لتكوين البروتينات وتشغيل الجسم كله.

تخيل فقط: جهاز حاسوب ينسخ نفسه ٣٠تريليون مرة، ويقوم كل نسخ بنفس الوظائف بدقة متناهية... لو حدث هذا في أي مصنع، العالم كله سيقف مذهولًا ويقول: هذه معجزة تقنية! لكن عندما يحدث هذا في جسدك كل يوم، يأتي الملحد ويقول: «هذه حصلت بالصدفة.«

[١١] Richard Dawkins, A Devil's Chaplain, p.٩٥.

أطول شيفرة في الوجود : أتريد أن تعرف إلى أي مدى هذا الكود الوراثي معجز؟ لو قمنا بفرد الشيفرة الوراثية في خلية واحدة فقط من خلايا جسم الإنسان، سيكون طولها حوالي مترين كاملين.

٣٠تريليون خلية × ٢ متر = ٦٠ تريليون متر من الشيفرة داخل الجسم، **أي ما يقارب رحلة من الأرض إلى القمر والعودة أكثر من ٢٥٠ مرة**، وهذا ليس خيالًا علميًا، بل حقيقة موجودة داخل كل إنسان.

فك الشيفرة الوراثية وفهمها :

لقد نجح العلماء خلال العقود الأخيرة في فك الشيفرة الوراثية للإنسان، فيما عُرف باسم مشروع الجينوم البشري، الذي أُعلن عن اكتماله سنة ٢٠٠٣م بعد أكثر من عقد من العمل وتمكّن العلماء من تحديد ترتيب الحروف الكيميائية وفهم ما تعنيه في بناء وتشغيل أجسادنا. واليوم، أصبح بإمكان أي شخص أن يُحلّل جزءًا من حمضه النووي بسهولة في المختبرات أو المراكز الطبية لمعرفة بعض الصفات الوراثية، أو التاريخ العائلي، أو الاستعداد لبعض الأمراض.

بل الطب الحديث يعتمد على الشيفرة الوراثية في أمور كثيرة جدًا:

- تحديد الهوية :إذا عثرت الشرطة على شعرة في مسرح جريمة، فإنهم يحلّلون الشيفرة الوراثية ويعرفون المجرم بدقة.
- كشف الأمراض الوراثية :من خلال ترتيب الحروف يتبيّن إن كان هناك مرض ينتقل بالوراثة.
- إثبات النسب :الشيفرة الوراثية تحدّد الأب الحقيقي بدقة لا تقبل الشك.
- البصمة الوراثية :كل إنسان له بصمة جينية فريدة لا تتكرر، حتى بين التوائم!

إذن، هذا الكود ليس فوضى... بل تصميم محكم وتوقيع إلهي من ربٍ حكيم عليم

مثال بسيط على الشيفرة الوراثية: لون عينيك

العين تحددها الجينات، وكل جين هو تتابع من الحروف الأربعة(**A – T – C – G**) ، وهي أساس الشيفرة الوراثية.

لتقريب الفكرة: لو كان ترتيب هذه الحروف مثل **A – T – G** قد يرتبط بلون بني، و **C – G – A** –بلون أزرق، لكن في الحقيقة، لون العين لا يعتمد على ثلاثة أحرف فقط، بل على

سلاسل طويلة ومعقدة جدًا داخل عدة جينات تعمل معًا لتحديد كمية صبغة الميلانين في القزحية.

الجين يشبه وصفة دقيقة داخل جسمك، وهذه الوصفة هي الكتاب الخاص بالشيفرة الوراثية الذي يخبر الجسم كيف يصنع الميلانين، الصبغة التي تحدد لون العين. حسب نوع الجين، يحدد الجسم كمية الميلانين:

- كثير ← العين بنية أو سوداء
- قليل ← العين زرقاء أو خضراء

كل هذا يحدث بتنسيق وتنظيم مُعجز لا يمكن أن يكون صدفة.

تخيّل: كل هذه المعلومات مرتبة بدقة متناهية، وكل شيء يعمل بلا عقل أو مبرمج بشري.

والسؤال هنا :من كتب الشيفرة الوراثية؟ من أمر الخلية أن تنسخ نفسها جيلاً بعد جيل؟ هل الذرات تعرف البرمجة؟ هل الهيدروجين والكربون والنيتروجين تستطيع كتابة كود مُحكم كهذا؟

إذا كنت لا تستطيع أن تصدّق أن جهاز الحاسوب يكتب برنامجًا متكاملًا مثل وورد أو إكسل من تلقاء نفسه، فكيف تصدّق أن الذرات رتّبت نفسها بروابط كيميائية، وخطّت هذه الشيفرة وحدها، وكتبت أعظم البرامج في جسمك وأنت في الرحم: العقل، والقلب، والعين، والأذن؟

ولقد سبق أن ذكرنا أننا لو أردنا طباعة المعلومات الوراثية الموجودة في خلية واحدة على الورق، كما في هذه الصورة، لاحتجنا إلى ما يقارب مليون صفحة كاملة!

ولكي تدرك حجم هذا الكم الهائل من المعلومات، تأمل هذه التجربة التي قام بها العلماء؛ ففي عام ٢٠٠٣ أجرى باحثون من جامعة بليموث البريطانية تجربة مستوحاة من فرضية «القرد اللامتناهي»، فوضعوا لوحة مفاتيح حاسوب داخل قفص يضم ستة قرود، وتركوها تعبث بها مدة أربعة أسابيع. وبعد انتهاء التجربة، راجع الباحثون ما نتج عن تلك الضغطات العشوائية، فلم **يجدوا سوى صفحات من الحروف والرموز المبعثرة، غلب عليها تكرار الحرف الإنجليزي(S) ، دون أن يظهر أي نص مفهوم أو رسالة ذات معنى، بل انتهى الأمر بإتلاف القردة لوحة المفاتيح.**

فإذا كان هذا هو حال بضعة أسابيع من الضغطات العشوائية على لوحة مفاتيح، فكيف يُقال إن الشفرة الوراثية، بما تحمله من مليارات الأزواج القاعدية، وما تتضمنه من تعليمات دقيقة لبناء الكائن الحي وتشغيله، نشأت من تفاعلات عشوائية لا قصد لها ولا توجيه؟

وتأمل هنا قول العالم **بول ديفيز** وهو يصف هذه المعجزة: "**تكمن داخل كل واحدٍ منا رسالة،** إنها مكتوبة بشفرة قديمة، ضاعت بداياتها في الزمن. تحتوي الرسالة، بعد فك تشفيرها، على تعليمات حول كيفية صناعة إنسان. لم تُكتب الرسالة بحبر أو بحرفٍ مطبعي، **بل بذرات!. وعلى الرغم من أن الحمض النووي الصبغي بناءٌ مادي، فإنه يحمل في طيّاته معنى؛** إن ترتيب الذرات على طول الشريط الحلزوني لحمضك النووي هو الذي يحدد مظهرك، وحتى — إلى درجة كبيرة — كيف تشعر وتتصرف. فالحمض النووي هو مخطط(**Blueprint**) ، **أو بصورة أدق خوارزمية، أو دليل تعليمات لبناء إنسان حيّ يتنفس ويفكر**" انتهي [١٢]

والأعجب من ذلك كله أن الخلايا نفسها تعرف كيف تقرأ هذه الوصفة بدقة كبيرة، كل خلية تتعامل مع شيفرتها الوراثية كما لو كانت كتابًا مليئًا بالتعليمات، هي تفكّ الرموز الكيميائية واحدًا واحدًا، وتترجمها إلى أوامر واضحة، ثم تستخدم هذه التعليمات لبناء كل جزء من أجزاء جسمك —من العين إلى القلب، من الجلد إلى الأعضاء الداخلية — بدقة متناهية وكأنها مصنع متكامل يعمل بلا توقف! لذلك الإعجاز لا يكمن في الشيفرة الوراثية وحدها، بل في الخلية نفسها وكيف تُوجَّه لبناء كل عضوٍ في الجسم بدقة مدهشة.

ولمن أراد التوسّع في هذا الجانب، أنصح بالاطلاع على الشروحات العلمية حول إعجاز الخلية وآليات عملها.

وليس الإنسان وحده الذي يحمل الشفره الوراثية ... بل كل الكائنات الحيّة – حتى النباتات – تحمل في داخلها شيفرتها الوراثية الخاصة.

مثال النبات: الشيفرة الوراثية في أصغر كائن :

حتى أصغر بذرة تحمل داخلها شيفرة وراثية دقيقة تحدد كل صفاتها :لون الزهرة، شكل الورقة، وقت الإزهار، ونوع الثمرة. هذه المعلومات ليست في التراب ولا في الماء، بل داخل الـ **DNA** نفسه.

---

[١٢] Paul Davies, The Fifth Miracle, p. ٢٢

فعندما تسقط البذرة في التربة ويصلها الماء، تبدأ خلاياها فورًا بقراءة التعليمات المخزَّنة داخل الجينات — تمامًا كما تفعل خلايا الإنسان — فتُنتج الصبغات والإنزيمات، وتبني الجذور والساق والأوراق بمهارة مذهلة، وتُكوِّن اللون المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، وكأنها تتبع خطة هندسية دقيقة كُتبت لها منذ البداية.

فتأمل البذرة... حين تنشقّ عن ساق، ثم ورقة، ثم زهرة، ثم ثمرة، لم تفكر، لم تخطط، لم تتعلم، بل اتبعت برنامجًا دقيقًا كُتب فيها قبل أن تُخلق، برنامجٌ لو حاول العقل البشري نسخه، لاحتاج إلى آلاف السطور من الكود، ومصانع عملاقة تعمل بكفاءة لا تنطفئ.

وهنا يصبح السؤال الذي يهرب منه الملحد سؤالًا لا يمكن تجاهله:

كيف خرج النبات بهذا الشكل، وهو يحمل كل هذه المعلومات الوراثية الدقيقة، ويحول نقطة ساكنة من الأرض الميتة إلى كائن حي كامل التفاصيل؟ من كتب الكود؟ من صاغ اللغة الأولى للحياة؟

وليس الأمر مقتصرًا على النبات؛ **فحتى أبسط خلية في أبسط كائنٍ حي** تحمل دليلًا مذهلًا على هذا الإحكام.

وكما يقول الدكتور هيثم طلعت:

"فما مصدرُ الكمّ المعلوماتي الهائل الذي تحمله أولُ شفرةٍ وراثية؟ بل إن أبسطَ إنزيمٍ يتعامل مع شريط الـ**DNA** يتكون من أكثر من عشر وحداتٍ بروتينية. ولو تعطّل بروتين واحد فقط، أو اختفى، أو فسد ترتيب سلسلةٍ واحدةٍ منها، لتوقف عمل الإنزيم، وبالتالي يتوقف عمل شريط الـ**DNA** نفسه، فلا يكون للكائن الحي وجود. والأعجب أن شفرة هذا الإنزيم موجودةٌ داخل شريط الـ**DNA**؛ فالقضية هنا تعقيدٌ لا يقبل أيَّ قدرٍ من الاختزال أو التدرّج: إما أن تظهر المنظومات كاملةً دفعةً واحدة، أو لا تظهر أبدًا.

ويقول العالم الداروينى ويليام ستوكس **William Stoker**: «لو أحضرنا مليارات الكواكب مثل الأرض، وملأنا كلّها بالأحماض الأمينية، ثم انتظرنا مليارات السنين، ما كان لن يتكوَّن بروتين واحد». **W. R. Bird, the Origin of Species, p٣٠٥** ...

فكيف — وأبسطُ كائنٍ حي على الإطلاق، الميكوبلازما **Mycoplasma** — يحتوي على آلاف البروتينات المتخصصة؟!" انتهي من كتاب كيف تتخلص من الإلحاد .

وتأمل، لكي توجد **خلية حية أصلًا**، حتى لو كانت في غاية البساطة، كم تحتاج إلى أنظمة دقيقة ومتكاملة تعمل معًا في الوقت نفسه.

فأنت تحتاج إلى جدار للخلية، ومنظومة لإنتاج الطاقة، ومنظومة للإصلاح الذاتي، ونظام للاستنساخ، ووسيلة لترجمة الشفرة الجينية المعقدة الموجودة في الـ DNAونسخها، وغيرها من المنظومات الضرورية لبقاء الخلية حية.

ويقول الكيميائي ستيفن غروغوت» :(Stephen Grocott) أنت تحتاج أن تملك جدار الخلية، ومنظومة الطاقة، ومنظومة الإصلاح الذاتي، ونظام الاستنساخ، ووسيلة ترجمة وتفسير الشفرة الجينية المعقدة ونسخها، إلخ، إلخ. **وإن منظومات التواصل مجتمعة في العالم أقل تعقيدًا بكثير، ومع ذلك لا يؤمن أحد أنها نشأت بالصدفة**« انتهي [١٣]

وهكذا، فالخلية التي تبدو لنا بالغة الصغر ليست مجرد كتلة من المادة، **بل عالم متكامل من الأنظمة التي تعمل معًا بدقة مذهلة.**

اعتراف العلماء:

١- الفيزيائي الشهير) بول ديفيز:(Paul Davies –

يقرر في كتابه (المعجزة الخامسة) استحالة التفسير المادي البحت لنشأة الحياة، حيث يقول : " إن نشأة الحياة أمرٌ مستحيل عملياً من الناحية الطبيعية وأنَّه يُمكن أن يُغفر لك استنتاجك **بأن الجينوم بالفعل يُعد أمرًا خارقًا** (لا يمكن تفسير وجوده بشكل طبيعي) ». [١٤]انتهي

٢-الفيلسوف) أنتوني فلو:(Antony Flew – وهو الذي قضى عقوداً من عمره كأشهر ملحد في العالم قبل أن يعود للإيمان بوجود الخالق، مدفوعاً بالاكتشافات العلمية الحديثة، يقول متسائلاً: "كيف لكونٍ يتكون من مادة (غير عاقلة) أن يُنتج كائنات تتمتع بـ (غايات غريزية)، وقدرات على (الاستنساخ الذاتي)، و(كيمياء مشفرة)؟ إننا هنا لا نتعامل مع مجرد مشكلة بيولوجية، بل نحن أمام فئة مختلفة تماماً من المعضلات " [١٥]انتهي

التحدّي العقلي الحاسم: كيف تُنتج المادةُ "معلومة"؟

---

[١٣] John F. Ashton, ed., in Six Days (Groen Forest, AR: Master Books, ٢٠٠١), ١٤٩.

[١٤] Paul Davies, The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life p ٩

[١٥] Antony Flew with Roy Abraham Varghese: There is a God p١٢

تخيّل أنك أمام مكتبة ضخمة تضم آلاف الكتب المتقنة، وكل كتاب فيها مكتوب بلغة واضحة ومنسّقة، ويشرح أدق تفاصيل الجسم: كتاب للقلب، وآخر للمخ، وثالث للعين، ورابع للمناعة... وكل شيء منظم ومترابط ومفهوم كما لو أن مؤلفًا حكيمًا صاغه بعناية.

وهنا ينهض سؤال لا يمكن الهروب منه: من كتب هذه الكتب؟!

ولا يوجد عقليًا إلا احتمالان لا ثالث لهما:

١. كاتب عاقل وضع هذه المعلومات عن قصد ووعي.

٢. أو أن الحبر تناثر على الأوراق عشوائيًا عبر الزمن، فظهر كتاب كامل مفهوم!

والاحتمال الثاني يُرفض بالبداهة، لأن المادة — أيه مادة — لا تُنتِج معلومة من ذاتها مهما طال الزمن أو تعددت الظروف.

لماذا يستحيل أن تكتب ذرات الحبر كتابًا؟

أمسك قلمًا وورقة. القلم يحتوي حبرًا — جزيئات كيميائية مادية — والورقة مجرد ألياف نباتية. والحبر في القلم ليس إلا مادةً مكوَّنةً من جزيئات، أي من ذراتٍ مرتبة. وهذه الذرات لا تختلف في طبيعتها المادية عن ذرات الكربون والهيدروجين والنيتروجين التي تكوّن الشفرة الوراثية؛ فهي جميعًا ذرات تخضع للقوانين الفيزيائية والكيميائية نفسها، ولا تملك عقلًا، ولا قصدًا، ولا إرادة. لكن هل يمكنك أن تتخيّل أن هذا الحبر ينزل وحده على الورقة، فيكتب كتابًا يشرح القلب، أو يبني نظريةً علمية، أو يضع برنامجًا معقدًا؟

هذا مستحيل، لأن:

- الحبر مادة، والورقة مادة.
- أما المعلومة المكتوبة عليهما فهي شيء آخر تمامًا.

المادة تقدّم الحامل أي مجرد وعاء فقط ، لكن العقل وحده هو الذي يصنع المعنى، وينشئ الجمل، ويرتّب الحروف في لغة مفهومة.

وبهذا يتّضح أن المعلومة المفهومة ذات المعنى لا تنشأ من المادة وحدها، بل من عقلٍ ينظّم المادة ويصنع منها معنى؛ فالمادة لا تفهم، ولا تقصد، ولا ترتّب نفسها في لغةٍ مفهومة.

ولهذا كان مثال الكتاب مثالًا كاشفًا: فالورق والحبر مجرد مادة، أمّا المعنى والنظام واللغة فلا تأتي إلا من عقلٍ كاتب[١٦].

وتذكّر هنا ما ذكرناه سابقًا من قول بول ديفيز: إن الـ DNAفي النهاية بناءٌ مادي من الذرات، لكن ترتيب هذه الذرات هو الذي يجعلها تحمل معنى ومعلومات وتعليمات لبناء إنسان حي. ولذلك فمثال الحبر والورق ليس تشبيهًا مبالغًا فيه كما قد يبدو لأول وهلة؛ فالحبر والورق مادة، والـ DNAأيضًا مادة، لكن العبرة ليست في المادة ذاتها، وإنما في الترتيب الذي يحول المادة إلى معلومات ذات معنى.

مثال حديث: الكمبيوتر

الكمبيوتر مجرّد جهاز مادّي :(**Hardware**) أسلاك، شرائح، دوائر،لكن من دون كود برمجي مكتوب بلغة منظمة يصبح الجهاز قطعة صامتة لا وظيفة لها.

المادة وحدها: لا تُنتج "معنى"، ولا ترتّب نفسها في "لغة"، ولا تكتب "كودًا"،ولا تبتكر "نظامًا معلوماتيًا."

المعلومة — في أي مجال من مجالات المعرفة — لا تأتي إلا من مصدر واعٍ.

وهنا نعود إلى الشيفرة الوراثية في **الـ**DNA؛ فكما أن الكمبيوتر يحمل معلومات رقمية منظّمة، يحمل **الـ** DNAمعلومات بيولوجية منظّمة، مكتوبة بأربعة أحرف هي **A** و **T**و **C** و**G**.

وهذا المعنى نفسه أشار إليه عالم الكيمياء الحيوية **فضل رنا**(Fazale Rana) ، حين لفت الانتباه إلى التشابه المذهل بين لغة البرمجة البشرية ونظام تشفير الخلية، فقال :

---

[١٦] وسنعود إلى هذا المعنى لاحقًا — بإذن الله — عند الحديث عن الكون ذاته، حين يتبيّن أن هذا الكون منظَّم ومفهوم؛ فذراته ليست مبعثرة، بل مرتَّبة بنظام دقيق، كأنها مكتوبة بلغة كونية قابلة للفهم. والدليل على أن الكون مفهوم أن العقل الإنساني يقرأ هذا النظام، ويفهم قوانينه، ويصوغ معادلات تصف عمله، ويقيم على أساسه حضارةً وعمرانًا كاملين. فالكون كتاب، والعقل قارئ هذا الكتاب؛ فهل يكون كل هذا نتاجَ تجمعٍ عشوائيٍّ للذرات؟! وهل يكون الكتاب بلا كاتب؟! وهو ما سنبيّنه بالتفصيل في موضعه — بحول الله— في الباب الثالث، الفصل الثاني.

"إنَّ تقنيات النانو والتكنولوجيا الحيوية الحديثة —مثل استخدام تكنولوجيا الحاسوب في الـ **DNA**وتشفير أشرطته— تقدم مبرراً قوياً لحجة الذكاء الكامن في الكيمياء الحيوية؛ إذ تعزز هذه التقنيات الناشئة فكرة أن المعلومات البيوكيميائية هي (معلومات حقيقية) بكل ما تعنيه الكلمة، وتستخدم تطبيقاتها البيانات الموجودة في الـ **DNA**بنفس الطريقة الدقيقة التي يتعامل بها البشر مع المعلومات الرقمية.«انتهي

وهنا أذكّرك بما ذكرناه سابقًا من قول ريتشارد دوكنز:

"يحمل الحمض النووي الصبغي معلومات مماثلة بصورة كبيرة لنوع معلومات الكمبيوتر. وبإمكاننا أن نقيس سعة الجينوم بـ«البتات (bits) «أيضًا إذا أردنا ذلك. لا يحمل الحمض النووي الصبغي شَفرة ثنائية، **وإنما هي شَفرة رباعية؛** ففي حين يُمثل (١) و(٠) وحدة المعلومة في برمجة الكمبيوتر، تُمثل (T) و (A)و (C)و (G)وحدات الجينوم[١٧]« **انتهي**

ويعلّق الدكتور **سامي عامري** عن الشفرة الرباعية للDNA، فيقول:

»التشفير لغةٌ لها قواعد نحوية وصرفية، ورسالة من جنس المعلومات... **وليس في عالم المادة ما يسمح للغة والمعلومة أن ينبجسا من العدم في انفجار من غير رحم.**«

ثم يقول: "التشفير يقتضي — ضرورة — وجود:

١. شفرة.
٢. مشفِّر.
٣. قواعد تشفير.
٤. قواعد لفك التشفير.

فمن أين جاء كل ذلك إذا كان الوجود المادي بلا حكمة ولا غاية؟!« انتهي [١٨]

الواقع العلمي: دليل لا يُنكر

وهذه المعلومات ليست مجرد تشبيه أو وصف مجازي؛ بل هي معلومات حقيقية يمكن للعلماء قراءتها وتحليلها والاستفادة منها بالفعل.

•اليوم يستطيع العلماء تحليل الـ DNAوالتعرّف من خلاله على صفات وراثية وأصل جيني للإنسان.

---

[١٧] Richard Dawkins, A Devil's Chaplain, p.٩٥.

[١٨] **براهين وجود الله للدكتور سامي ص ٦٠٠**

•وفي الطب الشرعي، أصبح تحليل الـ DNAمن أقوى الوسائل العلمية للتعرّف على الأشخاص.

•وفي الطب وعلم الوراثة، يُستخدم الـ DNAفي دراسة الأمراض والصفات الوراثية.

•وقد تمكّن العلماء بالفعل من قراءة تسلسل الجينوم البشري ضمن مشروع الجينوم البشري، الذي أُعلن اكتماله عام ٢٠٠٣م.

وهذا كله يؤكد أن الـ DNAليس مجرد مادة كيميائية صامتة، بل **بناء مادي يحمل معلومات حقيقية ، مكتوبة بلغة يمكن قراءتها وتحليلها والاستفادة منها.**

خاتمه المبحث

عندما تنظر إلى حجم هذه المعلومات الهائل، وإلى دقة ترتيبها، وإلى الأنظمة التي تقرؤها وتنسخها وتترجمها، تدرك عظمة هذا النظام المذهل.

فالشيفرة الوراثية البشرية تحتوي على أكثر من ٣,١ مليار زوج قاعدي، والأعجب أن هذا الكتاب الضخم محفوظ كاملًا داخل كل خلية من خلايا جسدك، التي يزيد عددها عن ٣٠ تريليون خلية!

بمعنى: في جسدك أكثر من ٣٠ تريليون «مكتبة صغيرة»، وفي كل مكتبة كتاب واحد مكتوب بمليارات الحروف الكيميائية، يحمل تعليمات دقيقة لبناء الكائن الحي وتنظيم وظائفه.

ولو حاولنا طباعة المعلومات الموجودة في خلية واحدة فقط، لاحتجنا إلى قرابة مليون صفحة!

فتأمل هذا الكم الهائل من المعلومات، وهذه الدقة في ترتيبها، وهذا الترابط بين أنظمتها،**ثم اسأل نفسك:**

هل يمكن لذراتٍ لا تعقل، ولا تفهم، ولا تملك قصدًا، أن تنتظم في لغة، وتحمل مليارات المعلومات، وتحتوي على تعليمات دقيقة، ثم تعمل هذه التعليمات معًا لتبني كائنًا حيًّا كاملًا؟

إننا لا نتحدث هنا عن مجرد مادة اجتمعت في صورة معقدة، بل **عن معلومات، ولغة، وتعليمات، ونظام متكامل يعمل بدقة مذهلة.**

فإذا كانت مكوّنات الإنسان نفسها — من ذرات وعناصر كيميائية موجودة في تراب الأرض — لا تعقل ولا تقصد، فكيف يُقال إنها رتّبت نفسها بنفسها، وكونت هذه الشفرة، ووضعت هذه التعليمات، ثم بنت بها الإنسان وسائر الكائنات الحية؟!

فإذا كان الكتاب لا يأتي بلا كاتب، والبرنامج لا يأتي بلا مبرمج، والمعلومة لا تأتي بلا مصدرٍ واعٍ؛ فكيف جاءت هذه الشفرة، وهذه التعليمات، وهذا النظام الهائل من مجرد ذرات لا تعقل ولا تقصد؟!

إن هذا النظام المذهل لا يترك العقل أمام العشوائية، بل يقوده إلى **خالقٍ عليم، وضع في المادة هذا النظام، وفي الخلية هذه الشفرة، وفي الحياة هذه الحكمة.**

***

والآن، وبعد أن أتممنا — بفضل الله — الفصل الأول، قد يقول قائل:

»أين مصطلحات الملاحدة؟ أين الطفرات الجينية، والانتخاب الطبيعي، والآليات التطورية؟ ولماذا لا تتحدث عنها، ولا تتحدث إلا عن الكربون والهيدروجين وسائر عناصر الأرض؟«

والجواب بسيط: القول بأن الإنسان نتاجُ المادة هو النتيجة التي ينتهي إليها هذا التصور؛ ففي النهاية، يُرجِع أصل الكائنات الحية إلى المادة وعناصرها، وإلى تفاعلاتٍ ماديةٍ لا قصد لها ولا غاية. وهذا ما عبّر عنه عدد من منظّري الفكر الإلحادي، كما بيّنا وسيتبيّن — بإذن الله — في المباحث القادمة.

ولكن لكي يتقبّل الناس هذا التصور، يُعبَّر عنه بمصطلحات مثل: الطفرات الجينية، والانتخاب الطبيعي، والآليات التطورية. ويُقدَّم في صورةٍ علميةٍ معقّدة، فينشغل كثير من الناس بالمصطلحات، بينما قد تغيب عنهم الفكرة الأساسية التي يقود إليها هذا التصور.

فلو قيل للناس ببساطة: إن عناصر المادة تفاعلت عبر الزمن حتى ظهرت منها الكائنات الحية، لاستنكر كثير منهم هذا الكلام من أول وهلة؛ ولذلك لجؤوا إلى هذه المصطلحات، التي تجعل الفكرة تبدو أكثر تعقيدًا.

لكن إذا رجعنا إلى بداية القصة، وسألنا: ممَّ تكوّنت أول خلية حية؟ وكيف ظهرت الحياة لأول مرة؟ فإننا نعود إلى المادة نفسها: الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والنيتروجين، وغيرها من العناصر، التي يُفترض — وفق هذا التصور — أنها تفاعلت حتى نشأت منها الحياة.

أي إن أصل الكائنات الحية — وفق هذا التصور — يرجع في النهاية إلى مادةٍ صمّاء، لا وعي لها ولا قصد ولا غاية. وبهذا الفهم، فإن الإنسان — بل وجميع الكائنات الحية من حيوانٍ ونبات — يُفسَّر وجودها من خلال هذه المادة وتفاعلاتها.

فالمنهج العقلي البسيط : إذا أردنا أن نعرف الأصل المادّي للأشياء من حولنا، فإن أول ما نفعله هو تحليلها لمعرفة مكوّناتها.

مثال اللابتوب: كيف نعرف ممَّ يتكوّن؟ نفتحه، وندرس مكوّناته، ونحلله بالأجهزة والمجاهر، فنجد دوائر إلكترونية يدخل فيها السيليكون، ومعادن كالحديد والنحاس، ومواد بلاستيكية مصدرها النفط. وكل هذه المواد والعناصر موجودة في الطبيعة. فنستنتج أن اللابتوب مصنوع من مواد وعناصر موجودة أصلًا في الطبيعة.

ونستخدم المنهج نفسه مع الإنسان.

فعندما حلّل العلماء جسم الإنسان، وجدوا أن عناصره الأساسية هي نفسها عناصر موجودة في الأرض والبيئة من حولنا: الكربون، والأكسجين، والهيدروجين، والكالسيوم، والفوسفور، والحديد، وغيرها.

وهذه حقيقة تكشفها التحاليل العلمية الدقيقة والأجهزة الحديثة؛ فالعناصر التي يتكوّن منها جسم الإنسان ليست عناصر غريبة عن الطبيعة، بل هي موجودة فيها أصلًا.

ولذلك، لم أفعل سوى أن أعود بالأمر إلى جذوره، وإلى أصل الكائنات الحية، كما تناولنا في المبحث السابق حين طرحنا السؤال: كيف وُجدت الشفرة الوراثية بهذه الدقة؟

لقد قلنا: نعم، المكوّنات موجودة في الطبيعة ، والذرات موجودة... لكن السؤال العقلاني: من رتب هذه الذرات لتكوّن ٣,١ مليار زوج قاعدي تمثّل الجينوم البشري؟

من جمع الكربون والهيدروجين والأكسجين والنيتروجين والفوسفور ليكتب برنامجًا رقميًا ينسخ نفسه، وينتج بروتينات، ويدير مصانع خلوية دقيقة؟ والأعجب من ذلك: أن هذه الشيفرة موجودة في كل الكائنات الحيّة، ولكل كائن شيفرته الخاصة التي تميّزه وتُعطيه هويته ووظائفه. حتى أصغر الكائنات التي اكتشفها العلماء، وُجدت بداخله هذه الشيفرة العجيبة!

وأتحدّى أيَّ ملحدٍ أن يفسِّر كيف اجتمعت الذرّات عشوائيًا لتكتب «مكتبة معلومات» بحجم آلاف الكتب، موجودة في كل خليةٍ من خلايا الكائنات الحيّة.

فهذا هو ما أفعله: أرجِع بالكلام إلى الجذور الأولى؛ إلى الذرّات التي يتكوَّن منها الكائن الحي، فإذا بالمشهد ينكشف، وتظهر للعيان حقيقة هذا التصور، ومدى هشاشته عند التأمل الجاد.

وهذا—في الحقيقة—ما يتجنّبه كثيرٌ من الملاحدة؛ لأن الناس لو فكّروا بصدق في أصل النشأة وجذورها الأولى، فلن يجدوا في هذا الطرح ما يُقنع العقل، ولا ما يُشبع الفطرة.

وهنا تظهر عظمة القرآن الكريم... لم يلجأ إلى زخارف لفظية ولا مصطلحات معقّدة، بل واجه الإنسان بالحقيقة مباشرة من جذوره:

﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ الكهف

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ —الصافات: ١١

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ —نوح: ١٧

فالقرآن وضع أمامك الحقيقة منذ اللحظة الأولى، ووضع أمامك التحدي: أنت من مادة الأرض، فكيف تحوّل التراب إلى إنسان؟ وكيف خرجت من هذه المادة الصمّاء كائنات حيّة بهذه الدقة والتعقيد؟

وهنا تدرك جذور المشكلة مباشرة، وتدرك أن المادة وحدها لا تفسّر كل ما في الإنسان.

فمن ناحية، لم يخالف القرآن ما كشفه العلم عن الجانب المادي للإنسان، بل أخبر منذ البداية أن أصل الإنسان من تراب. لكنه تجاوز ذلك ليخبرك بحقيقة أخرى أعمق: أنك لست مادةً فقط، بل إنسانٌ كرّمه الله، ونفخ فيه من روحه، ومنحه عقلًا وإرادةً وقدرةً على الاختيار، وجعله قادرًا على الفهم والتأمل والبحث عن الحق.

فالعلم يكشف لنا ممَّ يتكوّن الجسد، أما القرآن فيكشف لنا حقيقة الإنسان كاملة؛ جسدٌ له أصل مادي، وإنسانٌ كرّمه الله بما وهبه من عقل وإرادة وروح.

وهذه هي عظمة الخطاب القرآني؛ فهو لا يقف عند وصف المادة التي يتكوّن منها الإنسان، بل يلفت نظرك إلى ما وراءها، وإلى الإنسان نفسه: من أين جاء؟ وما الذي يميّزه؟ وما غاية وجوده؟

وإليك بعض الأمثلة السريعة على عظمة القرآن وعلو خطابه، وإلا فالأمثلة أكثر من أن تُحصى:

١- تأمل يسير من سورة يس:

قال تعالى :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]

فاسأل أي ملحد: هل يمكن أن تتحول العظام البالية إنسانًا حيًّا من تلقاء نفسها؟ سيقول: مستحيل. فقل له: ومن الذي أنشأها أول مرة من تراب جامد لا حياة فيه؟!

وإذا كنت ترى أن إعادة العظام بعد فنائها محال، فكيف آمنت أن التراب الأصم عبر الزمن أنشأ مليارات البشر الأحياء؟!

٢- تأمل من مشهد النبات :

قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ • وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ • لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]

تأمل: ماء واحد ينزل على أرض واحدة، فإذا به يُخرج نباتًا متنوعًا مختلفًا في شكله وطعمه ورائحته ولونه: هذا عنب، وهذا تمر، وهذا تفاح، وهذا زيتون... فمن الذي أودع هذه القدرة في الأرض والماء؟ هل يستطيع بشر أن يصب ماءً على تراب، ثم ينتظر -ولو إلى الأبد- أن تنبت تفاحة أو ثمرة واحدة بغير بذرة خلقها الله؟! مستحيل. إنه فعل الحكيم القدير وحده.

٣- قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]

الحياة كلها سرٌّ إلهي.

هذا التحدي ليس مبالغة، بل حقيقة يشهد بها الواقع: لو اجتمع البشر جميعًا، بعقولهم وتقنياتهم ومعاملهم، على أن يخلقوا ذبابة واحدة -هذه المخلوقة التي نراها تافهة- لعجزوا عجزًا تامًا.

فإذا كان هذا حالهم مع ذبابة، فكيف بخلق إنسان؟!

ومن العجيب حقًا أنك ترى بعض الملاحدة ينكرون المعجزة، كتحوّل عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان، بدعوى أن هذا "خارق للعادة..." ثم في الوقت نفسه يؤمنون بما هو أعجب وأعظم خرقًا للعادة!

يؤمنون أن نفس هذه **المادة الصمّاء** -التي هي في حقيقتها مثل العصا: لا تعقل ولا تحيا- قد تحولت وحدها، وبلا عقل ولا إرادة، إلى **جميع الكائنات الحية!**

ليس مجرد ثعبان... بل إنسان بعقله، وإدراكه، ومشاعره، ونظامه المعقّد!

فأيُّ الأمرين أعجب؟ أن تتحول عصا إلى ثعبان بإرادة خالقٍ قادرٍ حكيم؟ أم أن تتحول المادة الصمّاء إلى حياة واعية بلا خالق ولا توجيه؟!

الحقيقة التي يغفل عنها كثيرون: أن ما يُستغرب في المعجزة، هو في الحقيقة قائم أمامنا كل يوم، لكننا ألفناه فلم نعد ننتبه له.

فالمعجزة لا تأتي لتُبهرك فقط، بل لتوقظك وتنبّهك: انتبه... ما تراه كل يوم ليس أمرًا عاديًا كما تظن!

فليس من "الطبيعي" أن ينزل ماءٌ على أرض، فتُخرج نباتًا حيًّا متنوعًا! وعندما ترى العصا تتحول إلى ثعبان، فاسأل نفسك: كيف تتحول المادة أصلًا إلى كائن حي؟! كيف تتحول ذرات صمّاء لا تعقل ولا تحيا، إلى إنسانٍ يرى، ويفكر، ويشعر؟! فإذا كنت تتعجب من تحوّل عصا إلى ثعبان، فالأَوْلى أن تتعجب من تحوّل التراب إلى إنسان!

هكذا، ببساطة ووضوح، يقودك القرآن إلى الله مباشرة، بلا تعقيد أو لفّ، بل بأدلة قاطعة دامغة تُخاطب جميع العقول والفطر.

إنه أقصر وأصدق وأعمق طريق للوصول إلى الله عز وجل، ويُظهر كيف يمكن للعقل البشري أن يستوعب الحقائق الكبرى بسهولة ويسر، دون الحاجة إلى تعقيدات فلسفية معقدة

***

الفصل الثاني: ما وراء المادة: الإرادة الحرة، العقل الواعي، الأخلاق، الفطرة

مدخل : سأمنحك كل التنازلات ...إلا هذا.

دعنا نبدأ من أبسط نقطة، وسأمنحك — لأجل النقاش — كل ما تطلبه من تنازلات.

سأفترض معك أن الإنسان بكل ما فيه من أجهزة وأعضاء وتعقيد مذهل، ليس إلا مجموعة من عناصر الأرض اجتمعت مع الزمن.

لحمك، ودمك، وعظامك، وعيناك، وقلبك، ومخك... كلها — وفق هذا التصور — ليست إلا ذرات من الكربون والهيدروجين والأكسجين والكالسيوم وغيرها، اجتمعت بطريقة ما حتى خرج منها هذا الكائن الذي نسميه «الإنسان.«

بل سأذهب معك أبعد من ذلك!

سأفترض — رغم صعوبة الأمر — أن الشيفرة الوراثية نفسها، بكل ما فيها من معلومات وتعليمات دقيقة، ظهرت عشوائيًا من المادة.

أي أن ذرات لا تعقل ولا تقصد، اجتمعت بطريقة ما، حتى أنتجت نظامًا يحمل مليارات التعليمات، ويقرأها وينفذها وينسخها ويحافظ عليها!

لكن هناك سؤالًا لن أتنازل عنه: **ماذا عن الإنسان الذي بداخل هذا الجسد؟!**

لأننا عندما ننظر إلى الإنسان، لا نجد لحمًا ودمًا وأعضاءً فقط، بل نجد عقلًا يفكر، ووعيًا يدرك نفسه، وإرادةً تختار، وضميرًا يلوم صاحبه، وقدرةً على التمييز بين الخير والشر، وإنسانًا يسأل: **لماذا أنا هنا؟ ما معنى حياتي؟ من أين جئت؟ وإلى أين سأذهب؟**

وأذكّرك بما فعلناه من قبل :**إذا أردنا معرفة أصل شيء، ننظر إلى مكوّناته** .وقد بيّن لنا تحليل جسم الإنسان أن عناصره المادية هي نفسها عناصر الطبيعة: الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والكالسيوم وغيرها، كما رأينا في المبحث السابق عند الحديث عن أصل الشيفرة الوراثية.

إذن يبقى أن نسأل عن هذه الأشياء التي نراها في الإنسان ولا نراها في الطبيعة المادية نفسها:

هل توجد في المادة إرادة حرة؟ هل فيها وعي؟ هل فيها قيم أخلاقية؟

ولننظر إلى سلوك المادة في الطبيعة:

الأكسجين لا يقرر إن كان يريد الاتحاد مع الهيدروجين، والحديد لا يفكر في أن يتحول إلى ذهب، والنار لا تختار من تحرق، والشمس لا تؤجل شروقها لأنها «لا تريد» أن تشرق.

فالذرات تتفاعل وفق خصائصها والقوانين التي تحكمها، ولا نرى فيها عقلًا يزن الخيارات، ولا إرادة تقول: «أريد» أو «لا أريد»، ولا ضميرًا يقول: «هذا صواب وهذا خطأ.«

وهنا يظهر السؤال الذي لا يمكن تجاهله:

إذا كانت المادة لا تملك إرادة، فمن أين جاءت إرادة الإنسان؟ وإذا كانت الذرات لا تعي، فمن أين جاء الوعي؟ وإذا كانت التفاعلات الكيميائية لا تعرف الخير والشر، فمن أين جاء الضمير؟ وإذا كانت الطبيعة لا تسأل عن الغاية والمعنى، فمن أين جاء الإنسان الذي يبحث عن معنى وجوده ومصيره؟

وفاقد الشيء لا يعطيه؛ فإذا كانت الطبيعة لا تعرف الإرادة ولا الوعي ولا المعنى، فكيف أنتجت كائنًا يملكها ويبحث عنها؟!

وهذه هي المعضلة التي أشار إليها كريج بويد ، وهو لاهوتي أمريكي، من خلال أربعة أسئلة بسيطة:

١. كيف أنتج العالم غير العاقل كائنات عاقلة؟

٢. كيف أنتج العالم الذي لا معنى له كائنات تبحث عن معنى؟

٣. كيف أنتج الكون اللاأخلاقي كائنات أخلاقية؟

٤. كيف خلق الكون كائنات تشتاق إلى ما هو أسمى وأعلى؟"

وأضاف بويد: «عندما تنظر إلى طبائع الطبيعة؛ تكتشف أن الطبيعة قد أنتجت كائنات تشتاق إلى أشياء تم توفيرها لها. نحن جائعون وهناك طعام، ونشعر بالعطش وهناك ماء... **حسنًا، من أين جاء هذا التوق إلى المعنى والخير والعقل إذن؟**«!!انتهي [١٩]

ويقول الدكتور هيثم طلعت حفظه الله" :إذا كنّا أبناءَ الطبيعة الخُلَّص، فكيف حصلنا على خصائصَ لا تتصف بها أمُّنا؟ **"!انتهى.**

والمقصود بـ "أمِّنا **"هنا هو** الطبيعة؛ لأن التصور الإلحادي يفترض أن الإنسان نتاجٌ مباشرٌ للمادة والطبيعة، ومع ذلك نجد في **الإنسان صفاتٍ لا وجود لها في الطبيعة نفسها، كالإرادة الحرة، والضمير، والقيم الأخلاقية، والبحث عن المعنى.**

تنويه قبل الدخول في الفصل الثاني

ما تشعر به في نفسك – من إرادة، وحرية، وضمير، وفطرة – هو أوضح برهان على أن الإنسان ليس مجرد مادة صماء تشكّلت بفعل الطبيعة.

بل هو مخلوق يحمل سرًّا أعظم: روح من أمر الله، هي التي تميّزه عن الكون كله، وتمنحه شرف الاختيار، ومسؤولية التكليف، ومعنى الوجود.

وهنا لا أحتاج إلى فلسفات مطوّلة أو جداول رياضية:

- هل أحتاج أن أشرح لك أنك حر في اختيارك؟ هذا أمر يدركه كل إنسان بذاته.
- وهل يحتاج المرء إلى برهان على وجود ضميره وهو يلومه إذا أخطأ؟!

ولهذا عبّر علماؤنا بقولهم: "توضيح الواضحات من الفاضحات."

---

[١٩] هذا الاقتباس موجود في كتاب *براهين وجود الله للدكتور سامي حفظه الله* ص ٣٦٦

عندما تقول" :*أنا أريد" ، "أنا لا أريد" ، "أنا قررت" ، "أنا نادم ..."* فأنت في الحقيقة تتحدث عن شيء عميق يسكن داخلك، لا يحتاج إلى دليل خارجي على وجوده.

يكفي أن تنظر إلى نفسك لتدرك أنك لست مجرد مادة تتحرك بلا قصد؛ فأنت تعي، وتريد، وتختار، وتندم. وهذه وحدها تكشف أن الإنسان أعمق من أن يُختزل في المادة؛ فقد كرّمه الله بالعقل والإرادة والضمير، ليختار طريقه ويُسأل عمّا اختار.

***

المبحث الأول : هل تختار بإرادتك؟ إذًا أنت لست مادة

قبل أن تسأل: من أين جاء الإنسان؟ اسأل نفسك أولًا: ماذا يوجد فيك أنت؟

أنت لا تشعر أنك مجرد شيء يتحرك بلا إرادة؛ **بل تعيش في كل لحظة وأنت تختار بإرادتك:** تستطيع أن تقول الحقيقة أو تكذب، أن تساعد أو تؤذي، أن تفعل أو تمتنع. وإذا أخطأت، تقول في داخلك» :**كان يمكنني أن أفعل غير ذلك**«، وتشعر بالندم؛ لأنك تدرك أنك كنت صاحب الاختيار.

وهنا يظهر سؤال مهم :**هل هذه الإرادة والقدرة على الاختيار حقيقة في الإنسان، أم مجرد وهم؟**

إذا كانت حقيقة، فكيف يمكن تفسيرها إذا كان الإنسان —كما يقول التصور المادي — ليس إلا مادةً وطبيعة، وكان عقله ووعيه وإرادته مجرد نتاج للمادة؟

فلننظر إلى المادة نفسها:

هل الذرات تختار؟ هل الإلكترونات تفكر؟ هل التفاعلات الكيميائية تريد شيئًا أو تقصد شيئًا؟ بالطبع لا.

المادة لا تقول: أريد أو لا أريد، ولا تختار بين طريقين، ولا تضع هدفًا ثم تسعى إليه .إنها تتفاعل وفق خصائصها والقوانين التي تحكمها، بينما أنت تفعل ذلك؛ تفكر، وتختار، وتخطط، وتقصد، وتراجع نفسك، **وتشعر بالندم إذا اخترت الخطأ.**

وهنا تظهر المفارقة بوضوح:

- **المادة لا تملك إرادة حرة ، بينما الإنسان يملك إرادة .**
- **المادة لا تعي ذاتها، بينما الإنسان واعٍ بنفسه وأفكاره.**

- **التفاعلات الكيميائية لا تملك قصدًا، بينما الإنسان يقصد أفعاله ويخطط لها.**

والقاعدة العقليه تقول: **فاقد الشيء لا يعطيه.**

الأعجب... أن هذه النتيجة لم نصل إليها نحن المؤمنون بالله وحدنا؛ فنحن عندما نظرنا إلى الطبيعة المادية، لم نجد فيها إرادةً حرة، ولا عقلًا، ولا قصدًا.

فقلنا: إذا كان الإنسان مجرد ابنٍ لهذه الطبيعة المادية، فكيف يمتلك شيئًا لا نراه في أصلها؟ وكيف تنتج الطبيعة كائنًا يختار، وهي نفسها لا تختار؟

وهنا اتفق معنا الملاحدة في أصل الإشكال :إذا كان الإنسان مجرد مادة، فكيف يمكن أن تكون له إرادةٌ حرة حقيقية؟

لكنهم لم يسلكوا الطريق الذي سلكناه نحن؛ فلم يقولوا:

"إذن هناك شيء في الإنسان يتجاوز المادة، **وهناك خالقٌ مريدٌ من خارج الطبيعة، هو الذي أودع في الإنسان هذه الإرادة الحرة، ومنحه القدرة على الاختيار.**

بل اختاروا حلًا آخر؛ فبدلًا من أن يقبلوا ما يترتب على وجود الإرادة من دلالة على خالقٍ مريد، **أنكروا وجود الإرادة الحرة من الأساس.**

فقالوا : **لا توجد إرادة حرة في الإنسان!!!**

وبذلك وقعوا في مخالفة **لبديهية من أعظم البديهيات التي يدركها الإنسان بفطرته.**

فنرى مثلًا الملحد **أليكس روزنبرج،** الذي ألّف كتابه الشهير ***The Atheist's Guide to Reality*** أي **دليل الملحد إلى الواقع،** ليبيّن فيه ما يراه من لوازم الإلحاد وما يترتب على التصور المادي للإنسان والكون، ومن ذلك موقفه من الإرادة الحرة.

وفي هذا السياق يصرّح روزنبرج بموقفه المادي قائلًا:

»**في الحقيقة، لا وجود لحرية الإرادة... نحن فقط تفاعلات كيميائية.**« انتهى الاقتباس.

تأمّل هذه العبارة جيدًا ، نحن نسأل :**من أين جاءت إرادتك؟ وكيف تملك القدرة على الاختيار؟** فيأتي الجواب المادي هنا :**الإرادة نفسها ليست موجودة ؛ فنحن في النهاية مجرد تفاعلات كيميائية.**

ولم يكن روزنبرج وحده في هذا الاتجاه؛ فانظر أيضًا إلى الفيزيائي الملحد **ستيفن هوكينغ،** الذي قال:

»من الصعب رؤية كيف يمكن للإرادة الحرة أن تعمل لو أن سلوكنا محكوم بقانون فيزيائي؛ لذا يبدو **أننا لسنا أكثر من آلات بيولوجية وأن الإرادة الحرة مجرد وهم** .« (انتهى)[٢٠]

وهنا نصل إلى النتيجة نفسها:

إذا كان الإنسان مجرد آلة بيولوجية تحكمها القوانين الفيزيائية، فأين موقع الإرادة الحرة؟

مرة أخرى، لا نجد تفسيرًا لكيفية ظهور الحرية، بل نجد إنكارًا لوجودها.

وتأمل أيضًا قول البيولوجي الملحد **ويليام بروفين(William Provine)** ، وهو يصف بوضوح ما يراه من النتائج المترتبة على الرؤية المادية والتطورية الصارمة، فيقول:

»يبدأ الأمر بالتخلي عن الإيمان بالإله الفاعل في الوجود، ثم يتم التخلي عن الأمل في حياة بعد الموت. عندما تتخلى عن الأمرين السابقين، تأتي الأمور التالية في التتابع بصورة سلسة: **تتخلى عن الإيمان بالأخلاق الكامنة في الوجود. وأخيرًا تصل إلى أن ليس للإنسان إرادة حرة. إذا كنت تؤمن بمذهب التطور، فليس لك أمل أن توجد أي إرادة حرة.** لا أمل البتة أن يوجد أي معنى عميق في الحياة. نحن نحيا ونموت، وسننتهي بصورة كلية عندما نموت.« (انتهى)[٢١]

وهذا الاقتباس مهم؛ لأنه يبيّن أن القضية عنده لا تقف عند الإرادة الحرة وحدها، بل تمتد إلى الأخلاق والمعنى والمصير.

فإذا لم يكن هناك خالق، ولا حياة بعد الموت، ولا معنى عميق للحياة، ولا إرادة حرة حقيقية...

فماذا يبقى للإنسان؟ مجرد كائن مادي يظهر لفترة من الزمن، وتتحكم فيه قوانين الطبيعة، ثم يموت وينتهي.

وهنا نسأل سؤال: **إذا لم تكن حرًّا، فلماذا تحاسب نفسك؟**

تخيّل قاتلًا أو خائنًا أو لصًا يقول لك» :**لم أختر ما فعلت، أنا مجرد تفاعلات كيميائية تحركت وفق قوانين الطبيعة.**«

---

[٢٠] Stephen Hawking, *The Grand Design*, New York: Random House Publishing Group, ٢٠١٠, p. ٣٢.

[٢١] Cited in: Wayne D. Rossiter, Shadow of Or: Theistic solution and the Absent God (Eugene, Oregon: Pick- wick Publications, ٢٠١٥), p.٣.

إذا أخذنا هذا التصور إلى نهايته، تنهار معه المسؤولية؛ لأن كلمة **أخطأت** تفترض أنك كنت تستطيع أن تفعل الصواب، وكلمة **أحسنت** تفترض أنك اخترت الخير بإرادتك.

لكن لحظة... هل يستطيع الإنسان أن يعيش بهذا التصور فعلًا؟

قد يقول في الفلسفة: «لا توجد إرادة حرة»، لكنه في حياته اليومية يتصرف على العكس تمامًا؛ يغضب ممن آذاه، ويشكر من أحسن إليه، ويندم إذا أخطأ ويعتذر، لأنه يشعر في داخله أنه **كان يستطيع أن يفعل غير ذلك**.

وهنا تظهر الحقيقة البسيطة :**الإرادة الحرة من البديهيات التي يعيشها الإنسان قبل أن ينظّر لها؛ فنحن لا نحتاج إلى برهان على أننا نختار بإرادتنا، لأن فعل الاختيار نفسه حاضر في تجربتنا في كل لحظة**.

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني رحمه الله في كتابه *توحيد الخالق*:

»ويزعم بعض الكافرين أن الإنسان عبارة عن تفاعلات كيماوية، وأن لا شيء فيه غير المادة التي تتفاعل مع بعضها كيماويًا، فينتج عنها هذا النشاط الإنساني؛ فالأكل، والشرب، والعمل، والكلام، والضحك، والبكاء، والحب، والكراهية، والشجاعة، والجبن، وكل سلوك إنساني ليس إلا نتيجة لتفاعلات كيماوية!!

ولا يرد هذا القول بأكثر من القول بأن الإنسان على هذا لا إرادة له في أي عمل يقوم به؛ لأن التفاعلات الكيماوية تحدث داخله فتجعله شجاعًا أو جبانًا، كريمًا أو بخيلًا، متحركًا أو واقفًا، ضاحكًا أو باكيًا، متكلمًا أو صامتًا، محسنًا أو مسيئًا. ومعنى هذا أيضًا أنه إذا قتل شخص غيره فلا يُسأل عن ذلك؛ لأن التفاعلات الكيماوية التي تمت في جسمه هي التي حرّكت جسمه للقتل!! ولو كان هذا القول الباطل حقًا؛ لكنت تعمل وتتوقف، وتسير وتتحرك، وتتكلم وتصمت بطريقة آلية كيماوية، وبدون إرادة منك أو اختيار، **وذلك أمر ظاهر البطلان**.

إنك روح وجسد، كما قال ربك: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر : ٢٩) **روح تتصرف، وجسد يتحرك تحت تصرف ذلك الروح**.« انتهي

خاتمة المبحث

١. **الإرادة الحرة حقيقة أولية** يدركها الإنسان بفطرته وبالضرورة العقلية؛ فنحن نعلم من داخل أنفسنا أننا نختار بين أفعال متعددة، ونستطيع أن نفعل أو نترك.

٢. **إنكار الإرادة الحرة يهدم معنى المسؤولية الأخلاقية**؛ فإذا كان الإنسان مجرد آلة مسيّرة بالكامل، فلا يبقى للمدح والذم، ولا للثواب والعقاب، ولا للعدل والظلم، معنى حقيقي.

٣. **فإذا كانت المادة لا تملك عقلًا ولا إرادة ولا وعيًا، فمن أين جاء الإنسان بهذه القدرات؟** لا بد أن وراء هذا الإنسان خالقًا حكيمًا عليمًا مريدًا، منحه العقل والوعي والإرادة، وأعطاه السمع والبصر، وهداه السبيل، وجعله قادرًا على الاختيار ومسؤولًا عما اختار.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فالإنسان يختار، لكن اختياره ليس بلا حساب؛ بل تترتب عليه المسؤولية والجزاء.

وهذا الاختيار من أعظم مظاهر التكريم الإلهي للإنسان؛ فهو ليس بهيمة تُساق بلا وعي أو اختيار، ولا جمادًا يتحرك بلا إرادة، بل مخلوق كرّمه الله بالعقل والإرادة، وميّزه بالقدرة على التمييز بين الخير والشر، وجعله مسؤولًا عما يختار.

***

المبحث الثاني : برهان العقل الواعي ؟

كيف وُلِد العقل؟

هناك سؤال أعمق من مجرد: كيف تكوّن الجسد؟

كيف ظهر العقل الذي يفكر في هذا الجسد؟

فبحسب التصور المادي، الإنسان في النهاية مجموعة من المادة والتفاعلات، لكننا لا نجد في الإنسان مجرد تفاعلات كيميائية، بل نجد **عقلًا يفكر، ووعيًا يدرك نفسه، وقدرةً على التحليل والتخطيط والاختيار والابتكار.**

بين المخ والعقل الواعي

وهنا يجب أن نفرّق بين **المخ** وبين **العقل الواعي**.

فالمخ عضو مادي محسوس؛ يمكن رؤيته وفحصه، وقياس نشاطه الكهربائي، ودراسة خلاياه وأنسجته ومكوّناته.

أما العقل الواعي فهو ما نعيشه من **تفكير وفهم وإدراك وتخيل وتخطيط واختيار** .فأنت لا تكتفي بأن تحدث فيك تفاعلات، بل تدرك أفكارك، وتفكر فيها، وتربط بينها، وتحكم عليها، وتضع لها غاية وهدفًا.

أنت لا تتحرك فقط، بل **تعرف أنك تتحرك**.

ولا تتفاعل فقط، بل **تفكر في تفاعلك وتقرر ما تريد فعله**.

وهنا يظهر السؤال:

كيف يمكن لمجموعة من الأجزاء المادية غير الواعية أن تنتج وعيًا يدرك نفسه ويفكر في العالم وفي ذاته؟

وهنا يطرح الفيلسوف الأمريكي جون سيرل **مشكلة الوعي** وتناقضه مع المذهب المادي الفيزيائي، قائلًا:

"أتباع المذهب الطبيعي منزعجون من وجود كيانات عقلية (أو ذهنية) غير قابلة للاختزال؛ لأنهم أخطأوا التفكير في هذا السؤال، إذ يظنون أنه متسق منطقيًا ويحتاج إلى جواب، **وهو: كيف يمكن لأجزاء مادية صغيرة غير واعية أن تنتج وعيًا؟!**"انتهي[٢٢]

يرى سيرل أن هذا السؤال نفسه غير متسق منطقيًا، **لأن المادة غير الواعية لا يمكن أن تُعطي ما لا تملك**.

وأما عن كوننا كائنات عاقلة تفهم الكون وتقيم حضارة، فيتساءل الملحد **ستيفن هوكينج** متعجبًا، فيقول: "إن حقيقة أننا نحن البشر – **الذين هم في النهاية مجرد تجمعات من جسيمات الطبيعة الأساسية** – قد اقتربنا من فهم القوانين التي تحكمنا وتحكم الكون، تُعد انتصارًا عظيمًا". انتهي[٢٣]

---

[٢٢] (Searle, J. (١٩٩٤) *The Rediscovery of the Mind*. Cambridge, MA: MIT Press, p. ٥٥)

[٢٣] (Hawking & Mlodinow, *The Grand Design*, p. ١٨١)

لكن هذا الانتصار نفسه يفتح أمام التفسير المادي سؤالًا عميقًا :**كيف امتلكت هذه المادة وعيًا قادرًا على فهمها هي نفسها؟**

فامتلاكنا للوعي أمر بديهي؛ والدليل من زاويتين:

الأولى :أنك الآن تقرأ كتابًا وتفهم معانيه، وتربط بين الأفكار، وتحل مسائل رياضية، وتضع القوانين، وتبني الحضارات، وتسأل عن أصل الكون ومصيره. فأنت لا تتفاعل مع العالم فقط، بل **تفهمه وتدرسه وتكتشف القوانين التي تحكمه والأهم أنك تختار ما تفعله .**

والثانية :أننا نعرف سلوك الأشياء غير الواعية، وبضدها تتميز الأشياء؛ فالجماد يتحرك وفق القوانين التي تحكمه، والحيوان — مع ما لديه من إدراك وغرائز — يتحرك في حدود ما أودع الله فيه من قدرات، لكنه لا يجلس ليضع نظرية رياضية، أو يبحث عن معنى وجوده، أو يكتشف قوانين الكون.

إذن السؤال ليس :**هل لدينا وعي؟** فهذا أمر نعيشه في كل لحظة، وإنما :**كيف ظهر هذا الوعي ؟** كيف خرج من مادة لا تعي، عقلٌ يقرأ ويفهم ويحلل ويبتكر ويكتشف قوانين الكون؟

وهنا تظهر المشكلة أمام التفسير المادي :**كيف أنتجت مادة غير واعية كائنًا واعيًا قادرًا على فهم هذه المادة نفسها؟**

ولذلك فإن وجود العقل الواعي يشير إلى خالقٍ عليمٍ حكيم، أودع في الإنسان العقل والوعي والفهم، وجعله قادرًا على التأمل في الكون والبحث عن أصله وغايته ومصيره.

ننتقل الآن إلى فكرة أخرى للبرهان من رؤيه مختلفة:

حين تنظر إلى أي برنامج أو نظام ذكاء اصطناعي على جهازك، لا يخطر ببالك لحظة أن «الذرات رتّبت نفسها» وكتبت الأكواد وحدها. أول ما يقوله عقلك ببساطة: وراء هذا النظام عقل بشري صمّم، وبرمج، ونظّم، وربط بين أجزاء معقدة بدقة مذهلة.

الذكاء الاصطناعي — وهو مجرد محاكاة لقدرات الإنسان — لم يأتِ من فراغ، بل جاء من علماء ومهندسين وفِرق بحثية عملت لسنوات طويلة.

فإذا كان نظامٌ يُقلّد العقل يحتاج عقلًا ليصنعه... فكيف بالعقل الحقيقي نفسه؟!!

نحن لم نرَ يومًا نظامًا ذكيًا ينشأ من فوضى بلا توجيه، فكيف بالعقل البشري، وهو أعقد وأعمق من أي نظام صنعناه؟

فالعقل البشري هو أعقد منظومة نعرفها:

•شبكات عصبية تضم أكثر من مئة مليار خلية، ترتبط فيما بينها بتريليونات الوصلات، في شبكة تفوق أي نظام صنعه الإنسان تعقيدًا.

•كل خلية عصبية ليست مجرد وحدة بسيطة، بل نظام دقيق يستقبل ويعالج ويرسل الإشارات في جزء من الثانية.

•ذاكرة قادرة على تخزين بلايين المعلومات: أصوات، صور، وجوه، لغات، وتجارب تمتد عبر سنوات طويلة.

•قدرة مذهلة على التعلّم ، ووعي يتجاوز حدود المادة، فيسأل: من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ وما غاية الوجود؟

ولهذا نختم ونقول: **العقل هدية من الله.**

فالعقل هبة إلهية منحها الله للإنسان حين خلقه وكرّمه، وجعله قادرًا على التفكير والتعلّم والتمييز، وأودع فيه من القدرات ما يجعله يتأمل نفسه والكون من حوله، ويبحث عن الحقيقة والغاية من وجوده.

فالإنسان لم يُمنَح عينًا ميكروسكوبية كالتي تملكها الحشرات الدقيقة، ولا بصرًا تلسكوبيًا خارقًا كعين الصقر—ومع ذلك استطاع بعقله أن يصنع الميكروسكوب الكهربائي الذي يرى به بكتيريا وفيروسات لم تكن تُرى قط، واستطاع أن يصنع التلسكوبات العظيمة التي تكشف «سُدُمًا» تحتاج إلى تضخيم قدرته البصرية ملايين المرات ليُدركها.

ولم يُمنَح الإنسان سمعًا خارقًا يسمع الذبذبات العالية والمنخفضة كما تفعل بعض الحيوانات، لكنه استطاع بعقله أن يخترع أجهزةً تُسمِعه أصواتًا قادمة من أميال، وكأنها تُقرع فوق طبلة أذنه، وأن يسجّل وقعَ أشعة الشمس نفسها.

ولذلك فإن إبداع العقل شاهدٌ على مُبدعه، وآثار الحكمة دليلٌ على الحكيم، وكل ما في الإنسان من قدرةٍ على الفهم والتصميم والابتكار، ليس إلا أثرًا من آثار نفخة التكريم الإلهي فيه.

قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)

***

وقبل الانتقال إلى المبحث القادم، لنلخص سريعًا ما سبق، مع التركيز على **الرد على خرافة التطور المادي الداروينى**، في ثلاث نقاط أساسية.

١- **التركيب الوراثي المعقّد :**

سبق أن بيَّنا أن جميع الكائنات الحية — من أبسطها إلى أعقدها — تحمل شيفرةً وراثيةً دقيقة، تتضمن قدرًا هائلًا من المعلومات والتعليمات المنظمة التي تقوم عليها حياة الكائن ووظائفه. ووجود هذا النظام المعلوماتي الدقيق في جميع الكائنات الحية، بما يحمله من ترتيبٍ وإحكام، يدل على وجود خالقٍ عليمٍ حكيم، أودع هذه المعلومات في أصل الحياة.

والأعجب من ذلك أن هذه الشيفرة **ليست متطابقةً تمامًا بين جميع الكائنات الحية،** بل توجد صور وأنماط مختلفة للكود الجيني، مما يزيد الأمر تعقيدًا وإحكامًا، ويجعلنا أمام نظامٍ معلوماتي بالغ الدقة والتنوع.

ويقول الدكتور هيثم طلعت:

»وقد تبين منذ أكثر من ٤٦ سنة أن الكود الجيني غير متطابق بين الأنواع المختلفة. فهناك طرق متنوعة لتكويد أنواع الكائنات الحية وصلت لأكثر من ٣٠ نوع مختلف طبقًا لآخر تحديث لل NCBIفي سبتمبر ٢٠٢٤ . « انتهى كلامه، حفظه الله.

٢- **العقل والإبداع :**

الإنسان يمتلك عقلًا واعيًا قادرًا على التأمل، التحليل، واتخاذ القرارات المعقدة. هذا العقل لا يقتصر على مجرد معالجة المعلومات، بل يبدع ويبتكر، ويحوّل المعرفة إلى اختراعات وحضارات.

فكر في قدرة الإنسان على اكتشاف قوانين الطبيعة، ابتكار الأجهزة، تأليف الكتب، وابتكار اللغات لنقل الأفكار. كل هذه القدرات لا توجد لدى أي كائن آخر، فهي تتجاوز حدود المادة، وتدل على أن الإنسان ليس مجرد نتيجة للتفاعلات الكيميائية العشوائية، بل هو كائن ذو بُعد فريد وفائق التنظيم والإبداع.

إن العقل الإنساني قادر على ابتكار أفكار ومفاهيم تتجاوز ما تراه العين أو تدركه الحواس ، وتخطيط المستقبل، وحل المشكلات المعقدة بطريقة لا يمكن لأي حيوان محاكاتها. هذا يوضح بجلاء الفرق بين الإنسان وكل الكائنات الأخرى، ويؤكد أن وجود الوعي والإبداع مرتبط بالخالق الحكيم الذي وهب الإنسان هذه الموهبة الفريدة.

٣- **قوانين الفيزياء ضد التطور العشوائي :**

إنّ القانون الثاني للديناميكا الحرارية — وهو أحد القوانين القطعية في الفيزياء — ينصّ على أن الأنظمة الطبيعية تميل مع مرور الزمن إلى الفوضى والانحلال لا إلى التنظيم والتعقيد.

فكل نظام منظَّم يتجه نحو الاضطراب مع الزمن، ولا يمكن أن يتحول تلقائيًا من البسيط إلى الأعقد، أو من الفوضى إلى النظام، دون تدخّلٍ واعٍ وموجّهٍ خارجيٍّ يعيد ترتيب مكوّناته.

ولهذا يستحيل أن يتحول كائن بسيط — كالدجاجة أو الفأر — إلى إنسانٍ أعقد وأرقى.

ولهذا السبب، لا نجد حيوانًا ارتقى ليخترع أو يؤسس حضارة، أو يصنع لغةً ذات قواعد ومعانٍ مجردة كالإنسان.

فاللغة البشرية — بتركيبها وقواعدها ودلالاتها — تُعدّ من أعظم الشواهد على تفرّد الإنسان، إذ تمكّنه من التعبير عن الأفكار والمشاعر، ونقل المعارف، وبناء العلوم والفنون، بينما تبقى وسائل التواصل عند الحيوانات محدودةً في نطاق إشارات غريزية وأصوات بسيطة تعبّر عن حاجات فورية لا أكثر، ولا يمكنها بناء علم أو ثقافة أو حضارة.

والأشد استحالةً أن تتحول المادة الميتة الصمّاء مع مرور الزمن إلى معجزة اسمها الحياة، بما فيها من وعيٍ وإرادةٍ وعقل.

فالزمن لا يخلق حياة، والعشوائية لا تنتج نظامًا، وإنما الذي أوجد الحياة من العدم هو الخالق الحكيم الذي قدّر كل شيء فأحسن تقديره.

هذا القانون العلمي لا يثبت فقط استحالة التحول من الأدنى إلى الأعلى، بل يتفق أيضًا مع علم الحفريات الذي يبرهن بوضوح على غياب الكائنات الوسيطة.

ما المقصود بالكائنات الوسيطة؟

هي تلك الكائنات الافتراضية التي يُفترض — بحسب نظرية التطور العشوائي — أن تمثل مراحل انتقالية بين نوع وآخر، ككائن نصفه قرد ونصفه إنسان، أو نصفه سمكة ونصفه زاحف، فلو كان التطور صحيحًا، لكان من اللازم أن يمتلئ سجل الحفريات بملايين الكائنات الانتقالية، بحيث تمثل كل خطوة من خطوات التطور التدريجي المزعوم، **لكن الواقع أن سجل الحفريات خالٍ تمامًا من أي كائن انتقالي، ولم يُعثر فيه إلا على كائنات مكتملة الأنواع منذ أول ظهورها.**

وننقل هنا شهادتين ذكرهما الشيخ الزنداني رحمه الله:

يقول الدكتور **سوريال** في كتابه »**تصدع مذهب دارون**:«

»**إن الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء**، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة، ولا بين الحيوانات الرخوة والمفصلية، ولا بين الحيوانات اللافقرية والفقريات، ولا بين

الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخيرة والزواحف والطيور، ولا بين الزواحف والحيوانات الأديمية«...

ويقول **الكونت دي نوي:**

»كل مجموعة، كل فصيلة، **تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة، إننا لم نعثر على أي شكل انتقالي**، ومن المستحيل أن نسبب أي مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم«.

انتهى الاقتباس من كتاب توحيد الخالق صـ ٢٧٠.

وليس علم الحفريات وحده من يكشف هذا النقص، بل الواقع المشاهد أيضًا.

فنحن لم نرَ يومًا كائنًا حيًا في حالة انتقالية: لم يُشاهد إنسان له ذيل مثل القرود، ولا حيوان تطوّر مثلا عبر الزمن حتى أصبح قادرًا على اختراع التكنولوجيا أو إقامة حضارة. ولم تُرَ دجاجة تكتب كتابًا أو تخاطب فيلسوفًا بلغته ، **بل إن كل نوع باقٍ على خصائصه وحدوده التي خُلق بها، دون أن يتجاوزها أو يتحول إلى نوع آخر.**

وإذا تجاوزنا الجانب المادي، وجدنا فارقًا أعظم من ذلك كله؛ فالإنسان لا يختلف عن سائر الكائنات الحية في بنيته الجسدية فحسب، **بل يتميز عنها بعالمٍ كامل من المعاني النفسية والروحية والأخلاقية.** فهو يحب ويكره، ويرحم ويشفق، ويؤنّبه ضميره إذا أخطأ، ويدرك معنى الخير والشر، والعدل والظلم، والجمال والقبح، ويتساءل: لماذا وُجدت؟ وما الغاية من وجودي؟ وإلى أين المصير بعد الموت؟

إن هذه المعاني من أعظم ما يميّز الإنسان عن سائر المخلوقات.

(ما ذكرته آنفًا من علم الأحافير والواقع المشاهد وغيرهما، إنما هو لمحة سريعة وإشارة موجزة فحسب؛ فالأدلة على بطلان وخرافة التطور أكثر من أن تُحصَر في هذه الصفحات. غير أني التزمت في هذا الكتاب أن يكون مبسطًا قدر المستطاع. ولمن أراد التوسع والاطلاع على الأدلة الأخرى المفصلة، فليرجع إلى أعمال علمائنا الأفاضل، مثل الدكتور سامي العامري، والدكتور هيثم طلعت حفظهما الله، وغيرهما من الباحثين الذين نفع الله بهم الأمة)" .

والآن، وبعد هذا التلخيص الموجز، نعود إلى موضوعنا الأساسي في هذا الفصل، وهو الحديث عن **الأبعاد غير المادية في الإنسان،** فقد تناولنا من قبل الإرادةَ الحرة، والعقلَ الواعيَ المبدع، ونصل الآن إلى البعد الثالث الأسمى في الإنسان؛ **ذلك البعد الذي يُظهر سموَّ روحه ورفعة معدنه، وهو بُعد القيم الأخلاقية.**

***

المبحث الثالث: إذا كانت المادة لا تشعر – فمن أين جاءت الرحمة؟

برهان الأخلاق

حين نتأمل في أنفسنا كبشر، لا نجد فقط عقلًا يفكر وإرادة حرة تختار، بل نجد شيئًا أعجب وأعمق :الرحمة، والعدل، والتضحية، والضمير، والشعور بالذنب، والحب غير المشروط، والميل لنصرة المظلوم ورفض الباطل.

هذه الصفات لا تُرى ولا تُلمس، لكنها حاضرة في أعماق النفس الإنسانية بقوة تفوق المحسوسات.

مثل حيّ: الرحمة

انظر إلى الأم وهي تجري على طفلها الجريح، تحتضنه وتبكي من ألمه كأنه ألمها، وانظر إلى الأب الساهر بجانب ابنه المريض، يتألم بصمت ولا يقدر على النوم، بل وانظر إلى إنسان لا يعرفك، لكنه يُعرّض نفسه للخطر من أجل إنقاذك.

السؤال: من زرع قيمة الرحمة في قلب الأم؟ من أين جاء هذا الدافع الغريب الذي يجعل إنسانًا يضحي بنفسه من أجل آخر؟

الفكر المادي والإلحاد... والتناقض الكبير

الملحد، كما رأينا في البراهين السابقة، مجبر على الإيمان بأنه مجرد "تجمع عشوائي للطبيعه الماديه"، وأن كل مشاعرنا ليست إلا نتيجة حتمية لسلوك المادة.

لكن هذا التفسير يحمل تناقضًا واضحًا، لأن المادة – بطبيعتها – لا تملك أي قيم اخلاقيه كصفه الرحمة وحب العدل ورفض الظلم وغيرها فالمادة قد تتحرك أو تتفاعل أو تتفتت... لكنها لا تشعر، لا تحب، لا تعطف، ولا تحمل ضميرًا.

ولهذا، لا تتعجب أن الإلحاد مضطر – في جوهره – إلى إنكار وجود القيم الأخلاقية ، **إلا إذا اعترف بوجود مصدر غيبي فوق مادي زرع فينا هذه القيم، والإرادة، والوعي، وسائر المعاني العليا.**

وفي هذه الحالة، لو اعترف نقول له: مبارك، لقد آمنت بالغيب!

لكن لأنهم لا يؤمنون بالغيب، بل يؤمنون بالطبيعة وحدها – أي الكون بما يحتويه من مادة وطاقة لا أكثر – فقد اضطروا من البداية إلى خطوة أخطر: إنكار الإرادة الحرة.

ثم إذا استمروا في نفس البناء المنطقي، يصلون بالضرورة إلى إنكار القيم الأخلاقية ذاتها ، فتتحول الأخلاق عندهم إلى مجرد أوهام بلا **أصل مُلزِم ولا قيمة حقيقية**.

ورغم أن هذا الكلام قد يبدو للبعض ''صادمًا'' أو حتى ''غير معقول...''

إلا أنه في الحقيقة **ليس إلا النتيجة المنطقية الوحيدة المتسقة مع هذا المذهب إذا أُخذ بجدّية حتى النهاية**، ولهذا فهم يتعمدون إخفاء هذه اللوازم عن العامة حتى لا تنفر الناس منهم.

ولذلك علق الدكتور سامي عامري فقال :

"الملحد الحقيقي كائن لم يكن ولن يكون ما دام الإنسان الذي نعرفه هوا ذلك الإنسان حتي قيل انه إذا أرادوا أن يحتفلوا بعيدٍ للملحدين، فليكن في الأول من أبريل، الموافق لكذبة أبريل". انتهي

حتى الفلاسفة الملحدون اعترفوا بالعجز

وقد أقرّ بهذا التناقض بعض رموز الإلحاد أنفسهم، مثل الفيلسوف الملحد أليكس روزنبرغ، الذي أوضح في كتابه – *The Atheist's Guide to Reality* وهو كتاب يشرح نتائج الإلحاد على فهم الواقع والقيم – أن:

"لا يوجد شيء اسمه الصواب أو الخطأ الأخلاقي. الحياة البشرية الفردية بلا معنى ولا قيمة أخلاقية نهائية. علينا أن نواجه حقيقة أن العدمية صحيحة".

ويؤكد هذا المعنى أيضًا البيولوجي الملحد ويليام بروفين(William Provine) ، وهو يصف بوضوح ما يراه من النتائج المترتبة على الرؤية المادية والتطورية الصارمة، فيقول:

»يبدأ الأمر بالتخلي عن الإيمان بالإله الفاعل في الوجود، ثم يتم التخلي عن الأمل في حياة بعد الموت. عندما تتخلى عن الأمرين السابقين، تأتي الأمور التالية في التتابع بصورة سلسة: **تتخلى عن الإيمان بالأخلاق الكامنة في الوجود. وأخيرًا تصل إلى أن ليس للإنسان إرادة حرة**. إذا كنت تؤمن بمذهب التطور، فليس لك أمل أن توجد أي إرادة حرة. لا أمل البتة أن يوجد أي معنى عميق في الحياة. نحن نحيا ونموت، وسننتهي بصورة كلية عندما نموت.« (انتهى)[٢٤]

[٢٤] Cited in: Wayne D. Rossiter, Shadow of Or: Theistic solution and the Absent God (Eugene, Oregon: Pick- wick Publications, ٢٠١٥), p.٣.

بل عبّر الفيلسوف الملحد جان بول سارتر عن حزنه لهذا الفراغ القيمي الملازم للإلحاد، فقال بصدق:

"إنّه لمن المحرج جدًا أن الله غير موجود؛ إذ إن كل إمكانية للعثور على **قيم في سماء الفكر تختفي مع اختفائه**[٢٥]".

وهذا اعتراف ثمين: *حين تنكر وجود الله، تنكر معه كل أساس للقيم.*

لكن الحقيقة المباشرة التي نعيشها تُكذّب هذه الفكرة تمامًا

الرحمة... العدل... كراهية الظلم... احترام الضعيف... الشعور بالذنب عند الخطأ... هذه ليست أفكارًا فلسفية نقرأها في الكتب.

هذه بداهات داخلية، موجودة في كل الثقافات، وعند كل البشر، وفي كل الأزمنة.

فمن أين جاءت إذًا؟ من أين جاءت هذه الشرارة الأخلاقية التي لا تُختزل في مادة ولا تُقاس بميزان؟

الجواب الأقرب إلى الفطرة: أن هذه القيم لم تنشأ صدفة، بل غرسها الله في فطرة الإنسان، وجعلها دليلًا يهديه إلى الخير، ويذكّره بما ينبغي أن يكون. فالرحمة التي يشعر بها الإنسان ليست مجرد تفاعلٍ مادي، بل أثرٌ يدلّ على الرحيم سبحانه وتعالى، والعدل الذي يطلبه دليلٌ على العدل المطلق، والضمير الذي يؤنّبه شاهدٌ على أن الإنسان لم يُخلق عبثًا، بل زُوِّد ببوصلةٍ فطرية تهديه إلى الحق.

وقد بيّن لنا النبي ﷺ أن هذه الرحمة التي نراها في الدنيا ما هي إلا جزء صغير جدًا من رحمة الله تعالى، فقال:

"جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، **فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق**، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه". *(رواه البخاري ومسلم)*

والآن ننتقل إلى رؤية البرهان، ولكن من زاوية أخرى...

المعضلة الثانية: نسبيّة الأخلاق عند غياب الإله

غياب المعايير الثابتة عند الماديين : حين يقول لك أحدهم" *لا وجود لرب*" ، فاسأله مباشرة:

---

[٢٥] *(Existentialism is a Humanism, Yale University Press, p. ٢٨)*

حسنا... من غير رب فوق الجميع، من الذي يحدد ما هو صواب وما هو خطأ؟ ومن يضع الميزان؟

إن لم يكن هناك إله، فلن يكون هناك "حق مطلق" ولا "خطأ مطلق."

وبالتالي يصبح واضع القوانين الوحيد هو البشر أنفسهم... والبشر محدودون، نسبيون، تحكمهم الأهواء والمصالح.

يعني: ما ينفعني = صواب، ما يضرني = خطأ ، ما يعجبني = مقبول، ما يضايقني = مرفوض.

لكن لو كل إنسان وضع لنفسه ميزانًا خاصًا، فأين القانون الذي يحكم بين الناس جميعًا؟ من يمنع القوي من استغلال الضعيف إذا رأى أن ذلك "حقه الطبيعي"؟

من دون ربٍّ أعلى، لا وجود لقانون أخلاقي ثابت، ولا لمعيار مشترك، ولا لعدالة حقيقية.

كل شيء يصبح نسبيًا، وهو ما يُعرف بالنسبيّة الأخلاقية: أن تتحول القيم إلى آراء متقلبة، لا حق فيها ولا باطل، ولا خير ولا شر مطلق يَسري على الجميع.

النسبيّة الأخلاقية... خطر على الحضارة

في الفكر الإلحادي، تصبح الأخلاق لعبة متغيّرة: تتبدل من مجتمع لآخر، ومن زمن لآخر، بل وحتى من شخص لآخر.

قد يرى أحدهم الغدر "ذكاء." ويعتبر آخر الخيانة "حرية شخصية." ويجعل غيره الكذب "وسيلة نجاح."

وطالما لا يوجد إله يقول: "هذا حلال وهذا حرام"، فمن يحاسب إذن؟ ومن يملك أن يقول: "هذا ظلم مطلق" أو "هذا شر مطلق"؟

الخلاصة :إذا غاب الله عن الصورة، غابت الأخلاق الحقيقية من الوجود، وبقيت "القيم" مجرد مصالح مؤقتة لا تردع ظالمًا ولا تنصف مظلومًا. وهذا ما نراه بوضوح في عالم اليوم، حيث تسود القوة والمصلحة بدل الحق والعدل.

النازية... حين سقطت الأخلاق مع غياب الإله

هذه ليست مجرد نظرية فلسفية تُناقَش في الكتب؛ بل واقع دموي عايشته البشرية.

فالنظام النازي نشأ من رؤية مادية داروينية ترى الإنسان مجرد "مادة متطورة"، وتعتبر الحياة صراعًا للبقاء للأصلح، وأن الضعفاء والفقراء والمرضى عبء على مسيرة التطور.

والنتيجة كانت كارثية: ملايين أُبيدوا في معسكرات الموت، أطفال خضعوا لتجارب طبية قاسية بلا رحمة، معاقون قُتلوا باعتبارهم "شوائب جينية." والحرب العالمية الثانية التهمت أكثر من ٧٠ مليون إنسان.

هذه التجربة تكشف بوضوح أن غياب الإيمان بإله يضع معيارًا أعلى للخير والشر، يؤدي في النهاية إلى سقوط القيمة المطلقة، وغياب الرحمة، وانهيار معنى الإنسان ذاته.

وقد عبّر الفيلسوف الملحد أليكس روزنبرغ عن هذا الانهيار القيمي بكل صراحة في كتابه *دليل الملحد إلى الواقع*، إذ أكد أن:

"لا وجود لخير مطلق ولا شر مطلق، وأن الإلحاد لا يعطي أساسًا لأي حكم أخلاقي."

وعندما سُئل عن مسائل مثل الإجهاض، أو القتل الرحيم، أو الانتحار، أو الضرائب، أو غيرها، هل هي محرّمة أو مسموحة أو واجبة، كانت إجابته صادمه : "**كل شيء جائز**".انتهي [٢٦]

بل واعترف روزنبرج أنه يلزم من الإلحاد العجز عن إدانة مجرمي التاريخ الحديث مثل: هتلر، ستالين، ماو، بول بوت، أو غيرهم، لعدم وجود أرضية أخلاقية تسمح بذلك.

وكذلك يعترف جان بول سارتر —في آخر حياته – بأن الإلحاد يجرّ بالضرورة إلى إلغاء الخير والشر، ويقول: "لقد احتفظتُ في مجال الأخلاق بشيءٍ متعلّق بوجود الله، وهو الخير والشر كمُطلَقين... فالنتيجة الطبيعية للإلحاد هي النسبية".انتهي [٢٧]

لكن الواقع يكشف الحقيقة: القيم الأخلاقية موجودة... وموضوعيّة

على اختلاف الشعوب والحضارات، يبقى هناك قاسم أخلاقي مشترك بين البشر جميعًا:

رفض الظلم، وكراهية الخيانة، واحترام الوالدين، واستنكار القتل بغير حق.

حتي الأطفال يشعرون بها قبل أن يتعلموا: يكذب... فيشعر بالخجل، يؤذي غيره... فيعرف أنه أخطأ، يمدّ يده لشيء ليس له... فيتردد، هذا هو الضمير :بصمة فطرية لا تفسير لها داخل عالم المادة.

وتأمّل مثالًا واضحًا: **رجل يقتل أمّه ويتلذذ بذبحها** .

---

[٢٦] *(Alexander Rosenberg, The Atheist's Guide to Reality, pp.٢–٣)*

[٢٧] Simone de Beauvoir, *La Cérémonie des Adieux*, p.٥٥١

هل نحتاج فلسفة أو قانونًا لنحكم على فعله؟ أبدًا ، فنحن ندرك فورًا أن هذا شر حقيقي، وأن القبح في هذا الفعل ليس ''رأيًا شخصيًا'' ولا ''اختلاف ثقافة''، بل حقيقة لا يستطيع العقل إنكارها.

هذا الإدراك الفطري العالمي يثبت أن الأخلاق ليست مجرد أذواق... بل حقائق موضوعية ثابتة: الظلم شر، العدل خير، الرحمة جمال، الخيانة قبح.

وهنا يظهر البرهان الحاسم: إذا كانت القيم الأخلاقية حقًّا موجودة وثابتة، فلا بد لها من مصدر أعلى، مشرّع فوق البشر.

فالمطلق الأخلاقي لا يصدر إلا عن إلهٍ حكيم، يأمر بالعدل، وينهى عن الظلم، ويزرع الرحمة في القلوب.

وبذلك... وجود الأخلاق الموضوعية في الإنسان هو أحد أقوى الأدلة على وجود الله.

المأزق الإلحادي: الاعتراف أم الإنكار...

الملحد يقف هنا أمام مأزق حقيقي لا مهرب منه:

•**إن قال إن الأخلاق نسبية:** لزم من ذلك أنه لا يوجد فعلٌ خاطئٌ في ذاته؛ فلا قتل، ولا ظلم، ولا خيانة، ولا إبادة جماعية تُعدّ شرًّا على وجه الإطلاق. فلو رأى ملحدٌ لا يؤمن إلا بالمادة وتفاعلاتها رجلًا يتلذذ بذبح طفلٍ صغير، فبأي معيارٍ ماديٍّ يستطيع أن يقول: «هذا خطأ»؟ فالكيمياء لا تُصدر أحكامًا أخلاقية، والجزيئات لا تقول: هذا عدل، وهذا ظلم. ووفق مبدأ النسبية الأخلاقية، لا يملك أساسًا موضوعيًّا يدينه به.

ولهذا رأينا كبار الملاحدة يقعون في تناقضات مُحرِجة: يبرّرون الإجهاض والقتل الرحيم... وبعضهم —كما اعترفوا هم — لم يستطع حتى إدانة جرائم هتلر، لأنهم يزعمون أنه ''لا توجد قيم مطلقة للخير والشر."

•**وإن قال إن هناك خيرًا وشرًا موضوعيَّين:** فقد اعترف —— من حيث لا يشعر —— بوجود قانونٍ أخلاقيٍّ أعلى، والقانون لا يكون قانونًا إلا إذا كان وراءه مُشرّع. فإذا وُجدت قيمٌ أخلاقيةٌ ملزمةٌ لجميع الناس، كتحريم الظلم والقتل والخيانة، لزم من ذلك وجود مُشرّعٍ أعلى أودع هذه القيم، وهو الله سبحانه وتعالى.

وهنا يظهر التناقض بوضوح؛ فالملحد يُنكر وجود القيم الأخلاقية المطلقة نظريًا، لكنه إذا ظُلِم، أو أُهين، أو سُلب حقُّه، صرخ قائلًا» :**هذا ظلم! أين العدل؟** «وكأنه يطالب بقانونٍ أخلاقيٍّ مطلق، وهو القانون نفسه الذي كان ينكر وجوده قبل لحظات.

فهو لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يعترف بوجود خيرٍ وشرٍّ مطلقين، فيلزم من ذلك الإقرار بوجود المشرّع سبحانه، وإما أن ينكر وجودهما، فلا يبقى لديه أي أساسٍ موضوعيٍّ ليقول عن الظلم إنه ظلم، أو عن القتل إنه شر.

خاتمة المبحث: البرهان الأخلاقي دليل على وجود الله

يمكن النظر إلى البرهان الأخلاقي من زاويتين واضحتين:

الزاوية الأولى: المادة وحدها لا تُنتج قيمًا كالخير أو الشر، ولا قوانين الفيزياء تفسّر الرحمة أو العدل أو الضمير. هذه المعاني أعمق من أن تكون مجرد نتائج لتفاعلات مادية عمياء؛ إنها بصمة الله في فطرة الإنسان، وإشارة إلى أن وراء الكون خالقًا غرس هذه القيم في نفوسنا لتكون هاديًا وميزانًا.

الزاوية الثانية: إذا كانت الأخلاق مجرد عادات بشرية نسبية تتغير من مجتمع لآخر، فلا وجود لخير حقيقي ولا شر حقيقي، بل تصبح كلها آراء شخصية.

حينها يصبح العدل رأيًا، والظلم رأيًا، ولا يبقى معيار ثابت يُحتكم إليه.

لكن الواقع الإنساني يكشف العكس: نحن ندرك بوضوح أن هناك فرقًا بين العدل والظلم، وبين الصدق والكذب، وبين الرحمة والقسوة. ووجود هذا الإحساس الأخلاقي الثابت في البشر يدل على وجود **ميزان أعلى من الإنسان**، ليس مصدره المادة، بل مصدره أمر إلهي يحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون.

فإذا غاب الله، غاب معه أي معيار موضوعي للخير والشر، وأصبحت الأخلاق مجرد تفضيلات نسبية لا قيمة ملزمة لها.

لأن المرجعية حينها ستكون للبشر المحدودين ، وهم نسبيون بطبيعتهم، تحكمهم الأهواء والمصالح، وهي متغيرة بطبيعتها.

وما نراه في العالم اليوم من اختلاف المعايير، وتبدّل القيم، كافٍ للدلالة على ذلك، فلا حاجة لإطالة البيان.

وفي هذه الحالة يتحول العالم إلى مادة بلا معنى أخلاقي، ويصبح الحكم فيه للقوة لا للحق، وتضيع الفطرة في فوضى النسبيّة.

ولا أظن أن عقلًا سليم الفطرة يمكن أن يقبل بهذا التصور إلى النهاية، حيث تُمحى حدود الخير والشر، ويضيع الإنسان في فوضى النسبيّة.

ومن هنا ومن هنا ندرك أن الإيمان بالله ضرورة فطرية وعقلية في آنٍ واحد؛ فهو وحده الذي يمنح الأخلاق معناها، **ويجعلها ملزمة،** ويثبت الفطرة التي فطر الله الناس عليها: **فطرة ترفض الظلم، وتحب العدل، وتبغض الغدر.**

كما قال الله تعالى:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ} [الروم: ٣٠]

ونلخص برهان الإرادة الحرة والأخلاق بقول روبرت هورتونه نامبرون — إقصائي في الرياضيات (حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كوريل – باحث في جامعة برنستون، وفي معهد برنستون للدراسات العليا)

"إني أعتقد بوجود الله لأنه وهبني التميز الأخلاق، فالجنس البشرى لديه إحساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب. وكما يقول لويس في كتابه «قضية المسيحية»: "قد تختلف أفكارنا ومع ذلك فإننا جميعاً ندافع عن حقوقنا ونُناشد العدل".

وأيضا إن اعتقادي في الله يقوم أيضاً على حرية الإرادة وذكائها – الإرادة الإنسانية التي وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التي تقود الإنسان إلى اتخاذ قرار معين، الإرادة التي هي أحد الأقسام الكبرى التي يقسم علماء النفس قوى العقل إليها (القوتان الأخريان هما الإدراك والشعور). فأنا عندما أرغب أو أريد شيئاً معيناً يتخذ عقلي قراراً به، وإرادتي هي التي تنفّذه.

ويختلف الإنسان في جميع هذه الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى؛ فهو خليفة الخالق على الأرض، ولعل هذا هو عين ما يعنيه القديس بول بقوله: «إن للإنسان نشأة مقدسة".«

انتهى كلام روبرت هورتونه نامبرون، وهو مقتبس من كتاب *الله يتجلّى في عصر العلم.*

ولذلك فإن القيم الأخلاقية هي جزءٌ من الخِلقة التي أودعها الله في الإنسان. فكلّ ضميرٍ يستيقظ عند رؤية الظلم، وكلّ قلبٍ يتحرك لنصرة الضعيف، وكلّ روحٍ تنفر من الغدر... هو شاهدٌ فطريٌّ على وجود إلهٍ حكيمٍ غرَس هذه المعاني في النفس ثم دعاها إلى السموّ بها.

***

المبحث الرابع : الفطرة: صرخة القلب التي لا تُكذَّب

أولًا: ماهية الفطرة

الفِطرة هي الاستعداد الأولي الذي يولد به الإنسان لمعرفة الله، ومحبته، والإقرار بربوبيته. هي النقطة العميقة التي تبدأ منها الروح رحلتها في الوجود، قبل أن تغطيها ثقافات المادّية وصخب الأفكار وتراكمات الحياة.

ولهذا قال النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (متفق عليه)

فالأصل واحد :معرفة الله.

والتغيير يأتي من الخارج: البيئة، والتربية، والأفكار، والشبهات، والشهوات، أما الداخل... فمُهيّأ دومًا لتلقّي المعرفة الأعلى مهما تراكم عليه الغبار.

ويشرح ابن القيم – رحمه الله –حقيقة الفِطرة بأوضح بيان، فيقول:

»كل مولودٍ فإنه يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية؛ فلو خُلّي وعدم الموانع؛ لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة فيتشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه[٢٨]«...

وهذه ذات الفكرة التي عبّر عنها اللاهوتي جون كالفن بما سماه: **Sensus — divinitatis** الإحساس الإلهي: وهو الشعور الداخلي العميق بوجود الله؛ ذلك الإحساس المتعالي عن المادّة، المغروس في أصل النفس، والذي يجعل وجود ‘‘ملحد صرف’’ أمرًا غير منسجم مع تكوين الإنسان نفسه.

تغطية الفطرة — برهان كونها قيمة متعالية عن المادّة

[٢٨] ابن القيم شفاء العليل ص ٢٨٨ – ٢٨٩

الإنسان يولد على الفطرة، لكن هذه الفطرة قد تُغطّيها التربية والبيئة والشبهات والشهوات، وقد تُثقله تقلبات النفس والصراعات الداخلية.

ومع ذلك... فإن الفطرة لا تموت؛ بل تبقى كامنة تحت السطح تنتظر لحظة سقوط الأقنعة.

والمحنة — بما فيها من خوف واضطرار — تعمل في النفس عمل المطرقة على الجدار؛ تُسقط ما تراكم من الشبهات وتكشف الطبقة الأصلية تحتها :طبقة الفطرة.

ولهذا ينسى الإنسان عند الخوف الحقيقي كل ما تعلمه من فلسفات ونظريات، ويعود تلقائيًا إلى الحقيقة الأولى دون تعليم أو تفكير.

قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: ٦٥)

تبيّن الآية أن المشركين، رغم عبادتهم للأصنام، كانوا إذا أحاط بهم الهلاك في البحر تركوا كل شيء ولجؤوا إلى الله وحده؛ لأن الشدة تكشف الصوت الأصيل داخل النفس.

فالفطرة، مهما غُطّيت بالشرك أو الجدل أو الفلسفات، تعود للظهور في لحظة الخوف الحقيقي حين تسقط جميع الأقنعة.

قصة الإمام جعفر الصادق والسفينة

جاء رجل ينكر وجود الله إلى الإمام جعفر الصادق، فسأله: هل ركبت سفينة يومًا؟ نعم، وهل لعبت بك الأمواج وظننت الهلاك؟ نعم ، في تلك اللحظة... هل كان في قلبك أملٌ أن هناك من سينقذك ؟ نعم، لكني لا أعلم من هو.

فقال له الإمام : "**ذلك هو الله... الذي تلجأ إليه فطرتك عند الشدة دون أن تدري**."انتهي

الفطرة تعرف الطريق... حتى حين يضلّ الفكر.

ولقد شهد التاريخ والحروب على هذه القاعدة: حين تنهمر القذائف ويقترب الموت، لا وقت للفلسفة ولا للنقاشات الوجودية.

حينها تصعد من القلوب صرخةٌ واحدة: ‘‘يا رب’’!

ولهذا قيلت أشهر مقولة في الحرب العالمية الثانية: "**لا يوجد ملاحدة في الخنادق**."

وكذلك أكدت الدراسات الحديثة هذا المعنى؛فقد أجرى باحثون في **University of British Columbia** سنة ٢٠١١م دراسة على مجموعة من المتطوعين، وانتهى البحث إلى

أن تفكير المتطوعين في الموتِ يجعلهم أكثر قبولا للقول: **إنَّ هذا الوجود قد خُلِقَ بحكمة ولحكمة**[٢٩]

وكذلك يشهد التاريخ: العبادةُ فطرةٌ لا تزول.

فعبر تاريخ البشرية كلّه، منذ أوّل إنسان إلى آخر حضارة، لم تُعرَف أمّةٌ بلا عبادة.

كل الشعوب — بلا استثناء — آمنت بوجود قوةٍ أعلى: فمنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الشمس أو النار، ومنهم من عبد الملوك كفرعون.

لكنَّ القاسم المشترك بين الجميع: أنّ الإحساس بوجود إلهٍ أعلى لم يغب عن الإنسان يومًا.

وقد أكّد ذلك المؤرّخ اليوناني «بلوتارك» قبل ألفَي عام حين قال:

»يمكننا — لو عَبَرْنَا العالم — أن نجد مُدنًا بلا أسوار، ولا آداب، ولا ملوك، ولا ثروة، ولا نقود، ولا مدارس أو مسارح؛ **ولكن لم يرَ الإنسانُ قط مدينةً بلا معابد أو عباد**[٣٠]«.

فالعبادةُ ليست فكرة طارئة ؛ إنها جذور ممتدة في أعماق الروح، وغريزة مزروعة في صميم الإنسان ، ومن هنا كان الإيمان بوجود قوةٍ عاليةٍ فوق الطبيعة — قوةٍ تتجاوز الأسباب وتضبط الوجود — حقيقةً مشتركة بين البشر جميعًا، على اختلاف أمكنتهم وأجناسهم وعصورهم.

ويقول الفيلسوف الفرنسي برغسون: "لقد وُجدت — وتوجد — جماعاتٌ إنسانية بلا علوم ولا فنون ولا فلسفات؛ **ولكن لم توجد قط جماعاتٌ بلا ديانة". انتهي**

ويقول أرنست رينان في *تاريخ الأديان*:

»يمكن أن يضمحلَّ كلُّ ما نحبّه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة؛ ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجةً ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية«. انتهي

وهكذا... فإن منطق الفطرة نفسه يهدي إلى الله.

---

[٢٩] Jennifer Welsh, Fear of Death Spurs Belief in Intelligent Design. <https://www.livescience.com/١٣٥٣٤-death-anxiety-intelligent-design-evolution.html>

[٣٠] Cited in: Stephen Alexander Hodgman, Moses and the Philosophers (Ferguson bros. & Company, ١٨٨١), (٠) p.٢٥٤.

وليس هذا فقط... فحتى الأطفال مفطورون على الإيمان

فهذه الفطرة مغروسة في الناس جميعًا — حتى الأطفال — غرسها الله فيهم، وزرعها في قلب الإنسان منذ لحظته الأولى في الحياة.

حيث نشرت صحيفة تلجراف البريطانية في نوفمبر ٢٠٠٨م نتائج بحث أكاديمي عن الأطفال بعنوان: "**الأطفال يولدون مؤمنين بالله**[٣١]."

وقد خلُص البحث إلى أن نزوع الأطفال إلى الإيمان بخالق وبحكمة وراء الكون نزوع عميق، ساكن في النفس الإنسانية، ومستغنٍ عن التلقّي الخارجي أو تأثير المجتمع.

وأورد البحث قول الدكتور جستن بارت —الباحث في مركز الأنثروبولوجيا والدماغ بجامعة أوكسفورد — إن الصغار لديهم قابلية كبيرة للإيمان بالله لأنهم يفترضون أن العالم مخلوق لغاية.

ونختم المحور الأول من المبحث بقول الفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت:

»إني — مع شعوري بالنقص في ذاتي — أحسّ في الوقت نفسه بوجود ذاتٍ كاملة، وأراني مُضطرًّا إلى اعتقادي بأن هذا **الشعور** قد **غرسته** في ذاتي تلك الذاتُ الكاملة ، المتحلية بجميع الصفات الكاملة، وهي الله«. انتهي

وهنا ينتهي المحور الأول من المبحث، حيث رأينا أن الإنسان مزروع بداخله ميل فطري نحو اللجوء إلى الله، يظهر جليًا عند الشدة، وحتى الأطفال مفطورون على الإيمان كما ذكرنا.

والآن ننتقل إلى زاويةٍ أخرى من الفكرة نفسها، لكنها أقرب إلى داخل الإنسان: الميل الفطري إلى الأبدية.

فالفطرة ليست مجرد صرخةٍ في لحظات الشدة، بل صوتٌ هادئٌ ثابتٌ في أعماق الإنسان، يهمس له بأنه لم يُخلق لينتهي إلى العدم.

فالإنسان بطبيعته لا يطلب الحياة وحدها، بل يتطلع إلى الخلود. وفكرة أن يكون وجوده مجرد مرحلةٍ عابرة تنتهي بالفناء لا تستقر في نفسه، مهما حاول إقناع نفسه بقبولها.

---

[٣١] Children are born believers in God:
<http://www.telegraph.co.uk/news/religion/٣٥١٢٦٨٦/Children-are-born-believers-in-God-academic-claims.html>

وهنا يبرز السؤال: إذا كان الإنسان مجرد مادة، وكانت نهايته العدم، فمن أين جاء هذا الشوق العميق إلى الخلود؟ فالمادة لا تعي معنى البقاء، ولا تدرك غايةً أو مصيرًا، فكيف نشأ فيها هذا التطلع إلى ما يتجاوزها؟

إن هذا الميل الفطري ليس عبثًا، بل هو دليلٌ على أن في الإنسان بُعدًا يتجاوز حدود المادة، يشدّه إلى الأبدية، ويشير إلى أن النهاية ليست هنا.

مشهد الغريق يفضح الحقيقة:

انظر إلى أي إنسان يغرق، حتى المنتحر الذي ألقى بنفسه في البحر هروبًا...

حين يدخل الماء، يبدأ غريزيًا يصارع ليطفو ويمد يده طلبًا للنجدة، رغم أنه أقدَم على الانتحار.

هذا يوضّح أن شهوة البقاء والخلود أقوى من أي قرار عقلي أو رغبة في الموت، وأن "حب البقاء" ليس فكرة مكتسبة، ولا ترفًا فلسفيًا، بل هو فطرة فطرنا الله عليها.

لذلك تجد القرآن يكشف لنا هذه الحقيقة، حين يروي عن غواية إبليس لآدم:

﴿هَل أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾]طه: ١٢٠[

آدم عليه السلام انجذب لهذا الاغراء لأنه — مثلنا — مفطور على طلب البقاء، على التطلع إلى حياة لا تنتهي، هذا الاشتياق للأبدية هو غرس إلهي في أعماق النفس.

وهم العدم... وصرخة الروح

من يُنكر الأبدية يعيش في فراغٍ قاسٍ؛ فإذا لم يكن هناك إله، فلا خلود، وإذا انتفى الخلود، سقطت الغاية، وصار كل ما يُبنى من حضاراتٍ وأحلامٍ وتضحياتٍ مآله إلى **"لا شيء."**

ولهذا لا نجد عند الملاحدة حقيقةً ما يطمئن الفطرة، بل نجد **التوتر الوجودي،** والخوف من العدم، والبحث المستمر عن معنى لا يقدّمه الإلحاد.

وقد وقف كثيرٌ من كبار الملاحدة أمام هوّة **العدم مرعوبين،** يُعلنون — من حيث لا يشعرون — أن فِطرتهم تأبى هذا الفراغ، وأن قلوبهم تنجذب بقوة إلى معنى أعلى، إلى إله، إلى غاية.

فنجد الفيلسوف الملحد برتراند راسل يقول كما ذكرنا سابقا :

"حياتي كلها قائمة على أساس من اليأس، لأن كل أمالي وأحلامي ستُدفن تحت حطام هذا الكون الخَرِب".

وأيضا ألبير كامو، أحد أعمدة الوجودية الملحدة في القرن العشرين، يقول:

»**ثِقَلُ الأيام مخيفٌ لكل امرئ يعيش وحده... من غير إله ومن غير سيّد**[٣٢]«.

ويعترف أيضًا: "**لا شيء بإمكانه أن يُخمد الجوعةَ لما هو إلهيٌّ في قلب الإنسان**"[٣٣]«.

انتهي

إنها شهادة الفطرة، شهادة الروح التي لا تستطيع — مهما غُطِّيت — أن تنكر حاجتها لربها، ولا شوقها للخلود، ولا رفضها للعدم.

ونختم بكلمةٍ صادقةٍ لـ برتراند راسل، في لحظة صدقٍ مُدركًا حقيقةَ أن الإلحاد قرينُ الألم والعدم، حيث يقول:

»في أعماقي دائمًا وأبدًا ألمٌ فظيع — ألمُ فضولٍ ثائر —، **بحثٌ عن شيءٍ يتجاوز ما يحويه العالم**[٣٤]«.

ولذلك يقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]

وفي المقابل: طمأنينة الإيمان بالله

أهل الإيمان لا يعيشون هذا الصراع ولا يقفون حائرين أمام الحياة، ولا يرونها طريقًا ينتهي إلى فراغ، بل يعيشونها **وهم على يقينٍ بأنها مرحلة لها امتداد ومعنى.**

لذلك لا يضيع الألم عندهم سدى، ولا يمرّ الصبر بلا قيمة، ولا تتحول التجارب إلى عبثٍ صامت.

هم يعلمون أن لكل وجعٍ حسابًا، ولكل صبرٍ أجرًا، وأن ما يبدو ضائعًا في ظاهر الدنيا محفوظٌ عند الله.

ومن هنا تنشأ الطمأنينة؛ إذ يستقر في القلب أن ما يعيشه الإنسان ليس بلا حساب، وأن ما يفوته هنا لن يضيع، **وأن النهاية ليست عدمًا، بل لقاء.**

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧—٣٠)

---

[٣٢] Camus, The Fall (New York: Random House, ١٩٥٦), p. ١٣٣

[٣٣] Camas, The Rebel (New York: Alfred Knopf, ١٩٥٦), p.١٤٧.

[٣٤] Cited in: Philip Yancey, Disappointment with God (Grand Rapids, Michigan: Zondervan, ١٩٨٨), **p. ٢٥٣. origin**

وهكذا يتضح الفرق: تصورٌ يُنهي كل شيء إلى العدم، فيترك الإنسان في قلقٍ لا ينتهي، وآخر يفتح له باب المعنى، فيمنحه سكينةً تمتد إلى ما بعد هذه الحياة.

وقد ذكرنا قبل قليل قول ألبير كامو:

»**ثِقَلُ الأيام مخيفٌ لكل امرئٍ يعيش وحده... من غير إلهٍ ومن غير سيّد**«.

وهذه العبارة تذكّرني بمثالٍ جميل ذكره الإمام بديع الزمان سعيد النورسي في أول كتاب »**الكلمات**«، إذ شبَّه الإنسان بمسافرٍ يريد أن يعبر صحراءً واسعة، مليئة بالمخاطر، وقطاع الطرق، والوحوش، ولا يعرف الطريق، ولا يملك ما يكفيه من طعامٍ أو ماء. وكان أمامه طريقان:

الأول: أن يدخل الصحراء مستندًا إلى ملكها، ويحمل اسمه وإذنه، فيسير مطمئنًا؛ لأنه يعلم أن له من يحميه، وأن كل من يلقاه يعرف أنه في حماية الملك، فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه، ويجد من يعينه إذا احتاج، ويأمن على نفسه طوال رحلته.

والثاني: أن يدخلها وحده، مغرورًا بنفسه، يظن أنه قادر على تدبير كل شيء بنفسه، مع أنه في الحقيقة ضعيفٌ محدودٌ عاجز، فيرفض أن يستند إلى أحد، فيظل خائفًا من كل صوت، مترقبًا للخطر في كل لحظة، يحمل همَّ الطريق والطعام والشراب، ولا يدري متى يهجم عليه عدو، أو يضل الطريق، أو يهلك في الصحراء.

وهكذا حال الإنسان في هذه الدنيا؛ فهي مليئة بالابتلاءات والمصائب والمجهول. فالمؤمن يسير فيها وهو مستندٌ إلى ربه، يعلم أن الله يحفظه، ويرعاه، ويدبّر أمره، فلا يفقد طمأنينته وإن اشتدت عليه المحن. أما من أنكر الله، فإنه يواجه هذا العالم وحده، بلا سندٍ أعلى ولا ملجأ، فيبقى الخوف والقلق رفيقين له؛ لأنه لا يرى وراء هذا الكون من يلجأ إليه، ولا حكمةً يطمئن إليها .انتهي

ويُلخّص ابن القيم – رحمه الله – حقيقة الفطرة وحاجة القلب إلى الله بقوله:

»في القلب شعث لا يلمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا، وفيه فاقة لا يسدّها إلا محبته ودوام ذكره... ولو أُعطيَ الدنيا وما فيها لم تُسدّ تلك الفاقة أبدًا«. [٣٥]انتهي

---

[٣٥] ابن القيم – مدارج السالكين

هذه هي الفطرة... القيمة المتعالية على المادّة... والصرخة الصادقة التي لا تكذبها النفس مهما حاول الفكر أن يغطيها أو يطمس نورها.

لقد غرس الله في داخلنا الشوق إليه، وغرس في قلوبنا حبّ الأبديّة لنرجو ما عنده، ولذلك يرفض الإنسان — بفطرته — فكرة الفناء، ويرفض أن يكون مجرد "ماده" بدأت من العدم لتنتهي إلى عدم.

فأعمق ما في الإنسان يصرخ بأن للحياة معنى، وأن وراء هذا الوجود غايةً وهدف وحساب.

كيانك كله يشهد بأنك مفطور على عبادة الله، مخلوقٌ له، محتاجٌ إليه، فقيرٌ بين يديه، وتشتاق روحك أن تعود إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢)

***

الفصل الثالث حين يتكامل الخلق ويهتدي من تلقاء نفسه

المبحث الأول : برهان الزوجية والتكامل في الخلق

بعد أن رأينا ما في خلق الإنسان من دلائل مدهشة؛ من دقة الجسد، وتعقيد الشفرة الوراثية، والعقل الواعي، والإرادة، والضمير الأخلاقي، والفطرة التي تدفع الإنسان عند الشدة إلى أن يقول: «يا رب...«

فإن الإعجاز لا يتوقف عند خلق فردٍ واحد، بل يمتد إلى النظام العام الذي بُني عليه الخلق كله؛ حيث نجد أن الحياة لم تُنشأ بصورة عشوائية مبعثرة، بل جاءت في صورة أزواجٍ متكاملة، يحتاج بعضها إلى بعض.

وهنا يظهر برهانٌ آخر على الحكمة الإلهية في الخلق :**برهان الزوجية والتكامل**.

فلو كانت المادة العمياء — كما يزعم الماديون — هي التي رتّبت هذا الوجود بلا قصدٍ ولا توجيه، لكان المتوقع أن تنتج **أشكالًا مبعثرة لا رابط بينها**، وكائنات منفصلة لا يجمعها نظام ولا تكامل ؛ لكن الواقع يكشف عكس ذلك تمامًا؛ فقد جاء الذكر والأنثى بخصائص متكاملة، كلٌّ

منهما مهيأٌ للآخر؛ فجسدان مختلفان، وتركيبات هرمونية وغريزية متباينة، وخصائص نفسية متمايزة، ومع ذلك يعملان معًا في منظومة واحدة منسجمة، بحيث لا تكتمل وظيفة استمرار الحياة إلا باجتماعهما.

فلو لم يوجد هذا التكامل بين الطرفين، أو لم يُخلق كلٌّ منهما في الوقت المناسب، وبالخصائص المناسبة، وفي البيئة الملائمة، لانقطع استمرار الحياة من بدايتها.

ولتقريب الفكرة إلى الذهن، تخيّل معنا هذا المشهد البسيط:

مشهد عقلي مبسّط: القفل والمفتاح

تخيّل أن ذرات من الحديد تجمعت — مصادفة — في صحراء بعيدة، حتى كوّنت مفتاحًا.

وفي صحراء أخرى، وعلى بُعد آلاف الكيلومترات، تجمعت ذرات أخرى بالطريقة نفسها، حتى كوّنت قفلًا.

ثم، بعد فترة طويلة، التقى المفتاح بالقفل، فإذا بهما متطابقان تمامًا، وكل جزء من المفتاح مهيأ ليتوافق مع الجزء المقابل له في القفل.

فهل يمكن أن نفسر هذا التوافق بالعشوائية وحدها؟

إذا كان هذا الأمر بعيدًا في مفتاح وقفل بسيطين، فكيف بكائنين حيّين، لكل منهما جسد وخصائص وغرائز ووظائف متعددة، ومع ذلك نجد بينهما هذا التكامل الدقيق؟

("قاعدة عقلية : "**كلما زاد التعقيد، امتنعت العشوائية**". فإذا كان من المستحيل تكوين ساعة صدفة، فإن تكوين شيء أعقد مثل الهاتف المحمول من تلقاء نفسه يصبح أمرًا مستحيلًا أكثر فأكثر وهكذا وهذه القاعدة نتأكد منها يقينًا من خلال مراقبتنا لسلوك الطبيعة المادية أمام أعيننا!).

والآن، ننتقل إلى التكامل العجيب بين الذكر والأنثى.

فالتصميم هنا ليس شكليًا فقط، بل هو تكامل دقيق يشمل الجسد، والهرمونات، والوظائف، وحتى عملية التكاثر نفسها. أولًا: التكامل الجسدي الدقيق

أولًا: التكامل الجسدي الدقيق

إذا تأملنا جسد الذكر والأنثى، وجدنا أن كل واحد منهما يمتلك أجهزة وخصائص تؤدي وظائف مختلفة، لكنها في النهاية تلتقي لتؤدي وظيفة واحدة :**استمرار الحياة**.

فالذكر يمتلك الخصيتين اللتين تنتجان الحيوانات المنوية، والقنوات التي تنقلها، والغدد التي تساهم في تكوين السائل المنوي، إضافة إلى الهرمونات التي تنظّم وظائف الجهاز التناسلي وتؤثر في نمو جسده وصفاته.

وفي المقابل، تمتلك الأنثى المبيضين اللذين ينتجان البويضات، والرحم الذي يهيأ لاستقبال الجنين واحتضانه، وقنوات فالوب التي تنتقل فيها البويضة، إلى جانب جهاز هرموني دقيق ينظم هذه العمليات ويجعلها تسير في أوقات محددة.

والأعجب أن الأمر لا يقف عند وجود هذه الأعضاء، بل إن **خصائص كل جهاز مهيأة لتتناسب مع وظيفة الجهاز الآخر.**

فالذكر ينتج الخلايا التناسلية التي تحمل نصف المادة الوراثية، والأنثى تنتج البويضة التي تحمل النصف الآخر، ثم يجتمع الاثنان لتكوين خلية جديدة تحمل المادة الوراثية اللازمة لبدء حياة إنسان جديد.

بل حتى الاختلافات الجسدية بينهما ليست عشوائية؛ فهناك اختلافات في الأعضاء، والهرمونات، والوظائف، وتوزيع بعض الصفات الجسدية، وكل ذلك يخدم في النهاية منظومة متكاملة.

وكأنك أمام **جزأين مختلفين، لكل واحد منهما وظيفته، لكنهما صُممما بحيث يلتقيان ليؤديا وظيفة مشتركة لا يستطيع أحدهما القيام بها بمفرده.**

فلو وُجد الجهاز التناسلي عند الذكر دون وجود الجهاز المقابل عند الأنثى، أو وُجدت البويضة دون الحيوان المنوي، أو وُجد أحدهما دون الأعضاء والوظائف التي تساعده على الوصول إلى الآخر، لما أمكن استمرار التكاثر.

ثانيًا: البرمجة الهرمونية

ولا يقتصر هذا التكامل على الأعضاء، بل يمتد إلى الهرمونات التي تنظم نمو الجسم وتطوره ووظائفه.

فعند البلوغ، تحدث تغيرات هرمونية كبيرة في جسد الذكر، فيزداد إنتاج هرمون التستوستيرون، فتظهر مجموعة من التغيرات الجسدية المرتبطة بالبلوغ، مثل خشونة الصوت، وزيادة الكتلة العضلية، ونمو الشعر، ونضج الجهاز التناسلي.

وفي الأنثى، تنشط هرمونات مثل الإستروجين والبروجستيرون، فتظهر التغيرات الجسدية المرتبطة بالبلوغ، وينضج الجهاز التناسلي، وتبدأ الدورة الشهرية، ويتهيأ الجسم للوظيفة الإنجابية.

وهكذا لا يولد الإنسان فقط بأعضاء متكاملة، بل يمر في مرحلة محددة من عمره ببرنامج هرموني دقيق ينقل جسده من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج.

والأعجب أن هذه الهرمونات لا تعمل بصورة منفصلة، بل تعمل ضمن شبكة معقدة من الإشارات والتنظيم المتبادل، بحيث يعرف الجسم متى يبدأ، ومتى يزيد، ومتى يقلل، ومتى تتوقف بعض العمليات.

ثالثًا: معجزة التلقيح — اللقاء الذي لا يخطئ موعده

ثم نصل إلى المرحلة الأشد إثارة للدهشة :**لحظة التلقيح**.

فبعد أن نضج الجهاز التناسلي عند الطرفين، تبدأ سلسلة من العمليات الدقيقة التي تنتهي بلقاء الحيوان المنوي بالبويضة.

الحيوان المنوي خلية صغيرة جدًا، لكنه يتحرك في طريق طويل ومعقد بالنسبة إلى حجمه، بينما تُطلق البويضة في وقت محدد، وتتحرك داخل الجهاز التناسلي للأنثى، ثم يمكن أن يحدث اللقاء في المكان والوقت المناسبين.

وعندما يصل أحد الحيوانات المنوية إلى البويضة ويتمكن من اختراقها، تحدث تغيرات سريعة في البويضة تمنع دخول حيوانات منوية أخرى، حتى تبدأ مرحلة جديدة :**تكوين أول خلية للإنسان الجديد**.

لكن التكامل بين الذكر والأنثى لا يقتصر على الجسد ووظيفته، بل يتجاوز ذلك إلى النفس والمشاعر.

فلكلٍّ منهما تركيب نفسي خاص، ونزوع داخلي مميّز، صُمِّم ليكتمل بالآخر.

فالذكر يميل بطبيعته إلى الفعل والمبادرة والحماية وتحمل المسؤولية، ويرتاح حين يُطلَب منه ويُقدَّر دوره، بينما تميل الأنثى فطريًا إلى الحنان والاحتواء والدعم، وتطمئن حين تجد الأمان والمودة والحب.

وهكذا نجد أن كل نفس خُلقت وفيها فراغ لا يملؤه إلا الآخر؛ نظام نفسي داخلي يعمل في صمت، ويدفع الإنسان نحو التكامل، ليس تكاملًا جسديًا فقط، بل تكاملًا نفسيًا وروحيًا وعاطفيًا.

وهذا ما عبّر عنه القرآن بأوجز وأعمق بيان: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١.]

فالمودة والرحمة ليستا مجرد مشاعر عابرة، بل نعمةٌ تستقر بها النفس، ويقوم عليها كيان الأسرة.

وتأمّل هذه المشاعر العميقة التي تنشأ بين الزوجين: حبٌّ، وتعلّق، وسكينة، وارتباطٌ قلبيٌّ يتجاوز حدود الجسد.

كيف تتحول ذراتٌ لا تعقل ولا تشعر، إلى هذه المشاعر الحيّة التي تهزّ القلب، وتربط إنسانًا بإنسان بهذا العمق والود؟!

إنها ليست مجرد تفاعلات مادية عمياء، بل رزقٌ يُلقى في القلوب، وتقديرٌ جعل الإنسان يميل إلى الآخر ويأنس به.

ولذلك قال النبي ﷺ، معبّرًا عن حبه للسيدة خديجة رضي الله عنها» :**إني رُزقتُ حبَّها**.«

وهكذا يتبيّن أن مشاعر الحب بين الزوجين ليست أمرًا عابرًا، بل آيةٌ قائمة بذاتها، تُتمّ التكامل النفسي والعاطفي، كما يُتمّ التكامل الجسدي والوظيفي.

نلخّص: استحالة الصدفة في ظهور الزوجيّة

الإعجاز ليس في وجود ذكرٍ وأنثى فحسب، بل في أن كليهما خُلق ليُكمّل أحدهما الآخر بدقّة جسديًا ونفسيًا وعاطفيًا؛ وُجدا في البيئة المناسبة، وجُهّزا بأعضاء ووظائف متكاملة، وزُرعت فيهما غريزة داخلية تدفعهما إلى الالتقاء والاتحاد، وأُلقيت بينهما مشاعر المودّة والحبّ والسكينة، لتجعل هذا الاتحاد رغبةً وطمأنينة، لا مجرّد تفاعلٍ ماديّ ، ولو وُجد أحدهما قبل الآخر بملايين السنين، لانقرضت الحياة قبل أن تبدأ أصلًا.

والأعجب من ذلك أن هذه المنظومة لا تحدث مرةً واحدة، بل تتكرر مع **ملايين البشر، جيلًا بعد جيل، وفي كل لحظة من لحظات الحياة**؛ فيتكرر اللقاء، ويحدث الاتحاد، وتبدأ حياةٌ جديدة، ويستمر هذا النظام الدقيق في العمل أمامنا بلا انقطاع.

وقد لخّص القرآن هذا الإعجاز بآيةٍ جامعة مانعة:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥–٤٦]

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن الإعجاز في الزوجيّة ليس مقصورًا على الإنسان وحده، بل إن الكون كلّه قائم على هذا المبدأ العام: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] **ليبقى التفرد بالوحدانيّة المطلقة للخالق سبحانه وحده.**

وسنبيّن — بحول الله — في ختام الباب الثالث، حين تكتمل الصورة عن الكون والإنسان والكائنات الحيّة، ملامح هذه الزوجيّة العجيبة التي تجمعهم جميعًا.

***

المبحث الثاني: من خلية بلا عقل إلى إنسان مكتمل

برهان الهداية الفطرية في خلق الإنسان

في المبحث السابق، توقفنا عند اللحظة التي التقى فيها الحيوان المنوي بالبويضة، وبدأت خلية جديدة تتكوّن.

لكن هذه لم تكن نهاية الرحلة، بل كانت بدايتها.

فمن هذه الخلية الصغيرة تبدأ رحلة عجيبة داخل **ظلمات الرحم**؛ رحلةٌ تنقسم فيها الخلايا، وتتخصص، وتتجه كل واحدة منها إلى مكانها، حتى تتكوّن أعضاء الإنسان المختلفة، ويتحول هذا الكائن الصغير شيئًا فشيئًا إلى إنسان مكتمل.

والأعجب أن كل هذا يحدث قبل أن يكون هناك عقل يفكر، أو وعي يوجّه، أو إرادة تختار.

فمن الذي يهدي هذه الخلايا في هذه الرحلة؟ ومن الذي يوجّهها لتقوم بكل وظيفة في وقتها ومكانها المناسب؟

وهنا يتجلى معنى قول الله تعالى:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

فكيف تبدأ هذه الرحلة؟ وكيف تهتدي الخلية خطوةً بعد خطوة حتى تصل إلى الإنسان المكتمل؟

مراحل البرهان : "من نطفة... إلى إنسان عاقل"

المرحلة الأولى: النطفة — البداية التي لا تُرى

البداية ليست أكثر من نقطة دقيقة لا تُرى بالعين، تتكوّن من اتحاد حيوان منوي من الذكر مع بويضة من الأنثى.

والحيوان المنوي نفسه أشبه بـ«كبسولة مبرمجة»؛ يسبح في رحلة طويلة وسط ملايين العوائق، ويشارك في سباق يصل فيه ملايين الحيوانات المنوية، لكن واحدًا فقط يصل إلى البويضة.

وما إن يتمكن أحدها من اختراق البويضة، حتى تحدث فيها تغيرات سريعة تمنع دخول حيوان منوي آخر، وكأنها تقول» :**اكتمل المقصود**.«

وهنا يبرز السؤال: من الذي أعطى الحيوان المنوي القدرة على السباحة والوصول إلى هدفه وسط كل هذه العوائق؟ ومن الذي جعل البويضة تُفعّل آلية دفاعية فور حدوث الإخصاب؟

هذا ليس عبثًا، بل هو **نظام محكم يبدأ منذ اللحظة الأولى**.

وفي ذلك يعلق الدكتور سامي عامري — حفظه الله — في مقال حديث نشره على تويتر، حيث يقول:

المرحلة الثانية: الانغراس — البحث عن الغذاء

بعد أن اجتمع الحيوان المنوي مع البويضة، تكوّنت الخلية المخصبة الأولى (الزيجوت)، والتي تبدأ بالانقسام تدريجيًا لتكوّن كتلة صغيرة من الخلايا. هذه الخلية (النُّطْفَة) تبدأ رحلتها نحو الرحم، وكأنها تعرف هدفها مسبقًا.

وعند وصولها إلى بطانة الرحم، تبدأ الخلية المخصبة بالانغراس داخل جدار الرحم، فتتعلّق به وتبدأ في امتصاص الغذاء اللازم لنموها وبقائها على قيد الحياة. ومن هنا تنتقل من مرحلة النُّطفة

إلى مرحلة العَلَقة؛ وسُمّيت علقة لأنها تتعلّق بجدار الرحم وتعتمد في غذائها على ما يحيط بها من دمٍ وغذاء.

ولذلك نتأمل الإعجاز القرآني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]

فهي مراحل متتابعة، كل مرحلة في وقتها وبوظيفتها، في نظامٍ دقيق يدل على هدايةٍ سابقة وتدبيرٍ محكم، لا عبث فيه ولا مصادفة.

المرحلة الثالثة: الانقسام — بلا قائد ولا مدير!

تبدأ الخلية الأولى في الانقسام بسرعة مذهلة: ٢، ثم ٤، ثم ٨، ثم ١٦... حتى ملايين الخلايا.

العجيب أن هذه الخلايا لا تتشابه: بعضها يصبح خلايا دماغ، بعضها خلايا قلب، بعضها خلايا كبد، وبعضها عظام، جلد، أعصاب، عضلات... كل خلية تعرف وظيفتها ومكانها بدقة مطلقة.

مثال مذهل: خلايا العين — وهي خلايا متخصصة جدًا — تهاجر إلى موقعها الصحيح في الوجه. ولو وضعت هذه الخلايا في القدم مثلًا؟ ستنمو، لكن بدون أي وظيفة!

هل يوجد "مصنع" يعمل فيه ملايين العمال، كل واحد يعرف دوره ومكانه وزمنه بدون قائد، ولا مدير، ولا غرفة تحكم؟! هذا ما يحدث داخل جسدك منذ اللحظة الأولى لتكوينك.

وفي وسط هذا المشهد المذهل من الانقسام والتنظيم، لا تتحرك الخلايا بلا هدف، بل تعمل وفق الشيفرة الوراثية (**DNA**) التي سبق أن بيّنا إعجازها في سابقا، هذه الشيفرة هي "كتاب التعليمات" الذي يحدد لكل خلية وظيفتها، وطريقها، وتوقيت عملها:

متى يبدأ القلب بالنبض، متى تتصل الأعصاب ببعضها، متى تتكون العظام، ومتى تُغلق الجمجمة...

وكل خلية جديدة تحصل على نسخة مطابقة من هذا الكتاب بدقة مدهشة، ولو حدث خطأ واحد في النسخ لاختل البناء كله.

المرحلة الرابعة: القلب ينبض!

في الأسبوع الرابع تقريبًا، يبدأ هذا القلب الصغير — الذي لا يتجاوز رأس الدبوس — بالنبض.

وكأنه "محرك مركزي" تلقّى أمر التشغيل، فيضخ الدم ويوصل الغذاء والأكسجين إلى الخلايا.

من الذي علّمه كيف يضخ الدم؟ ومن الذي أرشده إلى شبكة أوعية لم تتشكّل بعد بشكل كامل؟

المرحلة الخامسة: برمجة دقيقة للدماغ والأعصاب — أعجب معجزات الخلق

في الأسابيع التالية يبدأ الجهاز العصبي في التشكل... وهنا ندخل أعقد مرحلة في بناء الإنسان:

تتكون مئات الملايين من الخلايا العصبية، ثم تتصل ببعضها عبر شبكات أعقد من أعقد الحواسيب التي صنعها البشر.

كل خلية عصبية تعرف "متى" تنقسم، و"إلى أين" تهاجر، و"مع من" تتصل، و"كيف" تعمل.

ليس هناك خلية تتوه، أو تتصل بالخطأ، أو تعمل خارج وقتها — وكأن هناك مهندسًا خفيًا يدير عملية البناء.

الدماغ في هذه المرحلة ليس مجرد لحم رمادي... إنه مصنع تشغيل ذاتي:

- تُنشأ شبكات الذاكرة.
- تُبرمج مراكز السمع والبصر واللمس.
- تُبنى الوصلات التي ستتحكم في الحركة والتنفس ونبض القلب بعد الولادة.

والأعجب: أن معظم هذه الوصلات تتكون قبل أن يرى الجنين ضوء الحياة أصلاً.

المرحلة السادسة: اكتمال الأعضاء — معجزة التنسيق

ومع مرور الشهور، ينمو الجنين عضوًا عضوًا: العين تتشكل من خلايا لا تبصر أصلًا، ثم تُربط بالعصب البصري الموصول مباشرة بالدماغ!

الأذن تُنحت لتلتقط أدق الموجات الصوتية بعد الولادة ،العظام تُكسى باللحم في توقيت دقيق حدّده القرآن (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا) ،الأعصاب تمتد لتربط كل عضو بغيره، في شبكة لا يتوقف عملها لحظة.

المرحلة السابعة: الولادة — الخروج إلى الحياة

بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل، يتهيأ الجنين للانتقال من "عالم الرحم" إلى "عالم الحياة:"

- يبدأ الرحم بالانقباض بآلية تلقائية.

• يتخذ الجنين وضعية معينة — الرأس إلى أسفل — وكأنه تلقّى أمرًا بالتوجّه نحو بوابة الخروج.

• يُفتح مجرى الولادة تدريجيًا، وتتم العملية كلها بدون وعي من الأم أو الجنين.

كل قطعة، وكل حركة، وكل توقيت... تمّ وفق نظام دقيق لا يعرف العبث طريقًا إليه.

هذا ما وصفه القرآن بدقة مذهلة:

﴿فَجَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٣—١٤)[٣٦]

وتأمّل الآن أمرًا أعظم مما سبق : أن الجنين لا يكتفي بتكوين ما يحتاج إليه داخل الرحم، بل تُكوَّن فيه أعضاء لن يحتاج إليها إلا بعد خروجه إلى الحياة.

فالعين مثلًا تتكوّن وهو في ظلمات الرحم، مع أنه لا يرى هناك، والرئتان تتكوّنان وهو لا يتنفس الهواء بعد.

وهنا يحق لنا أن نتساءل :**من الذي جعل العين تتكوّن قبل أن يحتاج الإنسان إلى الرؤية؟ ومن الذي جعل الرئتين تتكوّنان قبل أن يحتاج إلى التنفس؟**

فالجنين في بطن أمه لا يرى الضوء، ولا يستنشق الهواء، ومع ذلك تتكوّن فيه العين والرئتان وكأنهما أُعدّتا مسبقًا لما سيحتاج إليه بعد خروجه إلى الحياة.

---

[٣٦] وبمناسبة هذه الآيات الكريمة، ننقل ما ذكره الأستاذ محمد الشاذلي في كتابه »*لا يأتون بمثله*«،ص ١٩٤ حيث تناول بعض الشهادات التي تأثر أصحابها بما وجدوه من **توافقٍ بين الوصف القرآني ومراحل تكوّن الجنين**. ومن ذلك ما ذكره عن **طبيبٍ تايلندي** اطّلع على بعض الأبحاث المتعلقة بأطوار الجنين، وخاصة ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقد أبدى الرجل دهشته عند اطلاعه على هذه المراحل، موضحًا أن وصف طور المضغة لم يكن معروفًا بهذا التفصيل إلا بعد تطور وسائل التصوير والمراقبة التي مكّنت العلماء من متابعة نمو الجنين داخل الرحم. فرأى أن هذا الوصف لا يمكن أن يكون صادرًا عن معرفة بشرية في ذلك الزمن، فكان ذلك سببًا في إسلامه، حيث أعلن شهادته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. "

وقد عبّر **الشيخ الذنادي رحمه الله** عن هذه الفكرة في كتابه «توحيد الخالق ص ١٣٠»، فقال:

»وإذا تفكرت في عملية تكوينك في بطن أمك، وجدت آيات وآيات. ذلك الجزء الذي يصنع العين لماذا يصنع العين؟ لأنه لا حاجة لك بالعين في بطن أمك!! **فهل قد أصبح ذلك الجزء من النطفة — في ظلمات الرحم — عالمًا بما سيؤول إليه أمرك**، خبيرًا بنظام الضوء وسننه وقوانينه الذي ستلاقيه بعد خروجك من بطن أمك، فنظم لك جهازًا بصريًا لترى به ما حولك مستخدمًا الضوء وقوانينه وسننه؟ ومن أعلم ذلك الجزء من النطفة من بطن الأم أنك ستخرج من بطن أمك؟ ومن أفهمه أنك ستحتاج إلى عينين بعد خروجك؟ ومن أعطاه درسًا في قوانين الضوء وأسراره، وهو لم ير ضوءًا من قبل؟«

ثم يقول عن الرئتين: » وإذا تأملت في الرئتين اللتين تصنعان لك في بطن أمك وأنت لا زلت جنيناً . لماذا صنعت هاتان الرئتان؟ بل لماذا تصنع ملايين الرئات مع كل المواليد الجدد في كل يوم من أجنة بني الإنسان.

إنه لا حاجة للجنين إلى الرئتين، بل لو دخل إلى الجنين قليل من الهواء إلى القرار المكين لأحدث فيه أضرارًا بالغة. فلماذا يصنع إذن هذا الجهاز التنفسي لاستقبال الهواء؟ **لا شك أن الذي يصنع هذا الجهاز على علم بمصير الجنين في كل إنسان**... وأنك ستخرج من بطن أمك وأن الهواء سيحيط بك من كل مكان، وأنك ستكون في أمس الحاجة إليه.«

ثم يقول: » وما قيل في تكوين العين والجهاز التنفسي يقال في تكوين الجهاز الإخراجي والجهاز الدوري الدموي، والجهاز الهضمي، والجهاز العصبي، فكل هذه الأجهزة لست بحاجة لها وأنت في بطن أمك، ولن تكون لك بها حاجة إلا بعد خروجك من بطن أمك، عندئذ تكون ألزم الأشياء وأهمها لبقاء حياتك.«

ثم يختم بقوله: » ألا تستنتج كل عقل سليم من هذه الأفعال والأحداث التي تجري في بطن أمك أنها تسير وفق خطة مرسومة مقدرة، وتبعًا لتدبير حكيم خبير عليم بما يصنع ويفعل؟» انتهى. **فالخلاصة أن هذه الرحلة المدهشة من نطفةٍ صغيرة لا تُرى بالعين المجردة إلى إنسانٍ كاملٍ بكل أجهزته ووظائفه، تكشف عن نظامٍ بالغ الدقة لا يمكن تجاهله.**

فمن خليةٍ أولى لا تملك عقلًا ولا وعيًا، تبدأ سلسلة هائلة من العمليات المنظمة؛ فتنقسم الخلايا، وتتخصص كل مجموعة منها لتأخذ دورها المحدد، وتتجه كل خلية إلى مكانها ووظيفتها في التوقيت المناسب، حتى يتكوّن هذا البناء المعقد المتكامل الذي هو الإنسان.

وكل ذلك يجري وفق ترتيبٍ محكم يتكرر في كل مولود منذ آلاف السنين وحتى اليوم، بنفس الدقة والانسجام؛ ليشهد هذا النظام البديع بوجود علمٍ يقدّر، وحكمةٍ تدبّر، وقدرةٍ تهدي وتوجّه.

***

خاتمة الفصل الثالث

بعد أن تأملنا رحلة الإنسان منذ التقاء الحيوان المنوي بالبويضة، ثم تكوّن الخلية وانقسامها وهجرتها في ظلمات الرحم، حتى تتكوّن أعقد المخلوقات على وجه الأرض :**الإنسان؛ في رحلة دقيقة تنفي العشوائية.**

والأعجب أن هذه الرحلة لا تحدث مرة واحدة، بل تتكرر في كل لحظة، وفي كل إنسان يولد على وجه الأرض.

ولذلك نترك ختام هذا الفصل للدكتور سامي عامري، من كتابه «براهين وجود الله»، صـ ٦٢٨، مع تلخيص وتنسيق يسير مني:

رحلة الإنجاب، رصيد لا ينتهي من العجائب

إن مما يطمئن إليه العقل والقلب دون عارض رنية أن كل محاولة للتفكر الواعي – المبرأ من ضغط الأيديولوجيا والأهواء – في رحلة الإنسان من تكون الحيوان المنوي في الرَّجُلِ والبُوَيْضَةِ في المرأةِ، إلى نهاية المسيرة باستهلال الجنين من نظن أنه لا بد أن تنتهي إلى الاستخفافي بالقدرة الخلقية للعشوائية؛ إذ إن الإنسانَ يُواجِهُ عيَانًا تفاصيل مرهقة للعقل الجاحِدِ والمعاند إذا تسلح بحاسة الاندهاش والسؤال المتكرر:

»ولكن لماذا يقع هذا الأمر في كوني مادي أعمى؟ وكيف تهيأ هذا الأمر رغم أنه لا سبيل لتفسيره بدعوى الظفرات العشوائية؛ إذ إننا هنا أمام لحظة لعمرها الغالية؟«

لننظر في هذه المراحل:

١ –الحاجة إلى وجود ذكر وأنثى.

٢ –الحاجة إلى أن يَحْمِلَ الذَّكَرُ رصيدًا بيولوجيًا مكمِّلًا لما عند الأنثى لظهور الجنين.

٣ –الحاجة إلى أن يُخْتَزَلَ ما عند الرَّجُلِ من معلومات جينية ورصيد بيولوجي في شيء دقيق جدًا (الحيوان المنوي)، ولنسمه (ح)؛ ليكون قادرًا على التلاؤم مع ما عند المرأة (البويضة)، ولنسمها (ب)، وهو أيضًا دقيق جدًا.

٤ –الحاجة إلى عددٍ كبيرٍ جدًّا (مليوني) من الكائنات التي تحمل الرصيد الجيني الذي سيضاف إلى البويضة؛ لوعورة الطرق إلى البويضة مقارنة بدقة هذا الكائن (لا يصل إلى البويضة من بين ٢٠ مليونًا أو أكثر غير عدد قليل من ٢٠ إلى ٢٠٠ حيواني).

٥ –الحاجة إلى أن تكون في الكائن الذَّكَرِيّ رغبةٌ ما تَدْفَعُهُ بقوة أقوى منه (الغريزية) إلى أن يرغب في إبلاغ (ح) إلى (ب) (الجماع)، رغم أنه لن يهلك الذكر إن لم يفعل ذلك.

٦ –الحاجة إلى تهيُّؤ جسد الأنثى لقبول الكائن الأجنبي عنه (الحيوان المنوي)، فلا تلفظه كعادتها مع كل جسم أجنبي (جهاز المناعة)، وإنما تيسر له سبيل الالتقاء.

٧ –الحاجة إلى وجود تهيؤ لـ(ح) إلى أن يقصد في سفره الطويل – مقارنةً بحجمه – (ب)، فلا ينصرف إلى غيرها، ويثابر إلى إدراكها في جريه أو سباحته الطويلة إليها (يسبح الحيوان المنوي بسرعة تقابل خمسة أضعاف حجمه في الثانية، ولو ضخمنا الحيوان المنوي ليبلغ حجم سمكة السلمون، فسيكون معدل سرعته قرابة ٥٠٠ ميل في الساعة).

٨ –الحاجة إلى أن يعرف (ح) عندما يصل إلى (ب) أن (ب) هي مقصوده.

٩ –الحاجة إلى أن يعرف (ح) كيف يقتحم جدار (ب) الذي يحميها من الغزاة الأجانب.

١٠ –الحاجة إلى قدرة (ح) على حماية المادة الجينية التي يضمها في رحلته الشاقة، ثم قدرته على أن يُخرج هذه المادة عند لحظة الالتقاء مع (ب)، في الوقت المناسب.

١١ –الحاجة إلى وجود قابلية للتكامل والتفاعل بين (ح) و(ب)، رغم أنهما ينتميان إلى جسمين مختلفين.

١٢ –الحاجة إلى قبول جسد الأنثى نمو الجنين الجديد (الجنين) – ولنسمه (ج).

١٣ –الحاجة إلى إفراز (ب) ما يمنع دخول (ح) ثانٍ فيُفشل عملية الإخصاب (البويضة تُفرز إنزيمًا يجعل غشاءها غير قابل للاختراق).

١٤ –الحاجة إلى وجود نظام دفاعي معقد لحماية «ج» من الأخطار الداخلية في جسد الأنثى، ومن الأخطار الخارجية في العالم الخارجي.

١٥ –الحاجة إلى وجود آلية معقدة لتوفير الطاقة للكائن النامي الجديد دون إهلاك الأم.

١٦ –الحاجة إلى وجود آلية معقدة لتصريف فضلات الكائن الجديد.

١٧ –الحاجة إلى وجود آلية لتوسعة المكان لـ«ج» النامي كل يوم.

١٨ –الحاجة إلى وجود عاطفة قوية عند الأنثى للاحتفاظ بـ«ج» الذي ينقل جسدها، ويزعج منامها، ويذهب بهاء شكلها.

١٩ –الحاجة إلى وجود طريق ممكن لخروج «ج» من جسد الأنثى، مع قدرة الجسد أن يستعيد شكله الأول بعد خروجه....

التفاصيل المطلوبة أوسع بكثير من النقاط السابقة، وغياب واحد منها في عالم الإنسان؛ يعني: فناء البشرية جميعًا..

وإن العقل الذي يفكر بجد في رحلة التناسل من مبدئها الأول، وقيامها على عمل جسدين بينهما انفصال تام في عالم الطبيعة، ثم لا يهتدي، يشهد على نفسه أنه قد عطّل ملكة السير مع البرهان إلى حيث يقوده! انتهي ، حفظه الله

***

خاتمة الباب: الإنسان... شاهد من داخله

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)

بعد هذه الرحلة في أسرار خلق الإنسان، يظهر لنا أن الإنسان ليس مجرد تجمعٍ من الذرات، ولا مجرد نتيجةٍ عمياء لقوانين بلا قصد؛ بل هو كائن يحمل في داخله شواهد عظيمة على الحكمة والتقدير.

ففي جسده نظامٌ بالغ الدقة، وفي عقله قدرةٌ على الفهم والإبداع، وفي قلبه فطرةٌ تبحث عن المعنى والحق، وفي ضميره إحساسٌ بالخير والعدل. وكل جانبٍ من هذه الجوانب يفتح أمامنا بابًا للتأمل في عظمة الخالق سبحانه.

فالخلية التي تبدأ بها حياة الإنسان، والشفرة التي تحمل تفاصيل بنائه، والعقل الذي يكتشف أسرار الكون، والروح التي تتطلع إلى الغاية والمعنى... كلها آثارٌ تشير إلى خالقٍ عليمٍ حكيم، خلق الإنسان فأحسن خلقه، وقدّره فأحسن تقديره.

ولهذا كان الإنسان نفسه من أعظم الآيات الدالة على الله؛ فكلما تأمل الإنسان في ذاته ازداد يقينًا بأن وراء هذا الخلق علمًا وحكمةً وقدرة، وأن هذا الإتقان لا يمكن أن يكون أثرًا للعبث أو الصدفة.

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)

قال سبحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)

والآن... انظر للطفل، انظر له جيدًا:

هذا الكائن الصغير، بكل تفاصيله: بعينيه، ووجهه، وابتسامته، وضحكته، وبراءته، وجسده الذي يعمل في أدق نظام... أليس في نفسه آيةٌ عظيمة تدل على عظمة خالقه سبحانه؟

هل خرج هذا الطفل من تراب الأرض وحده؟ وهل اجتمع الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والنيتروجين، حتى صار كائنًا يضحك، ويحب، ويتعلم، ويشعر، ويعقل؟ هل كتبت المادة هذا الجمال؟ وهل صنعت الذرات هذه المعجزة التي تتكرر أمام أعيننا كل يوم؟

ولمن لا يزال ينكر، أقول: انظر إلى هذا الطفل مرةً أخرى، وتأمل بصدق. واسأل نفسك بهدوء: هل المادة العمياء قادرة على أن تُنتج شيئًا كهذا؟

ولك بعد ذلك أن تختار ما تشاء... مع أني أعلم أنك - بحسب مذهبك - لا تؤمن أصلًا بحرية الاختيار؛ لأن الإرادة، كما سبق بيانه، ليست من خصائص المادة، ولا مكان لها بين الذرات. لكن على كل حال... انظر بعين الإنصاف، وتأمل بقلبٍ صادق، وستجد أن هذه الصورة وحدها تنطق بما تعجز عنه آلاف الصفحات.

ولا أنسى هنا تلك الصورة الساخرة التي تداولها بعض الناس؛ إذ صنعوا تمثالًا لداروين، ثم كتبوا تحته" :**هذا التمثال لا يمكن أن يكون قد صنعته الطبيعة، بل لا بد له من نحات** ".ثم سألوا ساخرين :**إذا كان هذا التمثال الجامد لا يمكن أن يوجد بلا صانع، فكيف يُقال إن داروين نفسه – وهو إنسان حي عاقل – أوجدته الطبيعة العمياء؟!**

وأخيرًا... لا أجد ختامًا أجمل من كلام الله سبحانه وتعالى، الذي جمع أصل الإنسان، وغاية خلقه، وسر تكريمه، في ثلاث آيات عظيمة من سورة السجدة: **(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)(٩)**

***

الباب الثاني
حين تنطق المخلوقات بالهداية... أدلّة الله من عالم الحيوان والنبات

في هذا الباب، لا نعرض مشاهد من عالم الحيوان للدهشة أو التسلية فقط، بل نعرضها لنفتح نافذة على آية عظيمة من آيات الله في خلقه.

نحن لا ننظر إلى النحلة، أو النملة، أو العنكبوت، أو السمكة القنّاصة، أو حتى زهرة الأوركيد ككائنات غريبة فحسب، بل ننظر إليها كشهود ناطقة بالحكمة، وهداية مزروعة في الفطرة، وأنظمة دقيقة تفوق في تعقيدها كثيرًا مما صنعه البشر.

وفي هذا الباب، سننظر إلى أمثلة مدهشة، منها:

- كيف خدعت زهرة الأوركيد ذكر النحل، فجعلته يلقّحها وهو يظن أنها أنثى؟
- كيف جمعت زهرة المطرقة بين الخداع البصري والكيميائي والهندسي في ساق واحدة؟
- كيف صار اليعسوب طيارًا دقيقًا يفوق الطائرات المقاتلة؟
- كيف تنكّر عنكبوت الأوركيد بهيئة زهرة لينصب فخًا قاتلًا؟
- كيف بنت النملة نظام تواصل بيولوجي مذهل يشبه شبكات الإنترنت؟
- كيف أتقنت السمكة القناصة قوانين الانكسار وأصابت فريستها من تحت الماء بدقة لا يقدر عليها الإنسان إلا بعد دراسة فيزياء الضوء؟
- كيف حسبت النحلة طريقها بأقصر مسار، وحلّت معضلة رياضية يعجز عنها الكمبيوتر؟

هذه الكائنات لم تتعلم من كتب، ولم تتلقَّ تدريبًا، ولم يشرح لها أحد ما تفعل، بل وُلدت مبرمجة، ملهَمة، مهدية.

إنه ليس مجرد سلوك، بل برهان، وليس مجرد غريزة، بل دليل على وجود خالق أعطى كل شيء خلقه ثم هداه.

هذا الباب هو دعوة للتأمل، لرؤية خيوط الهداية التي تصل ما بين الإنسان والحيوان لتقول بصوت واحد :وراء هذا الخلق هادٍ حكيم.

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

تمهيد بالقصة: تخيل معي طفلًا حديث الولادة منذ لحظات، هل يمكنك أن تعطيه مشرطًا وتطلب منه أن يجري عملية قلب مفتوح؟

بالطبع لا، لماذا؟ لأنه ليس لديه عقل ناضج، ولا فهم، ولا خبرة، ولا تعليم، ولا حتى وعي يجعله يفتح عينيه ويرى الدنيا بوضوح.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

حسنًا، لو الإنسان – الذي لديه عقل ولسان ومدارس – يحتاج وقتًا لكي يتعلم، فماذا عن الحيوانات والحشرات والنباتات؟

فهي لا تمتلك عقلًا مثل الإنسان، ولا لغة، ولا إدراك، بل أضعف من الطفل حديث الولادة بمراحل، ومع ذلك نراها تقوم بسلوكيات معقدة، دقيقة، مدروسة، منذ أول لحظة في حياتها، فتجد الكائن الذي لا يملك عقلًا يقوم أحيانًا بأفعال تحتاج إلى: تخطيط هندسي ، حيلة عسكرية ، دقة طبية ، وبرمجة ذكية وهذا يجعلنا نسأل: من علّم هذه الكائنات؟ من فهمها كيف تتصرف هكذا؟ من برمجها على هذه التصرفات بدون تعليم أو تجربة؟ وكيف أن سلوكها يخدم هدفًا واضحًا بدقة مدهشة؟

ملاحظة :هذه المشاهد من عالم الحيوان والنبات تُكمّل برهان الهداية الذي لاحظناه عند الإنسان نفسه، مثل خلية الإنسان في رحم أمه، التي تهتدي تلقائيًا في الظلام المطلق، تتغذى، تنمو، وتؤدي وظائف معقدة دون وعي أو تعليم مسبق. وسبحان الله، هذه الهداية الدقيقة مستمرة في كل كائن حي، شاهدة على قدرة خالق عليم حكيم.

تنويه مهم قبل أن نبدأ: الأمثلة التي سنعرضها ليست حكايات خيالية، بل حقائق موثقة مبنية على دراسات ومراجع علمية معتبرة. وقد نُقلت هذه المادة عن كتاب »براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم – برهان الغريزة» (ص ٩٧) للدكتور سامي عامري – حفظه الله – وهو كتاب اعتمد على أبحاث ومصادر موثقة. وما يُذكر من أمثلة أو أقوال دون تفصيلٍ للمصدر، فمرجعها موجود في هذا الكتاب.

***

الفصل الأول: فنّ الخداع عند الزهرة والعنكبوت

أولًا: زهرة أوركيد النحل

زهرة أوركيد النحل

إبداع إلهي يحبس الأنفاس

هل ترى هذه الزهرة؟ ليست مجرد نبات جميل، بل خدعة مذهلة موجهة لذكر النحل.

قلّدتها بالكامل: نفس الشكل واللون، نفس الملمس والرائحة الكيميائية، وحتى توقيت الظهور... متزامن مع موسم تزاوج النحل.

زهرة الأوركيد... أنثى النحل المزيّفة

ظاهرة زهرة الأوركيد تكشف عن خالق حكيم، وفكرة ليست علمية فحسب، بل آية من آيات الإبداع التي حيّرت الماديين أنفسهم مثل داروين وريتشارد دوكينز وغيرهم.

نبدأ الحكاية بهدوء: النبات بطبيعته ثابت لا يتحرك، ومع ذلك يريد أن يتكاثر. لذلك يجب أن ينقل حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى ليحدث التلقيح.

في بعض النباتات تنتج حبوب لقاح كثيرة جدًا، وتتركها للرياح.

قد تأخذ الرياح بعض اللقاح وترميه في أي مكان، وإذا صادف ووصل إلى زهرة أخرى، يكون ذلك حسنًا.

لكن هذه الطريقة مرهقة جدًا وغير فعالة، لأن نسبة النجاح فيها ضعيفة جدًا. فكر النبات — مجازًا — وقال: بدل أن أضيع جهدي دون فائدة، لماذا لا أستخدم الحشرات؟ حيث الحشرات بطبيعتها تحب الرحيق، فتبدأ النباتات بإفراز مادة سكرية لجذب الحشرة.

تأتي الحشرة لتأكل، وفي نفس الوقت تلتصق حبوب اللقاح بجسمها، وعندما تذهب إلى زهرة أخرى... يحدث التلقيح.

صفقة ممتازة: الحشرة تأخذ طعامها، والنبات يحصل على نقل دقيق ومجاني للّقاح.

لكن هناك مشكلة: الرحيق مكلف جدًا للنبات، لأنه يستهلك طاقة ضوئية ومواد غذائية.

ومع ذلك قرر النبات استثمارًا ذكيًا، يضمن التلقيح بدقة.

ولكن هذا ليس العجيب حقًا...

زهرة الأوركيد... قصة مختلفة تمامًا

هناك نوع من زهرة الأوركيد قام بشيء شبه مستحيل: بدل أن يفرز الرحيق ...قرر أن يخدع الحشرة.

هذه الزهرة قلّدت شكل أنثى النحل بالكامل، ليس هذا فقط، بل قلّدت في:

الشكل ، اللون ، الملمس ،الرائحة ،الكيميائية ،وحتى توقيت الظهور مع موسم تزاوج النحل ، فأصبحت الزهرة نسخة طبق الأصل من أنثى النحل.

يرى الذكر هذه الزهرة، يظنها أنثى حقيقية، ويحاول التزاوج معها، وفي لحظة "التزاوج"، تلصق الزهرة حبوب اللقاح على جسمه، بعد أن "يُخدع"، يطير إلى زهرة أخرى من نفس النوع، ويكرر نفس القصة ...وينقل اللقاح بدقة مذهلة.

الزهرة قامت بخدعة متقنة جدًا، تجعل ذكر النحل يظنها أنثى، وكأنها فنانة كيميائية وتشريحية وتوقيتية.

سؤال: أنت كبني آدم، بعينين وعقل ومخبر وتحاليل، إذا أعطيناك صورة لأنثى النحل، وقلنا لك: "اصنع تمثالًا يشبهها بالضبط"، هل تستطيع أن تصنع: شكلاً مطابقًا؟ نفس ملمس الشعر؟ نفس الرائحة الكيميائية؟ نفس توقيت الظهور؟ وتقنع به ذكر النحل أنه أنثى؟

مستحيـل! فكيف لزهرة، لا ترى، ولا تفكر، ولا تشم، ولا تملك عقلًا، أن تقوم بهذا بالضبط؟

٢– قصة زهرة المطرقة: عندما يصبح النبات مهندسًا ميكانيكيًا وكيميائيًا في نفس الوقت

التعليق على الصورة:الزهرة صُممت جزءًا منها لتشبه أنثى نوع معين جدًا من الدبابير ، وقامت بتركيب ميكانيكي مذهل .

الإعجاز: قصة زهرة المطرقة

تعالَ نرى معًا واحدة من أغرب الحيل في عالم النبات.

هناك زهرة تُسمى »**أوركيد المطرقة(Hammer Orchid)** «، وقد ابتكرت طريقة عجيبة للتلقيح؛ فهي لا تعتمد على الرحيق لجذب الحشرات، ولا تقدم لها طعامًا، بل تستخدم خدعة معقدة تجمع بين **الشكل، والرائحة، والحركة، والتوقيت.**

لكن لماذا تحتاج الزهرة إلى كل هذا؟ لأن هدفها في النهاية هو شيء واحد :**التلقيح.**

ولكي يحدث التلقيح، يجب أن تجذب ذكر نوع محدد جدًا من الدبابير، ثم تجعله يحمل حبوب اللقاح وينقلها إلى زهرة أخرى.

فما العمل؟

١– تقليد الأنثى

تقوم الزهرة بتطوير جزء منها يشبه أنثى الدبور بدرجة مدهشة، ليس في الشكل فقط، بل في عدة تفاصيل تجذب الذكر، مثل **الشكل واللون والحجم والملمس والرائحة الكيميائية.**

والأغرب أن الذكر لا يقترب من الزهرة لأنه يريد الطعام، وإنما لأنه يظن أنه اقترب من **أنثى من نوعه.**

تخيل زهرة لا ترى، ولا تسمع، ولا تملك عقلًا، ومع ذلك يوجد في تركيبها ما يجعل ذكر الدبور يتعامل مع هذا الجزء من الزهرة كما لو كان أنثى حقيقية.

لكن الخدعة لا تتوقف عند الشكل والرائحة!

٢– تركيب ميكانيكي مذهل

الجزء الذي يشبه الأنثى ليس ثابتًا بشكل عادي، بل يرتبط بجزء مرن يشبه **الذراع أو الزنبرك**.

وهنا تبدأ الحيلة الميكانيكية.

عندما يقترب الذكر ويهبط على الجزء الذي ظنه أنثى، يتحرك هذا الجزء تحت وزنه، فتستجيب الآلية الموجودة في الزهرة للحظة المناسبة.

أي أن الزهرة لا تحتاج إلى رؤية الدبور أو التفكير في وجوده؛ **مجرد هبوطه بوزنه يؤدي إلى تشغيل الآلية**.

٣- الضربة المفاجئة

بمجرد أن يقع الذكر في الخدعة ويستقر في المكان المناسب، يتحرك الذراع المرن بسرعة، فيدفع جسم الدبور أو يضربه باتجاه محدد داخل الزهرة.

وهنا تظهر روعة التصميم:

الضربة ليست حركة عشوائية، وإنما حركة توجه جسم الدبور إلى موضع محدد بدقة.

وكأن الزهرة جهزت له «مسارًا» معينًا حتى يصل جسمه إلى المكان المطلوب.

٤- تثبيت حبوب اللقاح

وهنا تأتي المرحلة الأهم.

المكان الذي يصل إليه جسم الدبور داخل الزهرة ليس عشوائيًا؛ إذ توجد فيه حبوب اللقاح، فتلتصق بجسم الدبور في موضع مناسب لحملها.

وبذلك يغادر الدبور الزهرة وهو يحمل حبوب اللقاح معه.

وعندما يزور زهرة أخرى من النوع نفسه، يمكن أن تنتقل هذه الحبوب إليها، وبذلك تتم عملية التلقيح.

إذن نحن أمام سلسلة متتابعة من الخطوات:

تقليد الأنثى ← جذب الذكر ← هبوطه في الموضع المناسب ← تشغيل الآلية ← توجيه جسمه ← التصاق حبوب اللقاح به ← نقلها إلى زهرة أخرى.

وكل هذا يحدث في لحظات قصيرة جدًا.

سلوك الذكر المخدوع

والأعجب أن الدبور الذكر قد يحاول التزاوج مع الجزء الذي يشبه الأنثى، فيتعرض للخدعة، ثم يغادر وهو يحمل حبوب اللقاح.

وقد تتكرر محاولاته مع أزهار أخرى، فتستفيد الزهرة من سلوكه الطبيعي في إتمام عملية التلقيح.

وهنا تأمل المشهد كله: زهرة لا ترى الدبور، ولا تسمع صوته، ولا تفكر في حركته، ومع ذلك يعتمد تلقيحها على **توافق دقيق بين شكلها ورائحتها وتركيبها الميكانيكي وسلوك الحشرة التي تتعامل معها**.

السؤال : هل يمكن أن يكون كل هذا مجرد صدفة عمياء؟

أم أننا أمام نظام بالغ التعقيد والإتقان، يدل على خالق حكيم، أودع في هذه الكائنات من أسرار التصميم ما يعجز العقل عن الإحاطة به؟

٣- عنكبوت يتنكر في شكل زهرة الأوركيد

صورة لعنكبوت يشبه زهرة الأوركيد تمامًا، من أنواع العناكب التي تتخفّى ضمن الإزهار لخداع الحشرات بالتمويه الكامل

في إحدى غابات آسيا تقف زهرة "الأوركيد "الجميلة، بألوانها الزاهية ورائحتها الجذابة، تجذب الحشرات من بعيد، لكن... هناك مخلوق غريب واقف بلا حراك فوق الزهرة.

هل تظنه جزءًا منها؟ لا... إنه العنكبوت الماكر.

خطة خداع مذهلة

العنكبوت لم ينتظر أن يبني شبكة ويصطاد بطريقة عادية، بل قرر أن يقوم بخدعة عبقرية:

- غير شكله بالكامل، لون جسمه، ملمسه، ونمط جلده، ليشبه تمامًا بتلات زهرة الأوركيد.
- وقف في نفس المكان الذي تقف عليه الحشرات عند شرب الرحيق.

فتأتي الحشرة البريئة وتظن: "ها، زهرة"! فتقف عليه، وفجأة... ينقض عليها.

السؤال الكبير من أين جاءته هذه الفكرة؟ هل حضر دورات تمويه؟ هل شاهد فيديوهات تعليم خداع بصري؟ **لا شيء من ذلك.**

العنكبوت يولد وهو يعرف بالضبط ما يفعل، يتحرك في الوقت والمكان المناسب، ويتنكر بتفاصيل أدق من خيالنا.

هذا ليس مجرد "تمويه"، بل برمجة إلهية: من الذي أوحى للعنكبوت أن يفعل ذلك؟ ومن الذي زرع في جسده القدرة على تغيير الشكل واللون؟ ومن الذي هداه إلى التواجد في المكان المناسب في الوقت المناسب؟

***

الفصل الثاني: كائنات بلا عقل وتصرفات تفوق العقل

١-اليعسوب (الطائرة الصغيرة)

اليعسوب: الطيار البارع في عالم الحشرات

هناك مخلوق صغير جدًا، شكله جميل وألوانه لامعة، اسمه :اليعسوب، لكن... ليس مجرد مخلوق جميل، بل أحد أعظم الطيارين على وجه الأرض.

اليعسوب صياد ماهر، يعيش على اصطياد فرائسه من الحشرات الصغيرة جدًا ،والغريب أن هذه الفرائس سريعة جدًا في الطيران، ومع ذلك... يمسكها اليعسوب بدقة مذهلة.

ليس لأنه يطير في اتجاهها فقط، بل لأنه يقوم بمناورة عسكرية متطورة:

- يحسب موقع الفريسة وسرعتها واتجاهها.
- يغير اتجاهه ليأتي عليها من الجانب أو الخلف، من دون أن تشعر به.
- وفي اللحظة المناسبة... يهجم عليها في الجو ويصطادها، بدقة لا توصف.

رأي الخبراء مجلة **New Scientist** قالت:

"اليعسوب يقوم بمناورات في الطيران معقدة للغاية، لدرجة أن الطيارين العسكريين لا يستطيعون محاكاتها إلا في أحلامهم".

وعالم من جامعة أسترالية أضاف:

"ما يفعله اليعسوب يحتاج إلى أجهزة متطورة وغالية جدًا لكي نقلده... ومع ذلك لا نضمن النجاح".

لماذا هذا مذهل؟ لأن الطيران وتغيير الاتجاه والسرعة يتطلب:

- حساب زاوية الطيران.
- تقدير المسافة والسرعة.
- مراعاة اتجاه الرياح.

وهذا أمر صعب حتى على البشر المدربين ...فكيف يفعله مخلوق صغير لا يملك عقلًا بشريًا؟

نحن أحيانًا نظن أن الطيران أمر عادي لأننا نرى الطيور كل يوم، لكن الحقيقة أن طيران الحيوانات، ومن ضمنها اليعسوب، أعقد وأدق بكثير من الطائرات التي نصممها.

والسؤال : من الذي علّم اليعسوب أن يطير بهذه الطريقة المعجزة؟ من الذي علّمه الحساب والمناورة والمفاجأة؟

وصدق الله العظيم: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

٢ –" الإنترنت النملي" من علم النمل البرمجة؟

تخيل أنك جالس في بيتك، فتفتح هاتفك، وتجد الإنترنت يعمل بشكل جيد ، لكن السؤال : كيف يعمل هذا الإنترنت؟ يعمل عبر إشارات، وخوادم، وسلوك ذكي بين الأجهزة بعضها البعض، تواصل سريع، فعّال، ومنظّم.

حسنا... ماذا لو أخبرتك أن هناك كائنًا صغيرًا جدًا، لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ولا يملك هاتفًا ولا كمبيوتر، ولكن لديه "نظام تواصل" أقوى وأذكى من الإنترنت المنزلي نفسه؟ من هو هذا الكائن؟ **النمل**.

علماء من جامعة ستانفورد وقفوا مندهشين وهم يرون مستعمرات النمل تتواصل بسرعة، ودقة، وتنظيم مذهل ،لكن كيف؟ تعال وشاهد:

أول طريقة: كأنهم يرسلون لبعض "رسائل"SMS "

النمل يفرز مواد كيميائية تسمى الفيرومونات، وهي كالروائح التي لها معنى.

يعني، عندما تجد نملة طعامًا، تترك وراءها "خط رائحة كيميائي"، والنمل الآخر يشم هذه الرائحة ويفهم الرسالة: *"هنا يوجد طعام... اتبعني"!*

ثاني طريقة: أجهزة استشعار داخل جسم النملة(sensors)

كما نركب في الروبوتات أجهزة استشعار، النملة خلق الله لها حواس تستطيع بها قياس الحرارة، الرطوبة، وما حولها، وعندما تلتقي نملتان، يلمسون قرون الاستشعار ويتبادلون المعلومات.

ثالث طريقة: "الاهتزاز" أو "الفايبريشن"

النملة تهز جسمها أو الأرض حولها، والنمل البعيد يشعر بالاهتزاز، ويفهم أنه إنذار أو تنبيه.

تخيل شبكة اتصالات لاسلكية مبنية على الاهتزاز!

المدهش عندما شاهد العلماء الإنترنت النملي، بدأوا يصممون خوارزميات للشبكات وتوزيع المهام في الكمبيوتر، ليس من عندهم، بل بتقليد النمل! **أي أن النمل علم مهندسي البرمجة.**

السؤال الكبير ؟ النمل لم يخترع هذا النظام، بل هو "برمجة إلهية"؛ كما أن الكمبيوتر يحتاج نظام تشغيل مبرمج، النمل أيضًا يعمل بفضل نظام زرعه الله فيه منذ البداية.

– السمكة القناصة – دقة فيزيائية تفوق الخيال

السمكة القناصة – دقة فيزيائية تفوق الخيال

من أعجب المخلوقات التي أظهرت دلائل "الهداية البرمجية "من الله عز وجل، هي سمكة صغيرة تعيش في المياه العذبة أو المالحة، تُعرف باسم السمكة القناصة.(**Archerfish**)

ما الذي تفعله؟ هذه السمكة لا تأكل من داخل الماء، بل تصطاد الحشرات التي تقف فوق أغصان الأشجار المجاورة للبرك والأنهار، فتقوم بضرب دفقة من الماء من فمها بدقة شديدة لتصيب الحشرة، فتسقط في الماء، ثم تسبح لتلتهمها.

أين الإعجاز ؟ **معادلات فيزيائية معقدة**

لكي تُصيب السمكة الحشرة بدقة، عليها أن تحل – بشكل فطري **– معادلة فيزيائية معقدة لتصحيح زاوية الرؤية**، لأن الضوء ينكسر عند انتقاله من الماء إلى الهواء (ظاهرة الانكسار – **Refractive Index**).

وبسبب هذا الانكسار، موقع الحشرة الظاهر للسمكة ليس موقعها الحقيقي، ومع ذلك تصيبها بدقة مذهلة دون أي حساب واعٍ.

•**تقدير المسافة والضغط المناسب**

السمكة تُقدّر المسافة بين موقعها وموقع الحشرة:

- لو الحشرة بعيدة ⟵ تضرب بدفقة ماء أقوى
- لو الحشرة قريبة ⟵ تضرب بدفقة ماء أخف

أي أنها تتحكم في ضغط الماء وسرعته حسب بعد الهدف.

•تتعلم من الخطأ السمكة تُصحّح طريقها تلقائيًا إذا أخطأت في المرة الأولى، وتتحسن في المرات القادمة.

كيف استفاد العلماء منها؟ استلهم العلماء من السمكة خوارزميات للرؤية الحاسوبية (**Computer Vision**)، ونموذج السمكة ساعد في تطوير طرق تحديد الأهداف وتتبعها بدقة في الكاميرات والروبوتات.

الخلاصة : سمكة لا تسمع، ولا ترى كما نرى، ولا تمتلك عقلًا بشريًا، ومع ذلك تتصرف بدقة يفشل فيها أكبر فيزيائي أو مهندس.

4- النحلة... مهندسة الرياضيات التي حيّرت العلماء

مثال عامل توصيل البيتزا

تخيّل معي هذا المثال: أنت تعمل في محل بيتزا صغير، ويصلك خمسة طلبات من خمسة بيوت مختلفة في المدينة ثم يخبرك صاحب المحل قائلاً:

"استمع جيدًا... الزبائن جائعون، ومطلوب منك توصيل الطلبات بسرعة، على أن يذهب كل بيت مرة واحدة فقط، ثم تعود إلى المحل في النهاية، هنا ستتساءل: من أين أبدأ؟ وما الطريق الأنسب؟ هل أبدأ من البيت الأول ثم الثاني والثالث؟ أم أبدأ من الثالث ثم الخامس ثم الأول؟ ستبدأ بمحاولة طرق مختلفة في ذهنك، لكن دائمًا يساورك السؤال: "أي الطرق هو الأقصر؟"

لأن اختيار طريق خاطئ يؤدي إلى:

- طول المسافة بشكل غير ضروري، برودة الطعام، استهلاك المزيد من الوقود، واستياء الزبائن.

المشكلة تتعقد :

في البداية قد تقول: "لدي خمسة أماكن فقط... ما عدد الاحتمالات؟"

لكن عند الحساب تبين المفاجأة:

- إذا كان لديك خمسة أماكن ⟵ عدد الترتيبات = ١٢٠ احتمال.

٥! = ٥ × ٤ × ٣ × ٢ × ١ = ١٢٠

- إذا كان هناك ستة أماكن ⟵ ٦! = ٧٢٠ مسار مختلف.
- إذا كان هناك عشرة أماكن ⟵ ١٠! = ٣,٦٢٨,٨٠٠ مسار مختلف!

ويزداد التعقيد بشكل كبير مع زيادة العدد.

أصعب مسائل علم الحاسوب

وهذه ليست خيالًا، بل واحدة من أصعب مسائل علوم الحاسوب، وهي ما يسميه العلماء: "مشكلة البائع المتجول.(**Travelling Salesman Problem**) "

حتى أقوى أجهزة الكمبيوتر تحتاج وقتًا طويلًا جدًا لحساب الطريق الأمثل.

فمن أجل حل هذه المشكلة، يحتاج عامل التوصيل إلى:

- خريطة دقيقة، برنامج **GPS** ، جهاز حاسوب لحساب أسرع طريق، أو تجربة جميع الاحتمالات المتعددة حتى يجد الطريق الأمثل.

تجربة علمية مذهلة : قرر العلماء اختبار ذلك في جامعة *رويال هولواي* بلندن:

- وضعوا غرفة فارغة، وزرعوا فيها مجموعة من الزهور الصناعية بشكل عشوائي، وركبوا كاميرا لمراقبة كل حركة.

دخلت نحلة لم ترَ هذه الزهور من قبل، دون أي خريطة أو تجربة سابقة.

المفاجأة كانت: بدأت النحلة بالتنقل بين الزهور، وبعد عدد قليل من المحاولات، استطاعت اكتشاف أقصر طريق يمر على كل الزهور مرة واحدة، وتعود إلى خليتها بأقل استهلاك للطاقة.

ببساطة، النحلة حلّت واحدة من أصعب مسائل علوم الحاسوب، التي تحتاج ملايين العمليات الحسابية والمعالجات الضخمة، وهي تمتلك عقلًا صغيرًا جدًا، بدون تدريب، تعليم، أو كتب رياضيات.

والأعجب من ذلك: عندما أضاف العلماء زهرة جديدة في مكان مختلف، أعادت النحلة حساب مسارها بالكامل، واختارت أقصر طريق مرة أخرى.

أي أنها لم تحفظ الطريق فقط، بل أعادت الحسابات من البداية وفق التغيرات.

سؤال للعقل " من علم النحلة هذا؟ من زرع فيها هذه الخوارزميات؟

من حسب لها المسافات والزوايا واستهلاك الطاقة؟ من برمج عقلها الصغير على واحدة من أعقد

المسائل الرياضية في العالم؟ هل حدث ذلك بالصدفة؟ أم كما قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]

﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]

***

خاتمة الباب

"هداية لا تعرف الصدفة"

بعد أن تأملنا هذه النماذج المدهشة من عالم الحيوان والنبات، ندرك أن ما نراه ليس عشوائية ولا فوضى، بل كل مشهد هو برهان ناطق على وجود خالق عليم هادٍ.

هذه الهداية الفطرية لا تُفسَّر إلا بوجود من قال للشيء كن، إنها هداية فطرية، لا تعلم، برمجة، لا عبث.

وهكذا، تصبح هذه الكائنات الصغيرة أعظم مناهج في الإيمان، وتصبح الطبيعة كلها معرضًا لآيات الله

تنويه

الكون مليء بالعجائب... وسلوك الحيوانات والنباتات بحر لا ينتهي من الإبداع والدقة والإلهام. وما ذكرناه هنا ليس إلا أمثلة قليلة من هذا الجمال المدهش.

فسبحانك ربي، كيف لنا أن نُحصي عجائبك؟! وكما يقول الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله: "**الطريق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق**".

***

الباب الثالث
هذا الكون... دقّة في التصميم، وجمال في التكوين

مقدمة

حين نرفع أبصارنا قليلًا عن أنفسنا وعن المخلوقات من حولنا، ونترك ضجيج الحياة جانبًا، نجد أنفسنا أمام مشهد أوسع وأعجب :**الكون الفسيح**.

وهنا تظهر أسئلة لا يستطيع الإنسان أن يتجاهلها إذا تأمل في هذا الوجود: من أين بدأ هذا الكون؟ وكيف خرج إلى الوجود؟ وهل يمكن أن يأتي من العدم؟ وهل يمكن أن يوجد بلا مُوجد، ولا عقل، ولا قصد؟

هذه الأسئلة ليست مجرد رفاهية فكرية، بل هي من أصول الأسئلة التي واجهها الإنسان منذ أن بدأ يتأمل في نفسه وفي العالم من حوله.

ولهذا سنبدأ في الفصل الأول برحلة إلى بداية الكون، نتأمل فيها الدليل العقلي والعلمي على أن للكون بداية، ونرى ما يقود إليه ذلك من سؤال عن مَن أوجده وأخرجه من العدم إلى الوجود.

لكن الرحلة لا تقف عند سؤال البداية؛ فإذا تجاوزنا هذا السؤال، وجدنا أمرًا آخر لا يقل عجبًا: أن هذا الكون الذي له بداية لم يأتِ في صورة عشوائية مبعثرة، بل جاء في نظام محكم، تحكمه قوانين دقيقة، ويمكن للعقل البشري أن يفهم شيئًا من هذه القوانين ويتعامل معها، حتى يبدو وكأن بين **العقل والكون** علاقة تشبه علاقة القفل بالمفتاح.

فكيف أصبح هذا الكون قابلًا للفهم بهذه الصورة؟ وهل يمكن أن يكون هذا التوافق العجيب بين قوانين الكون وقدرة العقل على إدراكها مجرد صدفة؟

وهذا ما سنعرضه في الفصل الثاني.

ثم نتأمل الكون من زاوية أخرى، فنجد أنه لم يُخلق ليكون مفهومًا للعقل فقط، بل جُهّز أيضًا بما يناسب حياة الكائنات التي تعيش فيه؛ حرارة محسوبة، وقوانين ثابتة، ومسافات مناسبة، وموارد مهيأة، وزوجية مدهشة بين احتياجات الجسد وما يحيط به من طعام وشراب ونور وهواء.

والأعجب أن هذه الأمور لا تعمل منفصلة عن بعضها، بل تتكامل في منظومة واحدة تحفظ الحياة وتيسّر استمرارها.

وهذا ما سنقف معه في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

ثم نواصل التأمل، فنجد جانبًا آخر لا يتعلق ببقاء الجسد وحده، بل بما يملأ النفس بالراحة والبهجة؛ ألوان تبهج العين، وأصوات تطرب الأذن، ومشاهد تحرك الوجدان، وجمال ينتشر في السماء والأرض وفي تفاصيل الحياة من حولنا.

فمن أين جاء هذا الجمال؟ وكيف أصبح الإنسان قادرًا على إدراكه والتلذذ به؟

وهذا ما سنناقشه في الفصل الثالث.

وهكذا، فإن هذا الباب ليس مجرد تأملات في اتساع الكون وجماله، بل هو رحلة ننظر فيها إلى **بداية الكون، ونظامه، وقابليته للفهم، وما أُودع فيه من أسباب الحياة والجمال**؛ لنتأمل في هذه الآيات المتنوعة، ونرى كيف تقودنا إلى خالق عليم حكيم، أوجد هذا الكون، وأقامه على هذا النظام الدقيق، وجعل فيه من الآيات ما يدعو العقل والقلب إلى معرفته وشكره وعبادته.

***

الفصل الأول
بداية الكون: الدليل العقلي والعلمي على الخلق "حين بدأ كل شيء"

ليس الحديث عن بداية الكون ترفًا فكريًا ولا سؤالًا فلسفيًا هامشيًا، بل هو أصلُ الأسئلة كلِّها؛ فمنه يتحدّد فهمنا للوجود والمعنى والغاية.

فقبل أن نسأل: كيف يعمل الكون؟ أو لماذا نحن هنا؟ يظل السؤال الأسبق هو:

من أين جاء هذا الكون؟ هل هو أزليّ بلا بداية؟ أم خرج إلى حيّز الوجود في لحظة معيّنة بعد أن لم يكن؟

لقد شغل هذا السؤال عقل الإنسان عبر العصور، وتناوله العلم الحديث بجدّية كبيرة، حتى أصبح البحث في بداية الكون من أهم موضوعات الفيزياء الكونية المعاصرة.

واللافت أن العقل الصريح والعلم الحديث —كلٌّ من زاويته— يلتقيان عند حقيقة واحدة سنسعى لإثباتها بهدوء وتجرد: **أن للكون بداية محددة، وأن له عمرًا معلومًا.**

وقبل عرض الأدلة العقلية والعلمية على ذلك، لا بد أولًا من توضيح ما نعنيه حين نقول: إن للكون بداية.

أولًا: معنى أن يكون للكون بداية

عندما نقول إن للكون بداية، فنحن نعني أن الكون **لم يكن موجودًا منذ الأزل، بل وُجد بعد أن لم يكن موجودًا**؛ أي أن وجوده ليس أبديًّا، وإنما له نقطة بدء.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أن المقصود بالكون ليس المادة وحدها، بل **كل ما نعرفه من هذا الوجود المادي** :الزمان، والمكان، والمادة، والطاقة، وما يرتبط بها من القوانين التي تصف سلوك الكون. ولذلك، فعندما نتحدث عن بداية الكون، فإننا لا نتحدث عن بداية شيءٍ واحد داخل الكون، وإنما عن **بداية الكون نفسه بكل ما يتكوّن منه.**

وبعبارة أبسط: لم يكن هناك كونٌ قديم موجود منذ الأزل ثم طرأت عليه بداية، بل إن **الكون نفسه له بداية** .وكما أن لكل إنسان لحظة بدأ فيها وجوده بعد أن لم يكن موجودًا، فإن للكون كذلك بداية لوجوده، وإن كانت بداية الكون أعظم وأبعد من أن تُقارن ببداية أي شيء داخله.

ويقدِّر العلم الحديث عمر الكون بنحو **١٣,٨مليار سنة،** وهو ما ينسجم مع الصورة العلمية للكون باعتباره كونًا له تاريخ وبداية.

وإذا كان للكون بداية – وهذا ما سنثبته عقلًا وعلمًا – فإن العقل لا يملك إلا أن ينتهي إلى حقيقة واحدة :أن لهذا الكون خالقًا أوجده من العدم.

فالشيء الذي لم يكن موجودًا لا يمكن أن يُوجِد نفسه، والعدم لا يصنع شيئًا؛ **لأنه لا يملك شيئًا ليصنع به.**

من المحال عقلًا أن يوجد شيء من لا شيء ، وهذا الحكم ليس حكمًا دينيًا خاصًا، ولا استنتاجًا فلسفيًا مجردًا، بل هو من أوضح البديهيات العقلية التي يستوي في إدراكها الفيلسوف والعامي، ويُسلِّم بها كل إنسان في حياته اليومية. فكما يستحيل أن يخرج كنز من العدم، أو أن تظهر سيارة فجأة بلا مصنع ولا صانع، كذلك يستحيل أن يخرج هذا الكون بكل ما فيه من نظام ودقة وقوانين من العدم المحض.

ولو قلنا إن الكون خرج من العدم بلا سبب، لكان ذلك إنكارًا لمبدأ السببية وللسبب الأول، **وهو ما يؤدي إلى هدم أسس المعرفة والعلم من أصلها**؛ لأن كل علم إنما يقوم على ربط المسببات بأسبابها، فإذا أُبطلت السببية، بطل الاستدلال، وسقط البرهان، ولم يعد هناك طريق إلى معرفة يقينية.

ولهذا عدَّ الفيلسوف **ابن رشد** إنكار الأسباب قولًا سفسطائيًا، فقال:

"أما إنكار وجود الأسباب الفاعلة التي تُشاهد في المحسوسات، فقولٌ سفسطائي، والمتكلم بذلك إما جاحدٌ بلسانه لما في جنانه، وإما منقادٌ لشبهةٍ سفسطائية عرضت له في ذلك". [٣٧]

ثم بيَّن أن العقل لا يقوم إلا على إدراك الأسباب، فقال:

"والعقل ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل وصناعة المنطق تضع وضعًا أن هاهنا أسبابا ومسببات، وأن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها؛ **فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورافع له، فإنه يلزم ألا يكون هاهنا شيء معلوم أصلا علما حقيقيًّا**، بل إن كان فمظنون ولا يكون هاهنا برهان ولا حد أصلا، وترتفع المحمولات الذاتية التي منها تأتلف البراهين، ومن يضع أنه ولا علم واحد ،ضروري يلزمه ألا يكون قوله هذا ضروريا ![٣٨]".

وقد لخّص القرآن هذا البرهان العقلي المحكم في آيات قليلة، جامعة مانعة، فقال تعالى:

﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ** أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ (الطور: ٣٥–٣٦)

فالمؤمن يرى الأمر بوضوح؛ فالكون بدأ، وكل ما له بداية لا بد أن يكون له مُبدِئ ، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (يونس: ٣٤)

غير أن هذا الفصل لن يعتمد على الإيمان وحده، بل سنسير بالعقل الصريح والعلم الحديث، خطوةً خطوة، لنثبت أن هذا الكون ليس أزليًا، بل له بداية محددة.

ونبدأ –بعون الله تعالى– بالأدلة العقلية.

الدليل العقلي الأول: استحالة عبور اللامتناهي

لو افترضنا أن الكون أزليّ بلا بداية، فهذا يعني أن الزمن ممتد إلى الماضي بلا حد، وأن عدد اللحظات والأحداث التي سبقت اللحظة الحالية لا نهاية له.

وبعبارة أوضح: قبل هذه اللحظة التي نعيشها الآن، مرّ عدد لا نهائي من اللحظات السابقة.

وهنا تظهر المشكلة :**كيف وصلنا إلى اللحظة الحالية إذا كان قبلها عدد لا نهائي من اللحظات؟**

---

[٣٧] تهافت التهافت ٥٠٥

[٣٨] تهافت التهافت ٥٠٧

فالوصول إلى «الآن» يعني أن كل اللحظات التي سبقته قد مرّت وانقضت واحدة بعد الأخرى. لكن إذا كانت هذه اللحظات لا بداية لها، فهذا يعني أننا أمام سلسلة لا نهائية من الأحداث التي يجب عبورها حتى نصل إلى الحاضر.

وهنا يأتي السؤال :**هل يمكن عبور ما لا نهاية له والوصول إلى نقطة محددة؟**

لفهم هذه الفكرة بصورة أوضح، **تخيّل المثال الآتي:**

تخيّل أنك واقف في الشارع، وفجأة ترى رجلًا يركض، أنفاسه متقطعة، ووجهه يتصبّب عرقًا، وهو يعدّ بصوت واضح:

«!٠ ... ١- ... ٢- ... ٣- ... ٤- ... ٥- ...»

فتسأله بدهشة: *"منذ متى وأنت تجري؟"* فيجيب بثبات غريب: "منذ الأزل... منذ زمن لا بداية له" ، عندها يفرض العقل سؤاله الحاسم: وكيف وصلت الآن؟ كيف قطعت عددًا لا نهائيًا من اللحظات حتى تبلغ النقطة ؟

إنه أمر مستحيل؛ فمن يبدأ من «اللانهاية السالبة» لن يصل أبدًا إلى اللحظة الحالية مهما حاول ، فاللانهائي لا *ينتهي*، ولا يمكن عبوره خطوة خطوة:

«!٠ ١- ٢- ٣- ٤- ٥- .....-∞»

وهنا ننتقل من المثال إلى واقع الكون نفسه: فإذا كان للكون ماضٍ لا بداية له، فإن السؤال نفسه يطرح نفسه: كيف وصلنا إلى اللحظة الحالية بعد مرور عدد لا نهائي من الأحداث؟

من المعلوم أننا لم نصل إلى شكل الكون الحالي إلا بعد أن مرّ بسلسلة من المراحل المتتابعة؛ فتشكلت المجرات، ثم النجوم، ثم مجموعتنا الشمسية، ثم الأرض، ثم ظهرت الحياة، حتى وصلنا إلى المرحلة التي نحن فيها اليوم.

لكن... كيف يمكن للكون أن يصل إلى اللحظة الحالية التي نحن فيها الآن إذا كانت قبلها سلسلة لا نهائية من المراحل؟ وكيف نصل إلى تكوين الشمس إذا كان يسبقها عدد لا نهائي من الأحداث التي يجب عبورها أولًا؟ وكيف تولد الأرض بعد ذلك إذا كان هناك عمر لانهائي قبلها يفصلنا عن هذه المرحلة؟

انظر إلى التسلسل المنطقي والبديهي لتاريخ الكون كما نعرفه:

- بداية الكون
- تشكل المجرات الأولى
- ولادة النجوم الثقيلة
- تشكل مجموعتنا الشمسية
- ظهور الأرض
- ظهور الكائنات الحيه
- ثم نحن الآن في عام ٢٠٢٦

هذا تسلسل زمني—ومكاني—واضح.

ولكي تظهر أي مرحلة من هذه المراحل، لا بد أولًا من اجتياز المراحل التي قبلها.

لكن لو كانت المراحل السابقة لا بداية لها... فلن نصل إلى اللحظة الحالية.

فكما يستحيل على الرجل الذي يبدأ من «ما قبل اللانهاية» أن يصل إلى الرقم (٠)، يستحيل على الكون أن يصل إلى اللحظة الحالية لو سبقتها سلسلة لا بداية لها من الأحداث.

(وسيأتي توضيح هذه النقطة أكثر في الدليل العقلي الثالث من منظور أخر).

صوره مقتبسه من كتاب الدكتور سامي حفظه الله (براهين وجود الله) لشرح الدليل

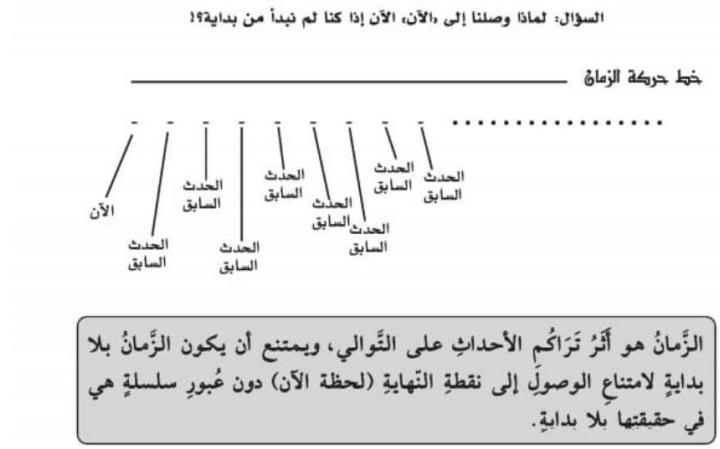

شهادة فيلسوف ملحد على قوة البرهان

وقف الفيلسوف الأمريكي الملحِد جون هوسبرز أمام هذا الدليل قائلًا:

"كيف وصلنا إلى اللحظة الحالية إذا كانت سلسلة لا نهائية من الأحداث قد سبقت اللحظة الحالية؟ كيف أمكننا الوصول إلى اللحظة الحالية — التي نحن فيها الآن بداهةً — إذا كانت قد سبقتها سلسلة لا نهائية من الأحداث؟" ثم لم يُجب... معترفًا ضمنيًا بأن الإشكال لا جواب له. [٣٩] انتهي

نقطة عقلية أخرى بالغة الدقة:

استحالة حدوث لحظات جديدة إذا كان الماضي بلا بداية (على فرض أزلية الكون).

القول بأن الماضي لا بداية له يعني — بالضرورة — استحالة الوصول إلى أي لحظة حاضرة، فضلًا عن إضافة لحظات جديدة أو وقوع أحداث مستقبلية.

لماذا؟ لأن اللانهاية لا يمكن قطعها ولا اجتيازها خطوة خطوة، وما لا يمكن اجتيازه لا يمكن أن نصل بعده إلى شيء.

الزيادة لا تكون إلا على شيء له بداية. ، أما ما لا بداية له، فلا يمكن أصلًا أن يُضاف عليه شيء جديد.

تخيّل سلسلة من الحلقات، كل حلقة لا تُضاف إلا بعد اكتمال ما قبلها.

لو كانت السلسلة لها أول حلقة — حتى لو كانت طويلة جدًا — فإضافة حلقة جديدة أمر ممكن دائمًا.

لكن لو افترضنا أن السلسلة بلا أول حلقة، ممتدة إلى الوراء بلا بداية، فهنا تظهر المشكلة: لن نستطيع إضافة أي حلقة جديدة؛ لأن إضافة حلقة تتطلب أن تكون كل الحلقات السابقة قد اكتملت، وما لا بداية له لا يكتمل أصلًا، وما لا يكتمل لا يمكن أن يُضاف إليه شيء.

فاللانهاية ليست رقمًا نصل إليه ثم نكمله، بل هي شيء لا يمكن الانتهاء منه أصلًا.

فكيف نصل إلى ''الآن'' إذا كان قبلها عدد لا نهائي من اللحظات؟ وكيف يأتي ''بعد'' إذا لم ينتهِ ''قبل''؟

---

[٣٩] John Hospers, An Introduction to Philosophical Analysis, (Routledge & Kegan Paul: London, ١٩٦٧), p.٤٣٤,

وبنفس المنطق تمامًا: لو كانت سلسلة أحداث الكون بلا أول لحظة، فكيف وصلنا إلى هذه اللحظة التي نعيشها الآن؟ كيف يولد إنسان اليوم؟ كيف يموت آخر؟ كيف يحدث اكتشاف جديد؟ كيف يتمدّد الكون لحظة بعد لحظة؟

كل حدث جديد نشهده هو دليل على أن ما قبله قد انتهى، وأن سلسلة الماضي ليست مفتوحة بلا حد.

بصورة أبسط: الزمن يُعاش لحظة بعد لحظة.

ولو كان قبل كل لحظة عدد لا نهائي من اللحظات، فلن نصل أبدًا إلى أي لحظة لاحقة،لكننا وصلنا. ونعيش. وتتجدد الأحداث، إذن: الماضي ليس لانهائيًا.

ولهذا قال الإمام ابن حزم رحمه الله هذه القاعدة المحكمة:

"ما لم يوجد إلا بعد ما لا نهاية له فلا سبيل إلى وجوده أبدًا؛ لأن وقوعه يدل على نهاية لما قبل، **وما لا نهاية له فلا بعد له**[٤٠]".

أي: مجرد وجود شيء الآن يعني أن ما قبله قد انتهى، وما لا نهاية له لا يمكن أن ينتهي، فلا يمكن أن يأتي بعده شيء.

فالخلاصة العقلية الواضحة:

وجود اللحظة الحاضرة نفسها، وتجدد الأحداث من حولنا، ووجود حاضر ومستقبل للكون، كل ذلك يشهد بالضرورة أن ماضي الكون محدود، أي أن له عمرًا محددًا، وبداية حقيقية خرج منها إلى الوجود.

وهنا يظهر السؤال الحتمي الذي لا مهرب منه: إذا كان للكون بداية، فمن المستحيل عقلًا أن يكون قد خرج من العدم المحض بلا سبب، فلا بد — بالضرورة العقلية— من مُبدِئ حكيم، أوجد الكون بتقدير، وأقامه على نظام دقيق، حتى وصلنا إلى هذه اللحظة التي نعيشها اليوم.

الدليل العقلي الثاني: القول بأزلية الكون ينتج عنه محالات لا يقبلها العقل

---

[٤٠] ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل

إن العقل حين يتأمل تاريخ الأحداث في الكون، يجد أن عددها يزداد كلما اقتربنا من اللحظة الحالية. وهذا وحده يكشف بوضوح أن للكون بداية محددة، وأن القول بأزليته يوقع صاحبه في تناقض لا يستطيع العقل السليم أن يتقبّله.

١- **.الفرق بين عدد الأحداث في الماضي القريب والبعيد**

لو نظرنا إلى عدد الأحداث في الكون: من لحظة بداية الكون حتى سنة ١٠٠٠ميلادية، ثم من لحظة البداية نفسها حتى سنة ٢٠٢٦ميلادية، فهل سيكون العدد واحدًا؟ قطعًا :لا.

فالفترة من سنة ١٠٠٠ إلى ٢٠٢٦ شهدت أحداثًا ضخمة ومتراكمة:

حروب واتساع إمبراطوريات واندثار أخرى، اختراعات واكتشافات غيّرت شكل العالم، ولادات ووفيات لا تُعد ولا تُحصى، توسّع مستمر للكون، حركة هائلة للمجرات والنجوم...

إذن: عدد أحداث الكون حتى ٢٠٢٦ أكبر بكثير من عددها حتى سنة ١٠٠٠، وهذا ما يثبته الواقع، والمنطق، والمشاهدة.

٢- **التناقض العقلي مع القول بأزلية الكون**

إذا قال قائل: "الكون أزلي، بلا بداية"، فهذا يعني أن عدد الأحداث في الماضي لانهائي.

وبالتالي يصبح: عدد أحداث الكون قبل سنة ١٠٠٠ = ∞ وأيضا عدد أحداث الكون قبل سنة ٢٠٢٦ = ∞ ، وبهذا يصبح الاثنان متساويين!

وهذا مستحيل، لأن الواقع يقول: **عدد الأحداث قبل ٢٠٢٦ أكبر بكثير من عددها قبل سنة ١٠٠٠.**

ازليه الكون تقتضي أن يكون الاثنان **"لا نهائيًا" أي متساويين...** بينما الفرق بينهما في الحقيقة أكثر من ألف سنة مليئة بمليارات الأحداث؟!

هذا تناقض صريح لا يمكن للعقل قبوله.

جوهر المحال العقلي : كيف يمكن أن يكون الماضي لانهائيًا، وفي الوقت نفسه نرى أن عدد الأحداث حتى ٢٠٢٦ >عدد الأحداث حتى ١٠٠٠؟!

لا يمكن الجمع بين "لانهاية ثابتة" وبين "زيادة متراكمة." وإذا ظهر التناقض... فالأصل الخطأ. والمحال العقلي هو :القول بأزلية الكون.

الدليل العقلي الثالث: استحالة أزلية الكون من منظور السببية

إذا تأملنا في العالم من حولنا، وجدنا أننا لا نعيش أمام أحداث منفصلة لا رابط بينها، بل أمام سلسلة مترابطة من الأسباب والنتائج؛ فالسبب يسبق نتيجته، والنتيجة لا تظهر من تلقاء نفسها، بل تترتب على ما سبقها من أسباب.

وهذا ما نعبّر عنه بقانون السببية، وهو من المبادئ التي يقوم عليها التفكير العقلي؛ فنحن في حياتنا اليومية لا نتعامل مع الأحداث على أنها تقع من غير سبب، بل نبحث دائمًا عن السبب الذي أدى إلى النتيجة التي نراها أمامنا.

فإذا رأينا بابًا مفتوحًا، سألنا: من فتحه؟ وإذا وجدنا بناءً قائمًا، علمنا أن وراءه من بناه. وإذا رأينا أثرًا، أدركنا أن وراءه مؤثرًا أحدثه.

وبعبارة أبسط :ما كان حادثًا بعد أن لم يكن، لا بد له من سبب يفسّر وجوده.

لكن هنا يظهر سؤال مهم:

إذا كانت كل حلقة في سلسلة الأسباب تحتاج إلى ما قبلها، فهل يمكن أن تمتد هذه السلسلة إلى الماضي بلا بداية؟

ولتقريب الفكرة إلى الذهن، تخيّل معنا هذا المشهد:

تخيّل جنديًا يقف الآن وينفّذ أمرًا، فيضغط على الزناد.

نسأل: لماذا ضغط الجندي؟

لأنه تلقّى أمرًا من قائده.

ولماذا أصدر القائد الأمر؟

لأنه تلقّاه من قائد أعلى منه.

ولماذا أصدر القائد الأعلى الأمر؟

لأنه تلقّاه هو أيضًا من قائد أعلى منه.

وهكذا تتسلسل الأوامر، كل أمر يعتمد على أمر سابق.

والآن تخيّل أننا قلنا: إن هذه السلسلة لا بداية لها، وإن كل قائد تلقّى الأمر من قائد أعلى منه، إلى ما لا نهاية.

هل يمكن للجندي أن يتلقى الأمر في هذه الحالة؟

لن يستطيع؛ لأن الأمر الذي وصله من قائده يعتمد على أمر سابق، وهذا الأمر يعتمد على أمر قبله، وهكذا دون أن نصل أبدًا إلى أمر أول بدأت منه السلسلة.

فكل قائد ينتظر الأمر ممن فوقه، ومن فوقه ينتظر ممن فوقه، وهكذا إلى ما لا نهاية.

وبالتالي لن يصل أي أمر إلى الجندي أصلًا؛ **لأن وصول الأمر إليه يتطلب أن تكون هناك نقطة بدأت منها سلسلة الأوامر**، ثم انتقلت من قائد إلى آخر حتى وصلت إليه.

لكننا إذا رأينا الجندي قد تلقى الأمر بالفعل، ثم نفّذه وأطلق الرصاصة، علمنا أن سلسلة الأوامر لم تكن بلا بداية، **بل لا بد أن تكون قد بدأت من مصدر أول صدر عنه الأمر**.

وهنا تتضح الفكرة :إذا كانت النتيجة موجودة أمامنا بالفعل، فلا يمكن أن تكون سلسلة الأسباب التي أدت إليها ممتدة إلى الماضي بلا بداية.

تطبيق ذلك على الكون

وعندما ننظر إلى الواقع من حولنا، نجد أمامنا نتائج كونية هائلة: نجومًا، وكواكب، ومجرات، وحياةً، وأنظمةً وقوانينَ دقيقة تحكم هذا كله. وكل ما نراه من أحداث ونتائج يرتبط بسلسلة من الأسباب التي سبقته.

مثال حيّ من واقع كوكب الأرض

خذ سلسلة الأحداث التي أدّت إلى وجود الحياة المعقّدة على الأرض:

- **الحدث** :(**A**) وجود الحياة الواعية والإنسان، وهذا يعتمد على:
- **الحدث** :(**B**) وجود عناصر كيميائية معقّدة، كالكربون والحديد، وهذا يعتمد على:
- **الحدث** :(**C**) تكوّن هذه العناصر في النجوم، ثم انتشارها بعد موتها وانفجار بعضها، وهذه بدورها تعتمد على أحداث كونية أسبق، حتى نصل في النهاية إلى نشأة الكون نفسه.

فكل حلقة في هذه السلسلة تعتمد على ما قبلها، ولا يمكن للحدث اللاحق أن يوجد إلا بعد تحقق ما سبقه.

والآن اسأل نفسك:

إذا افترضنا أن هذه السلسلة تمتد إلى الماضي بلا بداية، وأن وراء كل حدث حدثًا قبله، ووراء ذلك الحدث حدثًا آخر إلى ما لا نهاية، **فكيف وصلنا إلى النتيجة الموجودة أمامنا الآن؟!**

فإذا لم تكن هناك بداية لهذه السلسلة، فلن توجد نقطة انطلقت منها هذه الأحداث أصلًا، وستظل كل حلقة معلقة بحلقة قبلها إلى ما لا نهاية.

لكننا أمام **نتيجة موجودة بالفعل :الكون موجود، والأرض موجودة، والإنسان موجود.**

فكما أن وصول الأمر إلى الجندي في المثال السابق يستلزم بداية لسلسلة الأوامر، **فإن وصولنا إلى هذا الواقع الموجود أمامنا يستلزم بداية لسلسلة الأسباب التي أدت إليه.**

ومن هنا يتضح أن القول بأزلية الكون، لا يفسّر لنا كيف وصلنا إلى الواقع الموجود أمامنا.

فلا بد أن تكون لهذه السلسلة بداية حقيقية، وأن يكون للكون بداية، وأن ينتهي تسلسل الأسباب إلى **سبب أول أوجد الكون وبدأ منه وجود كل ما فيه.**

صوره توضح الدليل

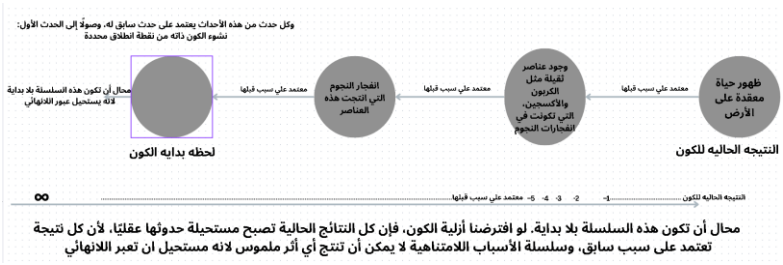

الخلاصة العقلية للدليل الثالث:

الكون قائمٌ على قانون السببيّة؛ فكلُّ نتيجة تحتاج إلى سبب يسبقها في الوجود.

والقول بأن سلسلة الأسباب أزلية بلا بداية يعني استحالة الوصول إلى أي نتيجة في الحاضر؛ لأن الواقع الموجود الآن لا يمكن أن يكون قد نتج عن سلسلةٍ من الأسباب لا أول لها.

فأنا وُجدت بعد أبي، وأبي وُجد بعد أبيه، وهكذا تتعاقب الأجيال جيلًا بعد جيل، حتى نصل إلى الإنسان الأول. والإنسان الأول وُجد من مادة الأرض، والأرض نفسها تكوّنت من عناصر جاءت من أجيال سابقة من النجوم، ثم تمتد سلسلة نشأة هذه العناصر إلى مراحل كونية أسبق منها.

ولو كانت هذه السلسلة ممتدةً إلى الماضي بلا بداية، **لكان وجودي متوقفًا على سلسلةٍ لا أول لها، ولكان الوصول إلى اللحظة التي وُجدتُ فيها متوقفًا على انقضاء ماضٍ لا نهاية له، وهذا محال.**

لكنني موجود بالفعل؛ فلا بد إذن أن تكون لهذه السلسلة بداية حقيقية. فقد مرَّ زمنٌ لم أكن فيه موجودًا، ثم أصبحت موجودًا. وهذا هو المعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]

وكذلك يقول الله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]

وهنا يبرز السؤال الذي لا يستطيع العقل أن يتجاهله: إذا لم نكن موجودين ثم وُجدنا، فمن أين جاء هذا الوجود؟ هل جئنا من العدم المحض؟ أم أن وراء وجودنا خالقًا كامل العلم والقدرة، أوجدنا وأوجد هذا الكون كله بإرادته وقدرته، وقال للشيء :**كن، فكان؟!**

ويمكن صياغة هذا الدليل بطريقةٍ أخرى، بأسلوب الفلاسفة، كأرسطو وابن سينا، على النحو الآتي:

إنّ الوجود كلَّه في حركةٍ دائبةٍ مستمرّة، وهذه حقيقة يشهد بها الحسّ والعلم معًا؛ فالكواكب تدور في أفلاكها، والمجرّات تتحرّك، والعناصر تتفاعل، والأجسام تتحوّل من حالٍ إلى حال. فالكون — بحسب المشاهدة والتجربة — لا يعرف السكون التام.

لكن هذه الحركة لا يمكن أن تُعلَّل بذاتها؛ إذ يستحيل عقلًا أن يحدث التغيّر من غير سببٍ مؤثّر. **فكل حركة تحتاج إلى محرّك أو قوةٍ تفسّر حدوثها.**

ولتقريب الفكرة: لو رأيتَ كتابًا ساكنًا على المكتب، ثم خرجتَ من الغرفة، وعندما عدتَ وجدته قد انتقل إلى الدرج، فإن عقلك يحكم — بالضرورة — بأن قوةً ما أثّرت فيه ونقلته؛ إذ لا يمكن أن يتحرّك الكتاب من تلقاء نفسه.

وهذا المعنى نراه في صور الحركة المختلفة من حولنا؛ فالتربة تتحرّك بفعل الرياح، والرياح ترتبط بفروق الضغط والحرارة، وهذه الطاقة لها مصادرها، والشمس نفسها تتحرّك ضمن مجرّتها، والمجرّة تتحرّك ضمن البنية الكونية الأوسع.

وهنا يظهر السؤال: إذا كانت كل حركة تحتاج إلى سبب، فمن أين بدأت الحركة الأولى؟

لا يمكن أن نقول إن الساكن هو الذي أحدث الحركة؛ لأن الساكن لا يكون هو نفسه متحرّكًا، وإن قيل إنه تحرّك، عاد السؤال نفسه: من الذي حرّكه؟

فنحن أمام سلسلة من الحركات والأسباب، كل حلقة فيها مرتبطة بما قبلها. لكن لا يمكن أن يمتد هذا التسلسل إلى ما لا بداية له؛ لأننا إذا جعلنا كل حركة متوقفة على حركةٍ قبلها إلى غير بداية، فلن نصل أبدًا إلى أصل الحركة.

فلا بد — ضرورةً عقلية — من محرّكٍ أول تنتهي إليه هذه السلسلة، لا يستمدّ حركته من غيره، ولا يحتاج إلى محرّك قبله، بل تبدأ منه سلسلة الأسباب والحركات.

وهذا ما سمّاه أرسطو »المحرّك غير المتحرّك«، وعبّر عنه ابن سينا بمفهوم »واجب الوجود « الذي لا يفتقر في وجوده إلى غيره. وأما عندنا فهو :الله رب العالمين.

فهو سبحانه الذي أوجد الكون، وأقام قوانينه، وسخّر نظامه، وبدأ سلسلة الأسباب التي لا يستقيم تفسير وجودها وانتظامها إلا بوجود خالقٍ أوجدها بحكمته وقدرته.

تنبيه واجب

نحن لا نصف ربَّنا جلّ وعلا إلا بما وصف به نفسَه في كتابه، وبما صحّ عن نبيّه ﷺ؛ فكيف لمخلوقٍ محدود، ناقص العلم، أن يخوض في وصف الإله المطلق؟

وقد تفضّل علينا سبحانه بالوحي، فعرّفنا بذاته وصفاته، وأخبرنا بما ينبغي أن نؤمن به عنه. فحسبُنا ما أخبر به ربُّنا عن نفسه، ففيه غاية الهداية، وليس لنا أن نتجاوز ما جاء به الوحي.

ملخّص المحالات العقلية الثلاث لإنكار بداية الكون

إن القول بأزلية الكون لا يؤدي إلى إشكالات بسيطة، بل إلى ثلاث محالات عقلية قاطعة، والعاقل لا يمكن أن يؤمن بمحال عقلي... لأن ذلك يعني التنازل عن العقل نفسه.

١- استحالة عبور اللانهائي

الزعم بأننا وصلنا إلى اللحظة الحاضرة بعد المرور بعدد لا نهائي من اللحظات زعمٌ مستحيل؛ لأن اللانهائي لا يمكن عبوره أصلًا.

ويدخل في هذا أيضًا :استحالة إضافة أي لحظة جديدة فوق سلسلة لا نهائية، لأن ما لا بداية له لا يقبل الزيادة.

فالوجود الحالي — بكل ما فيه من أحداث — شهادة واضحة أن الماضي ليس بلا بداية.

٢- مساواة مرحلتين مختلفتين تحت كلمة ‘‘اللانهائية”

إذا كان الماضي لانهائيًا بلا بداية، فسيكون عدد الأحداث قبل سنة ١٠٠٠ مساويًا لعدد الأحداث قبل سنة ٢٠٢٦... لأن ‘‘كلاهما لانهائي.”

لكن الواقع يكذّب هذا مباشرة؛ فالأحداث قبل ٢٠٢٦ أكثر بكثير من عدد الأحداث حتى سنة ١٠٠٠م. هذا التناقض يُثبت أن الماضي ليس لانهائيًا، لأنه لو كان كذلك لما أمكن المفاضلة بين أي مرحلتين في الزمن.

٣- إبطال السببية التي يقوم عليها العقل والعلم

كل نتيجة تحتاج سببًا.

ولو كانت سلسلة الأسباب أزلية بلا بداية، لاستحال ظهور أي نتيجة في الحاضر، لأن النتائج لا تظهر من سلسلة بلا نقطة انطلاق.

وإنكار البداية يعني عمليًا إنكار السببية نفسها... وإنكار السببية هو نسف لأساس العلم الذي يقوم كله على البحث عن الأسباب.

الاستنتاج النهائي

الإيمان ببداية الكون لزومٌ عقلي لا مفرّ منه.

وهنا تنتهي الأدلة العقلية، لكن العقل ليس هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الحقيقة؛ فالعلم الحديث بدوره جاء ليؤكدها، إذ توصل علماء الفيزياء إلى أن للكون بدايةً محددة.

والآن... لننتقل إلى الأدلة العلمية التي تكشف لنا هذه الحقيقة.

الدليل العلمي الأول: القانون الثاني للديناميكا الحرارية – الكون يموت ببطء

من أهم وأوضح القوانين في الفيزياء الحديثة :القانون الثاني للديناميكا الحرارية.

يطلق عليه العلماء أحيانًا :قانون الفناء البطيء، لأنه يصف بدقة ما يحدث لكل نظام مغلق مع مرور الزمن:

- العشوائية (الإنتروبيا) تزداد بمرور الوقت.
- الطاقة المنظَّمة تتبدّد تدريجيًا.
- الحرارة تنتقل دائمًا من الأجسام الساخنة إلى الأجسام الباردة، حتى تتساوى الحرارة وتصل كل الأشياء إلى حالة سكون حراري تام.

بمعنى أبسط: الكون يسير دومًا من حالة النظام إلى الفوضى، من الطاقة إلى الاستهلاك، من الحرارة إلى البرودة، من الحركة إلى التوقف.

أي :الكون يموت ببطء.

وفي النهاية، سيأتي يوم: تنطفئ فيه النجوم، تنهار فيه الشمس، تتجمّد الكواكب، وتنعدم الطاقة القابلة للاستخدام، فتنتهي الحياة تمامًا، وتدخل المادة والزمان في حالة "**الموت الحراري**."

علاقة القانون ببداية الكون

لو كان الكون أزليًا (بلا بداية، موجود منذ الأزل)، فهذا يعني أنه مرّ عليه زمن لا نهائي.

وحينها، كان يجب أن يكون الموت الحراري قد حدث بالفعل منذ عصور سحيقة: أي انتهت الطاقة القابلة للاستخدام ، تجمّدت الكواكب، وانطفأت النجوم.

لكن هذا لم يحدث: الشمس ما زالت تشع ضوءًا وحرارة، النجوم ما زالت تنير، هناك حياة، وهناك حركة، وهناك طاقة تنتقل.

إذن النتيجة المنطقية: الكون ليس أزليًا، بل له بداية محددة، انطلق منها استهلاك الطاقة قبل زمن محدود.

المثال الأول: كوب الشاي الساخن

تخيَّل أنك دخلت غرفة مغلقة فوجدت على الطاولة كوب شاي يغلي ويتصاعد منه البخار.

أول ما يتبادر إلى ذهنك فورًا: "من حضَّر هذا الشاي الآن أو منذ وقت قريب؟"

لأنك تعرف بالبداهة أن:

- الشاي لا يمكن أن يظل ساخنًا إلى الأبد.
- كلُّ كوب شاي بمرور الوقت يفقد حرارته تدريجيًا حتى تتساوى حرارته مع حرارة الغرفة، وعند تساوي حرارتي الوسطين — الشاي والغرفة — تصل المنظومة إلى حالة تُسمّى التموّت الحراري (الترموديناميكي)، حيث يتوقف انتقال الطاقة تمامًا..
- وكلما طال الزمن، زادت سرعة بروده حتى يصبح في النهاية "فاترًا" ثم "باردًا"(*التموّت الحراري*) تمامًا.

الآن، لو قال لك أحدهم: *"هذا الكوب موجود هنا منذ خمس ساعات وهو كما تراه ولم يبرد"!*

ستضحك وترد فورًا: *"مستحيل! كان قد برد فورًا! لا يمكن أن يظل ساخنًا طوال هذه المدة".*

ربط المثال بالكون (فالفيزياء لا تُفرّق في قوانينها بين كوب الشاي والشمس؛ فالقانون واحد، يعمل على الصغير كما يعمل على الكبير.)

الكون كله يشبه كوب الشاي هذا:

- الشمس مثل "الكتلة الساخنة" التي تشع ضوءًا وحرارة باستمرار.
- النجوم الأخرى مثل "أكواب شاي" عملاقة تستهلك وقودها النووي وتضيء.
- الكواكب والأقمار تمتص وتفقد حرارة.

وكل هذه الأجرام تسير وفق نفس القانون: الحرارة تتناقص مع مرور الزمن، والطاقة المفيدة تتبدّد تدريجيًا حتى تصل إلى حالة *التموّت الحراري*، وحينها يتوقف انتقال الطاقة، وتصبح هذه المرحلة نهاية العملية في العالم كما نعرفه..

فلو كان الكون موجودًا منذ الأزل (أي منذ زمن غير محدود): لكانت النجوم كلها قد استهلكت وقودها منذ زمن بعيد، ولانطفأت الشمس منذ عصور سحيقة ، ولكان الكون كله قد برد وتجمد، كما يفعل كوب الشاي بعد فترة طويلة.

لكن الواقع أمامنا الآن: الشمس لا تزال مشتعلة وتبث الدفء ، النجوم لا تزال تتلألأ في السماء، الحرارة والطاقة لا تزال متوفرة ضمن النظام..

إذن المنطق يقول: تحضير "كوننا" لم يكن منذ الأزل، بل في وقت محدد من الماضي، قريب نسبيًا على مقياس الزمن الكوني.

المثال الثاني: السيارة والوقود

الكون في حاجته إلى الطاقة أشبه بالسيارة في حاجتها إلى الوقود.

إذا رأيت سيارة تسير في الطريق، تعلم فورًا أن خزانها قد مُلئ بالبنزين منذ وقت محدد نسبيًا، لأنها طوال سيرها كانت تستهلك هذا الوقود.

ولو كانت السيارة تسير منذ زمن لا نهائي، لكان الوقود قد نفد منذ زمن بعيد وتوقفت السيارة.

وبالمثل: ما دام الكون لا يزال يتحرك، وما دامت طاقته لا تزال متوفرة للاستفادة، فهذا يعني أن تعبئته بالوقود (أي خلقه) كان في وقت محدد من الماضي، لا منذ الأزل.

القانون الثاني للديناميكا الحرارية ليس قاصرًا على جهازٍ بعينه أو تجربة محدودة، بل هو قانون شامل يحكم الكون بأسره بلا استثناء.

إنكار هذا القانون يعني الإيمان بأمور مستحيلة، مثل أن يظل كوب الشاي ساخنًا بلا سبب، أو أن تولد الفوضى نظامًا تلقائيًا، أو أن ذرات الشاي البارد ستسخن وتعود إلى حالة الحرارة الأصلية تلقائيًا.

وقد عبّر العلماء عن ذلك بوضوح فقال آرثر إدنجتون الفلكي والفيزيائي الشهير: "**إنه القانون الأول في كل العلوم، وأي نظرية علمية تتعارض معه لا تملك أي أمل في البقاء، ومصيرها الانهيار الحتمي**[٤١]".

شهادة العلماء

٥- يقول عالم الكونيات أندرو فلينكن:

»القانون الثاني للديناميكا الحرارية هو الدليل القاطع على بداية الكون ونهايته الحتمية«. انتهي

وهنا تظهر نقطة جوهرية جديدة: نهاية العالم التي يؤكدها علماء الفيزياء اليوم تمثّل دليلًا إضافيًا على أن للكون بداية؛ **فما لا بداية له لا يمكن أن تكون له نهاية،** وكونُ كونِنا متجهًا نحو نهاية محتومة يعني بالضرورة أن نهاية العالم دليلٌ قطعيّ على بدايته.

٦- ويقول الفيزيائي باري باركر موضحًا أثر القانون الثاني:

»يشير هذا القانون بوضوح إلى أن للكون — وللزمن نفسه — بداية. فلو كان الكون أو الزمن أزليَّيْن، لكان التبادل الحراري قد اكتمل منذ تلك العصور السحيقة، ولما بقيت شمسٌ ولا نجمٌ، بل لكان الكون كله قد برد حتى درجة الصقيع«.

ثم يضيف: »إن القانون لا يكتفي بأن يقرر أنّ الطاقة تتبدد، بل يثبت أن الكون يسير نحو نهاية محتومة: الموت الحراري«. انتهي [٤٢]

ويقول عالم الفيزياء النظرية بول ديفيس — في بيانٍ بالغ القوة:

»إذا كان للكون مخزونٌ محدود من النظام، وهو يتغير دون رجعة نحو الاضطراب ليبلغ في النهاية التوازن الترموديناميكي؛ فيلزم من ذلك أمران:

الأول: أنّ الكون سوف يموت في نهاية المطاف، وهذا ما يُعرف بالموت الحراري.

---

[٤١] Arthur Eddington, The Nature of the Physical World (New York: Macmillan, ١٩٢٨), p.٧٤,

[٤٢] باري باركر السَّفَرُ في الزَّمَانِ الكَوْنِي تعريب مصطفى محمود سليمان (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م)، ص ١٦٣ - ١٦٤

والثاني: أنّ الكون لا يمكن أن يكون موجودًا منذ الأزل؛ إذ لو كان كذلك لبلغ توازنه الترموديناميكي النهائي منذ زمن غير متناهٍ في الماضي. الخلاصة: الكون لم يوجد منذ الأزل«. انتهي [٤٣]

يقول إدوارد كيسل، رئيس قسم علم الأحياء في جامعة سان فرانسيسكو

"القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ الرأي القائل بأزلية الكون. فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة.

ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، ويحدث الموت الحراري، وينضب معين الطاقة. وفي هذه المرحلة، لن تكون هناك عمليات كيميائية أو طبيعية، ولن يبقى أثر للحياة نفسها في هذا الكون.

ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيميائية والطبيعية مستمرة، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا، وإلا لَفقد طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود.

وهكذا توصلت العلوم، دون قصد، إلى أن لهذا الكون بداية. وهذا يثبت وجود الله، لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه، ولا بد له من مبدع أو محرك أول، أو خالق، هو الإله". انتهي من كتاب الله يتجلي في عصر العلم .

الدليل العلمي الثاني: تمدد الكون

الكون ليس ثابتًا... بل يتوسع.

تخيّل بالونة تكبر أمامك تدريجيًا؛ أول سؤال سيخطر ببالك: من الذي بدأ ينفخها؟ ومتى بدأت تكبر؟

هذا بالضبط ما رصده العلماء عبر أقوى التلسكوبات الفضائية: الكون يتمدد لحظةً بلحظة، والمجرات تبتعد عن بعضها بسرعات مذهلة.

---

[٤٣] Paul Davies, God and the New Physics, p.١١.

وقد بدأ اكتشاف هذا التمدد من خلال رصد انزياح ضوء المجرّات نحو اللون الأحمر، ثم جاءت القياسات الفلكية الحديثة لتؤكد أن الكون يتمدّد، بل إن تمدده يتسارع في العصر الحالي. **وقد أسهم تلسكوب هابل وغيره من المراصد في قياس معدل هذا التمدد بدقة كبيرة،** كما قدّمت مهمة بلانك قياسات دقيقة لإشعاع الخلفية الكونية، ساعدت العلماء على رسم صورة لتاريخ الكون وتقدير عمره بنحو **١٣,٨مليار سنة.**

ما علاقة التمدد بوجود بداية؟

أولًا: إذا كان الكون أزليًا ويتمدد منذ الماضي بلا بداية، فهذا يعني أن التمدد نفسه مستمر منذ الأزل. لكن التمدد يعني تغيّر الحجم من حالة إلى حالة، أي إن هناك **قبلًا وبعدًا؛** والشيء الذي لا بداية له لا يمكن أن يطرأ عليه تغيّر من هذا النوع؛ لأن التغيّر يفترض انتقالًا من حالة سابقة إلى حالة لاحقة، وهذا يناقض فكرة اللابداية كما وضحنا سابقًا.

ثانيًا :إذا رجعنا مع هذا التمدد إلى الماضي، وجدنا أن الكون كان أصغر حجمًا وأعلى حرارةً وكثافة، وكلما رجعنا أكثر اقتربنا من بداية الكون.

إذن :**تمدد الكون، مع إمكانية تتبّع هذا التمدد إلى الماضي، يدل على أن للكون تاريخًا وبداية، وليس أزليًا.**

وقد أكدت الرصدات الكونية الحديثة تمدد الكون، وقدّرت عمره بنحو **١٣,٨مليار سنة.**

سبق القرآن لهذه الحقيقة

قبل أن يكتشف العلماء تمدد الكون بقرابة ١٤ قرنًا، قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)

وهي إشارة صريحة إلى توسع السماء، وهو نفس المبدأ العلمي الذي توصّل إليه البشر حديثًا، مُظهِرًا جانبًا من الإعجاز العلمي لكتاب الله.

الدليل الثالث: الليل العظيم

هل جرّبت يومًا أن ترفع رأسك إلى السماء في ليلةٍ هادئةٍ مظلمة، بعيدًا عن أضواء المدينة؟ ستجد السماء سوداء واسعة، تتناثر فيها نقاط من الضوء. لكن هذا المشهد البسيط يطرح سؤالًا مهمًا :**إذا كان الكون أزليًا، فلماذا السماء مظلمة؟**

الفكرة ببساطة: الضوء يسير بسرعة هائلة تبلغ نحو **٣٠٠ألف كيلومتر في الثانية؛** فيصل ضوء الشمس إلى الأرض في نحو ثماني دقائق، وضوء القمر في نحو ثانية وثلث تقريبًا.

ومع هذه السرعة الهائلة، فإذا كان الكون موجودًا منذ الأزل، وكان مليئًا بمليارات النجوم التي تبعث الضوء في جميع الاتجاهات، لكان لدينا زمن لا نهائي لوصول هذا الضوء إلينا.

وبالتالي، كان ينبغي — لو كان للكون ماضٍ لا بداية له — أن يكون ضوء النجوم قد وصل إلينا من جميع الجهات، وأن تكون السماء مضيئة بدلًا من أن نراها مظلمة.

لكن الواقع أننا نرى السماء مظلمة، وهذا يدل على أن الضوء لم يكن لديه زمن لا نهائي ليصل إلينا؛ أي إن للكون عمرًا محدودًا.

وهذا يتفق مع ما أثبته علم الكونيات الحديث من أن للكون عمرًا محددًا يُقدَّر بنحو **١٣,٨ مليار سنة**، وأن الضوء القادم من الأجرام البعيدة يحتاج إلى زمن حتى يصل إلينا.

إذن :**ظلام السماء يتفق مع كونٍ محدود العمر، وليس كونًا أزليًا مضى عليه زمن لا نهائي.**

وقد لفت إلى هذا المعنى عدد من العلماء، ومنهم فيلسوف العلوم **مايكل أنثوني كوري**، حيث يقول: "من حُسْنِ حَظِّ المؤمِنِ باللهِ أَنَّ عِدَّةَ ملاحظاتٍ علمية مثيرة للاهتمام قد استطاعت . بالفعل – استبعاد أن يكون الكون لانهائي العُمْرِ والتمدّد المكاني. من جهةٍ سماء الليل أساسا مظلمة، ولكن هذا ليس الذي علينا أن نتوقعه إذا كان هناك عدد لانهائي من النجوم في السَّماء ».[٤٤] انتهي

ويعلّق الدكتور **سامي عامري** قائلًا: "غاية الكلام هي أنه يلزم من افتراض أنَّ الكون أَزَلِي بلا بداية أن تَصِلَة أضواء النُّجومِ منَ الأَزَلِ؛ فَتَمْلَأَ صفحة السَّماء حتى تَغْمُرَهَا بِالإضاءَةِ؛ فَتَلْتَهِب الأرض من تحت أقدامنا، وهذا على خلافِ لَيْلِنَا المظلم قليل الأنوار؛ وسبب ذلك أن النجوم قد وُلِدَتْ منذُ زمن قصيرٍ نِسْبَيًّا، فَوَصَلَنا نَورُ بعضها، ولم يصلنا نور البقية. ففي كون لانهائي العُمْرِ والسَّعَةِ، لا يمكن أن تكون سماء ليلها كسماء ليلنا".« انتهي كتاب براهين وجود الله .

فسبحان من جعل الليل بظلمته آيةً تنطق بالحقيقة: أن هذا الكون له بداية محددة، وأن وراءه خالقًا عظيمًا أوجده، ونظامًا محكمًا أقامه بحكمةٍ وقدرةٍ وإتقان.

ومع أن هناك نظريات علمية أخرى أثبت بها العلماء أن للكون بداية— مثل نظرية الانفجار العظيم، ومعادلات النسبية العامة لأينشتاين التي قادت إلى حتمية بداية الزمان والمكان— إلا أن

---

[٤٤] Michael Anthony Corey, God and the New Cosmology: The Anthropic Design Argument (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, ١٩٩٣), p.٣٥.

ما سبق ذكره هنا، ولله الحمد والمنة، كافٍ وشافٍ من الناحية العقلية والعلمية، ولا داعي لذكر تلك التفاصيل الإضافية حتى لا يطول المسار دون حاجة.

لكن نختم فنقول: لقد صار من المسلَّمات عند العلماء اليوم أن كل ما في هذا الكون—— من نجومٍ ومجراتٍ وكواكب —— له بداية ونهاية، وقد رُصدت بالفعل بالتلسكوبات مراحل نشأة النجوم وتطورها وانفجاراتها ، **والكون في حقيقته ليس شيئًا منفصلًا عن هذه المكوّنات، بل هو مجموع هذه الأجزاء التي تتغير وتتحول.**

فإذا ثبت أن أجزاء الكون نفسها لها بداية زمنية، فلا يمكن أن يكون مجموعها —— أي الكون —— أزليًا بلا بداية.

ولتقريب الصورة: لو نظرنا إلى جدارٍ أمامنا، لوجدناه مكوّنًا من طوبٍ وأسمنت، وليس شيئًا آخر مستقلًا عنهما. فإذا كان كلٌّ من الطوب والأسمنت حادثًا وله بداية، فكيف يكون الجدار —— وهو ليس إلا مجموع هذه المكوّنات —— أزليًا بلا بداية؟

وهكذا الكون تمامًا؛ ما دام مكوّنًا من أشياء حادثة ومتغيرة، كالنجوم والمجرات والكواكب، فلا يمكن أن يكون أزليًا بلا بداية، بل لا بد أن تكون له بداية، وأن يكون وراء وجوده مُوجِدٌ أوجده.

ونختم بإجماع العلماء :

تنويه :الفقرة الآتية مقتبسة –مع تصرفٍ يسير في الصياغة والترتيب– من كتاب »شموع النهار «للدكتور عبد الله العجيري، حفظه الله.

حاليا، يتفق علماء الكونيات والفيزياء الفلكية على حقيقة أساسية: **أن الكون له بداية حقيقية.**

يقول الفيزيائي الشهير ستيفن هوكنج:

»يكاد الجميع اليوم يعتقد أن الكون، بل والزمن نفسه، له بداية مع الانفجار العظيم[٤٥]«.

ويقول عالم الكونيات اللاأدري ألكسندر فلينكين:

»جميع الأدلة التي لدينا تشير إلى أن للكون بداية[٤٦] «.

---

[٤٥] من المحاضرة المشتركة بين ستيفن هوكنج وروجر بنروز بعنوان : *The Nature of Space and Time* وهي متوافرة بنصها المفرغ .

[٤٦] Answering Atheism , p ١٣٢

ولذلك، لم تعد قضية حدوث الكون أو أزليته محلَّ الجدل العلمي الذي كانت عليه في الماضي؛ إذ أصبح هناك توافق واسع بين علماء الكونيات على أن للكون بداية. انتهي

خلاصة الأدلة العقلية والعلمية :

بعد عرض الأدلة العقلية والعلمية، ثبت أن الكون ليس أزليًا، بل له بداية محددة في الماضي. وما له بداية لا بد له من مُبدِئ، إذ يستحيل عقلًا أن يخرج الوجود من العدم.

وبما أن الكون وُجد بعد أن لم يكن، فلا بد من سبب خارج عنه أوجده، غير خاضع للزمان والمكان، لأن الزمان والمكان نفسيهما من مخلوقاته، عليم بالقوانين التي تضبط هذا الكون، حكيم في تصميمه وتنظيمه.

وبذلك لا يبقى أمام العقل إلا هذا الاستنتاج الضروري:

أن للكون خالقًا أوجده بعد أن لم يكن موجودا، وهو ما عبّر عنه القرآن بأبلغ بيان: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وأخيرًا، بعد أن ثبت بالعقل الصريح والعلم الحديث أن للكون بداية، وأن كل ما له بداية لا بد له من خالق، يبرز سؤالٌ يتردّد كثيرًا» :**ومن خلق الخالق؟**«

وهذا السؤال في جوهره باطل منطقيًا؛ لأنه يفترض أن الخالق مخلوق، مع أن معنى «الخالق» أنه غير مخلوق. فإذا قلت: «من خلق الخالق؟» فقد جعلت الخالق مخلوقًا، وجمعت بين نقيضين في كيانٍ واحد :**خالقٌ ومخلوقٌ في الوقت نفسه.**

وهذا يشبه أن تقول: «أريني دائرةً مربعة» أو «أعطني مثلثًا بأربعة أضلاع»؛ فكلاهما طلبٌ يجمع بين وصفين يستحيل اجتماعهما.

ولتقريب الفكرة: إذا وجدت خبزًا، فمن الطبيعي أن تستدل على وجود خبّاز صنعه، لكن لا يصح أن تقول: «ومن خبز الخبّاز؟!»؛ لأنك بذلك غيّرت موضوع السؤال، فالخبّاز هو الذي يصنع الخبز، وليس خبزًا يحتاج إلى خبّاز.

وهكذا تمامًا، عندما نقول» :**الخالق** «فنحن نتحدث عن الموجود الذي أوجد غيره، وليس عن مخلوقٍ يحتاج إلى من يخلقه.

إذن فالسؤال» :**من خلق الله؟** «ليس سؤالًا يحتاج إلى إجابة، بل هو سؤالٌ خاطئ من أساسه؛ لأنه يحوّل الخالق إلى مخلوق، ثم يسأل عمّن خلقه، فيناقض معنى الخالق نفسه.

وليس الأمر مجرد تناقضٍ في تعريف الخالق، بل إن افتراض أن كل خالق يحتاج إلى خالق قبله يؤدي إلى تسلسلٍ لا نهائي من الفاعلين، وهذا مستحيل عقلًا.

فلا يصح أن نقول: كل خالق له خالق، وهذا الخالق له خالق، وهكذا إلى ما لا نهاية.

ولتوضيح ذلك، يمكننا العودة إلى مثال الجندي الذي ذكرناه: تخيّل جنديًا في ساحة القتال ينتظر أمرًا من قائده ليطلق النار، لكن القائد نفسه ينتظر أمرًا من قائده، والقائد الأعلى ينتظر من فوقه، وهكذا بلا بداية.

هل سيُطلق الجندي النار؟ مستحيل؛ لأن كل واحد منهم ينتظر من قبله، ومادامت السلسلة لا بداية لها، فلن يصل الأمر إلى الجندي، ولن يحدث الفعل أصلًا.

لكن لو أطلق الجندي النار بالفعل، فهذا دليل على أن سلسلة الأوامر لا يمكن أن تكون بلا بداية، وأن هناك من بدأ الأمر دون أن ينتظر أمرًا من أحد.

وبنفس المنطق، لو قلنا إن الله له خالق، وخالقه له خالق، وهكذا بلا بداية، لما وُجد الكون أصلًا؛ لأن وجوده سيتوقف على سلسلة لا أول لها من الفاعلين.

لكن الكون موجود، وقد بدأ؛ إذن لا بد من وجود **فاعلٍ أول، خالقٍ لا ينتظر أمرًا من أحد، ولا يحتاج إلى من يخلقه، بل هو الذي بدأ كل شيء من العدم بإرادته.**

تأمل هذه الصورة جيدًا، فهي توضح لك الكثير وستكشف استحالة التسلسل السببي اللانهائي.

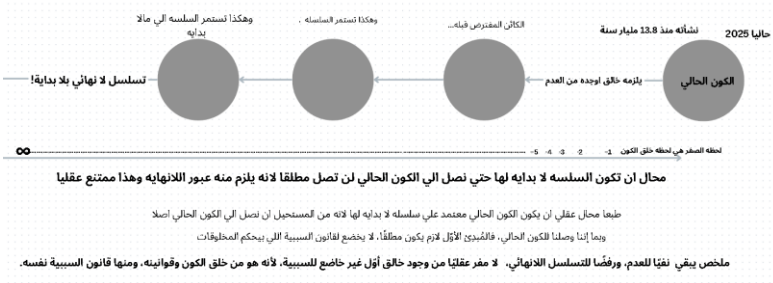

هل قانون السببية ينطبق على الله؟

قانون السببية الذي نعرفه ينص على أن: "كل حادث له سبب " ، والحادث هو ما له بداية وما لم يكن ثم كان.

أما الله سبحانه وتعالى فليس حادثًا، بل هو الأزلي الذي لم يسبقه عدم، وهو الذي أوجد الزمن والمكان وقوانين الكون، بما فيها قانون السببية نفسه؛ لذلك لا يجوز عقلاً أن نُخضع الخالق لقانونٍ هو الذي وضع أساسه.

فالسببية هي قانون داخل الكون الحادث، وكل قانون داخل الكون لا يمكن سحبه على من هو خارج الكون.

توضيح بالمثال[٤٧]: تخيل أنك صنعت دمى تتحرك بواسطة نابض داخلي (زمبلك).

هل يعني هذا أن صانع الدمى (أنت) أيضًا تتحرك بنابض (زمبلك)؟ بالطبع لا.

ولو قالت الدمية: "**الذي صنعني بالنابض... هل هو أيضًا مصنوع من نابض مثلنا؟**"

فهذا سؤال باطل، لأنها تطبّق قانونًا داخل اللعبة على مَن هو خارج اللعبة.

وهكذا تمامًا السؤال» :من خلق الله؟ «فهو يفترض أن الله حادثٌ له بداية، بينما تعريف الله الخالق أنه الأزلي الذي لا بداية له.

وكما لا يصح أن تسأل عن صانع الدمى بقانونٍ يخص الدمى، لا يصح أن تسأل عن خالق الكون بقانونٍ يختص بالمخلوقات والحوادث.

ومثل ذلك: إذا وجدتَ طبخةً، فعرفتَ أن وراءها طباخًا، فلا يصح أن تسأل» :**ومن طبخ الطباخ؟**«؛ لأنك بذلك طبّقت حكمًا يخص الطعام على من صنعه.

وهكذا فالسؤال «من خلق الله؟» ليس مجرد سؤالٍ بلا إجابة، بل هو سؤالٌ خاطئ من أساسه؛ لأنه يطبّق حكمًا على من لا يدخل تحت هذا الحكم.

والآن، بعد ثبوت أن الكون محدود، أي له بداية، وأنه محتاج بالضرورة إلى مُطلقٍ أزليٍّ لا بداية له، ننتقل إلى قاعدة أخرى، وهي أن المحدود لا يمكنه — بحكم طبيعته — أن يُدرك حقيقة المطلق أو يحيط به إحاطةً تامة.

وهذه ليست دعوى إيمانية مجردة، بل هي حقيقة عقلية يمكن تقريبها بالمثال الرياضي: فالشيء المحدود لا يمكنه أن يحتوي ما لا نهاية له أو يحيط به إحاطةً كاملة.

ويُعبَّر عن ذلك في الرياضيات بعلاقة الاحتواء بين المجموعات، فالمجموعة المحدودة لا يمكن أن تحتوي مجموعةً غير منتهية بأكملها:

---

[٤٧] هذا المثال نقلا عن الدكتور مصطفي محمود رحمه الله

مجموعة محدودة ⊂ مجموعة غير منتهية

وقد كانت تُقرَّب هذه الفكرة برسم دائرة صغيرة داخل دائرة أكبر، وبديهيٌّ أن الدائرة الصغيرة لا يمكن أن تحيط بالدائرة الكبرى إحاطةً كاملة.

وكذلك العقل البشري — مهما بلغ من العلم والإدراك — فهو عقلٌ محدود، ومن ثم لا يمكنه أن يحيط بذات الله سبحانه وتعالى أو يدرك كنهه إدراكًا تامًا.

ومن هنا يتجلّى الانسجام بين العقل الصريح والوحي الصحيح، في قول الله تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

فعدم إدراك المحدود للمطلق ليس نقصًا في العقل، بل هو ضرورة عقلية تفرضها طبيعة المحدود نفسه.

ومن هنا كانت مهمة الرسل الأولى هي تعريف الناس بالله عزّ وجلّ؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يعرف ربَّه حق المعرفة إلا بما عرّفه الله به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته، على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله.

ومن هنا تتجلّى عظمة القرآن؛ فلم يأتِ فقط بالتشريع والهداية، بل جاء بتعريف الإنسان بربه؛ تعريفًا يليق بجلاله، ويُظهر كمال أسمائه وصفاته، ويضع العقل في موضعه الصحيح: فيتدبّر في المخلوقات ليصل إلى الخالق، ولا يُفرغ طاقته فيما لا يقدر على الإحاطة به، فيُهلك نفسه ويضلّ عن سواء السبيل.

وانظر إلى الأعرابي — بفطرته السليمة وعقله الصافي— كيف عبّر عن هذه الحقيقة بأوضح بيان، حين سُئل :بمَ عرفت ربّك؟ فقال: البَعرةُ تدلّ على البعير، وأثرُ القدم يدلّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، أفلا تدلّ على اللطيف الخبير؟!

ومن العجائب أنك تجد بعض الملاحدة إذا قلت له :**العدم لا يستطيع أن يخلق الكون**، وافقك فورًا، وأقرّ بأن العدم لا يمكن أن ينتج شيئًا، لكنه عندما يقترب الأمر من الإيمان بالخالق، ينتقل إلى القول بأزلية الطبيعة!

طبيعة مادية صمّاء، لا عقل لها، ولا وعي، ولا إرادة، ولا تخطيط، ومع ذلك يُتعامل معها وكأنها كيان أزلي قائم بذاته.

وهنا يظهر السؤال: كيف تُرفض أزلية خالقٍ عليمٍ حكيم، ثم تُقبل أزلية طبيعة عمياء لا تملك عقلًا ولا إرادة، ولا تفسّر أصل وجودها؟

لقد آمنتَ إذن بوجودٍ أزلي لا بداية له؛ أي إنك آمنت بما كنت تنكره علينا!!

ومع ذلك، كيف تكون الطبيعة أزلية، مع أنها لا تملك من صفات الكمال شيئًا؟ وكيف يصدر عنها ما هو أرقى منها، وهو الإنسان؟ فالإنسان — مع كونه كائنًا محدودًا — يسمع ويبصر ويعقل، وله إرادة ومشيئة، بينما الطبيعة التي يُقال بأزليتها لا تسمع ولا تبصر ولا تريد، بل هي نفسها مسخَّرة للإنسان، ينتفع بها ويستخدمها في تحقيق إرادته.

ولهذا جاءت حُجّة القرآن واضحة في إبطال عبادة ما لا يملك شيئًا من صفات الإله، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]

وقال إبراهيم عليه السلام في إنكار عبادة ما لا يملك السمع والبصر والنفع:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]

فما لا يملك هذه الصفات لا يصلح أن يكون إلهًا، ولا يمكن أن يكون أصلًا مطلقًا للوجود.

وعلى هذا الأساس نفسه، ساق القرآن محاجّة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لقومه، ليبيّن لهم بطلان عبادة ما يخضع للتغيّر والأفول.

قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا الشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤–٧٩]

فتأمل إبراهيم عليه السلام ما عظّمه قومه من أجرام السماء، فرأى الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، ورآها جميعًا خاضعةً للحركة والتغيّر؛ تظهر ثم تغيب، وتطلع ثم تأفل.

فأدرك أن ما يأفل ويتغيّر لا يمكن أن يكون الإله الحق؛ ولذلك قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

فالإله الحق لا يكون مخلوقًا يخضع للتغيّر والأفول، ولا يكون محكومًا بقوانين الكون، بل هو خالق الكون ومدبّر أمره.

ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من النظر في هذه المخلوقات إلى معرفة خالقها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾؛ أي وجّهت وجهي إلى الذي أوجد السماوات والأرض وفطرهما.

وهكذا كانت محاجّة إبراهيم عليه السلام انتقالًا من **النظر في المخلوق إلى الإقرار بالخالق، ومن مشاهدة الآثار إلى معرفة المؤثّر، ومن رفض المحدود المتغيّر إلى التوجّه نحو الخالق الأزلي الكامل.**

ومن هنا تتجلّى عظمة الأسماء والصفات في الإسلام؛ إذ يعرّفنا بإلهٍ كامل الصفات: **عليمٌ لا يخفى عليه شيء، قديرٌ لا يعجزه شيء، حيٌّ لا يلحقه فناء، مريدٌ يفعل ما يشاء بحكمة، حكيمٌ يضع كل شيء في موضعه،** وغيرها مما وصف به نفسه في كتابه، وثبت في سنة نبيه ﷺ.

فهذا هو الإله الذي يليق أن يكون ربًّا ومعبودًا: **كامل الصفات، منزّه عن كل نقص، لا يفتقر إلى غيره، وكل ما سواه مفتقر إليه.**

وخلاصة هذه الفقرة، نقولها بوضوح:

الكون لا يخرج عقلًا عن احتمالين: **إما أن يكون له بداية، وإما أن يكون أزليًا بلا بداية.**

وقد أثبتت الأدلة العقلية والعلمية أن الكون **محدود وله بداية، وليس أزليًا**؛ وكل ما له بداية **فقد وُجد بعد أن لم يكن موجودًا،** فلا بد إذن من **سببٍ أول أوجده،** وبهذا ينتهي العقل إلى ضرورة وجود **مُطلَقٍ واجب الوجود.**

لكن حتى لو خالفتَ العقل والعلم، وادّعيتَ أن الكون أو الطبيعة أزليةٌ مطلقة، فنقول لك:

أولًا: الطبيعة عاجزة عن أن تكون إلهًا.

يستحيل عقلًا أن تكون الطبيعة الصمّاء العمياء إلهًا؛ لأنك أنت — مع كونك مخلوقًا محدودًا — تسمع وتُبصر وتعقل وتُريد، فكيف يكون «إلهك» أقلَّ منك كمالًا؟

ويبقى الحكم العقلي القاطع: **يستحيل أن يكون المحدودُ أعلى من المُطلَق، ويستحيل أن يكون المُسخَّرُ أعظمَ من المُسخِّر له.**

وهنا تأمل المفارقة: **ما الفرق في هذا المعنى بين من يجعل الطبيعة إلهًا، ومن عبد حجرًا أو صنمًا؟**

فقد كان المشركون يعبدون أصنامًا من مادة صمّاء، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا؛ فهل تصبح الطبيعة إلهًا لمجرد أن تجعلها أوسع وأكبر من ذلك الصنم؟ فالطبيعة — مهما عظمت — تظل مادةً خاضعةً للقوانين، لا خالقًا للقوانين، ومُسخَّرةً لا آمرًا، ومحدودةً بخصائصها لا واجبة الوجود بذاتها.

بل إن المصطلح الشائع في الخطاب الغربي اليوم هو »**قهر الطبيعة**«؛ فالإنسان يتعامل مع الطبيعة على أنها شيءٌ يمكن فهم قوانينه، وتسخير موارده، والتغلب على عوائقه، لا على أنها إلهٌ أزلي.

فإذا كانت الطبيعة نفسها خاضعةً للقوانين، والإنسان يستطيع أن يفهمها ويسخّر بعض قواها لخدمته، فكيف تكون هي الإله الذي خلق الإنسان؟

ولهذا يقول الدكتور هيثم طلعت حفظه الله: "**الطبيعة أكبر وثن عُبد من دون الله!" انتهي**

ثانيًا: أنت تؤمن بموجودٍ أزلي، أي إنك قبلتَ أصل ما كنتَ تنكره علينا.

نحن نؤمن بخالقٍ أزلي لا بداية له، غنيٍّ عن كل ما سواه، قادرٍ عليمٍ حكيمٍ مريد، أوجد الكون عن علمٍ وقدرةٍ وإرادة، وخلق أسبابه، وأقام قوانينه، وأحكم نظامه.

أما أنت، فإذا قلتَ : »**الطبيعة أزلية، موجودة بلا بداية ولا سبب**« فقد آمنتَ أنت أيضًا بوجودٍ أزلي لا بداية له، **أي إنك قبلتَ أصل ما كنتَ تنكره علينا.**

لكنك جعلتَ هذا الأزلي **طبيعةً صمّاء عمياء، لا عقل لها ولا إرادة ولا قصد.**

فوقعتَ بذلك في مشكلتين واضحتين :**خالفتَ العقل والعلم حين جعلتَ الطبيعة أزلية رغم دلالة الكون على أن له بداية، ثم جعلتَ الأزلي الذي تزعم أنه أصل الوجود أقلَّ صفاتٍ وكمالًا من الإنسان المخلوق المحدود.**

وفي ختام الفصل

يقف العقل أمام ثلاثة احتمالات لا رابع لها:

١- أن يكون الكون قد خرج من العدم بلا سبب

وهذا **محال عقليًا**؛ لأن «العدم» لا طبيعة له، ولا قدرة، ولا وجود له أصلًا، فكيف يُنتج شيئًا؟

فالعدم لا يخلق، ولا يسبب، ولا يُنتج. والقول بأن الكون أوجده العدم هو إلغاء للعقل نفسه، وإسقاط لمبدأ السببية الذي يقوم عليه كل علم وكل معرفة بشرية.

٢- أن تكون هناك سلسلة لا نهائية من الأسباب

وهذا محال أيضًا؛ لأن تسلسل الأسباب بلا بداية يمنع الوصول إلى نتيجة موجودة بالفعل.

فلو كانت السلسلة لا أول لها، لما أمكن أن نصل إلى وجود شيء في الحاضر؛ لا الكون، ولا المادة، ولا الحركة، ولا الحياة، ولا أي حدث نشهده اليوم.

فالسلسلة التي لا أول لها لا تبدأ، وما لا يبدأ لا يُثمر.

٣- وجود خالق أزلي لا بداية له

وهو الخالق الذي بدأ كل شيء، وأوجد الوجود من العدم، وخلق الأسباب نفسها، وأطلق سلسلة الأسباب والنتائج التي أوصلتنا إلى ما نراه اليوم.

وهذا هو الخيار الذي يبقى بعد استبعاد المستحيلات؛ فيصبح الاعتراف بوجود **خالق أزلي لا بداية له ضرورة عقلية** لا يمكن الهروب منها؛ **فالعقل إذا أبعد كل المستحيلات، لم يبقَ إلا الحق.**

وهذا ما نسمّيه **بالضرورة العقلية** :أي الحكم الذي يفرضه العقل فرضًا، بعد استبعاد جميع الاحتمالات المستحيلة، بحيث لا يبقى للذهن السليم خيار آخر دون الوقوع في التناقض.

ولتوضيح معنى الضرورة العقلية: إذا قلنا إن **مجدي أكبر سنًا من أحمد، وأحمد أكبر سنًا من عمر**، فإن العقل يقطع — بالضرورة — بأن مجدي أكبر سنًا من عمر، حتى لو لم يُذكر ذلك صراحة. فهذا استنتاج يفرضه العقل بمجرد فهم المعطيات.

أما **المحال العقلي** فهو ما يستحيل وقوعه في ذاته؛ لأنه يناقض أصلًا من أصول العقل، كأن يكون الشيء موجودًا وغير موجود في الوقت نفسه. وفي قضيتنا، يدخل في ذلك القول بأن الكون خرج من العدم المحض، أو أن سلسلة الأسباب تمتد إلى الماضي بلا بداية، كما بيّنا.

وعليه، فإذا كان العدم لا يخلق شيئًا، وكان التسلسل اللانهائي للأسباب مستحيلًا، فلا يبقى أمام العقل إلا الإقرار **بوجود خالقٍ أزلي لا بداية له، غنيٍّ عن كل ما سواه، كامل القدرة والعلم والحكمة والإرادة**؛ أوجد الكون، وخلق أسبابه، وأقام قوانينه، وأحكم نظامه.

وهذا هو الاستنتاج العقلي الذي يوافق ما أخبرنا الله به عن نفسه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص].

فسبحان من دلّ العقل على وجوده، وشهدت الفطرة بربوبيته، وأقام الكون بآياته، وجاء الوحي ليعرّفنا به وبكماله.

***

الفصل الثاني: برهان التوافق العقلي الكوني

المبحث الأول : كونٌ مفهوم بدقة... وعقلٌ مُبرمج للفهم

الفكر الإلحادي... والمأزق العقلي

بعد أن أثبتنا في الفصل السابق، بالدليل العقلي والعلمي، أن الكون ليس أزليًا، وأنه بدأ من لحظة صفر لم يكن قبلها زمانٌ ولا مكانٌ ولا طاقةٌ ولا مادة، نتجاوز الآن هذه الفكرة لنقدّم برهانًا آخر، برهانًا يُدحض الإلحاد من جذوره.

وسنمنح الملحد – من باب التنازل الجدلي – كل ما يطلبه، ونتغافل مؤقتًا عن مسألة البداية والأزلية، ولننظر إلى الطبيعة كما هي الآن: بقوانينها، ومادتها، وطاقتها، وحركتها.

ونبدأ بالسؤال الذي لا مهرب منه عقليًا :**إذا كانت الطبيعة بلا خالق، ولا قصد، ولا تنظيم... فكيف ينبغي – منطقيًا – أن تتصرّف؟**

والجواب البديهي: أن تتحرك بلا قصد ولا توجيه، وأن تتفاعل عناصرها دون غاية تقصدها، ودون عقل يضع لها نظامًا أو يوجّهها نحو نتيجة محددة.

فإنكار الخالق يعني بالضرورة إنكار وجود عقلٍ يقف وراء هذا النظام، وقصدٍ يوجّه هذه الأشياء نحو غاية.

والمثير أن الملاحدة أنفسهم يقدّمون لنا هذه الإجابة؛ فالكون – وفق التصور المادي – لم يصدر عن إرادة أو حكمة، وإنما نشأ وتطور من خلال عمليات طبيعية عمياء، دون قصد أو غاية.

وقد عبّر ريتشارد دوكنز – أحد رموز الإلحاد المعاصر – عن هذه النظرة المادية للكون حين وصف حقيقة الوجود في رؤيته قائلًا:

»نحن أبناء الفوضى... في أساس الوجود، لا وجود لغير الفساد، وموج الفوضى الذي لا مثيل

له... لقد اندثرت الغاية من الوجود... هذه هي الكآبة التي يجب علينا قبولها ونحن ندخل بعمق وبشفقة في قلب الكون[٤٨] «.انتهي

ويقول الدكتور سامي عامري – حفظه الله – في وصف هذه الرؤية :

"فِطرة الإنسان من فِطرة الوجود، فكلٌّ يسير في فلك واحد، في طريق واحد. أما الإلحاد فهو التعبير عن **عشوائية الوجود وتشتّته الكريه**، الذي يُكدِّر صفوه الأول".انتهي

وبالعقل، كما وضّحنا سابقًا ، إذا أردنا أن نعرف كيف وُجد شيء معقّد ومنظّم، مثل الهاتف مثلًا، فإن السؤال البديهي أمامنا :**هناك من أوجده وصمّمه ورتّب أجزاءه، أم أن عناصر الطبيعة اجتمعت عشوائيًا حتى ظهر الهاتف بكل هذا التعقيد؟**

ومن يجد لنا تفسيرًا ثالثًا معقولًا غير ذلك، فليتفضل ويقدّم لنا تصوّره.

ولذلك... فنسأل :**كيف وُجدت الأرض بكل هذا التوازن والدقة؟**

أمامنا احتمالان في تفسير أصل هذا النظام:

١. **إما أن هناك خالقًا حكيمًا عليمًا**، صمّم قوانين الأرض، وضبط مسارها حول الشمس، وهيّأ غلافها الجوي، وحدّد نسب عناصرها بدقة متناهية.

٢–وإما أن المادة نفسها —من هيدروجين، وهيليوم، وأكسجين، وحديد، وكربون، وغيرها — قد تجمعت عبر سلسلة طويلة من العمليات الطبيعية، بدأت من النجوم وانفجاراتها، ثم تتابعت التفاعلات والتجمعات العشوائية عبر الزمن، حتى تكوّنت الأرض بهذا النظام والتوازن والدقة، بلا قصد ولا توجيه.

وهذا هو التصور الذي يقدمه الماديون في تفسيرهم الطبيعي لنشأة الكون والأرض.واللافت هنا أن العناصر نفسها التي يتكوّن منها الإنسان: الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والحديد، والسيليكون... هي ذاتها عناصر الأرض، وهي أصلًا عناصر صُنعت في النجوم.

وتذكّر ما قرّرناه في الباب الأول: أن الملحد يقول إن هذه العناصر المادية اتحدت عشوائيًا عبر الزمن لتكوين الإنسان الحي العاقل، وبناءً على هذا المنطق نفسه، فهو مُلزَم أن يقول هنا أيضًا:

٤٨٤٨ Richard Dawkins, Unweaving theRainbow: Science, Delusion and the Appetite for Wonder (New York: Houghton Mifflin, ٢٠١٠), pix.

إن هذه العناصر ذاتها اتحدت عشوائيًا لتكوّن منظومة كونية كاملة شديدة الانضباط والدقة.

والسؤال الحاسم إذن: **هل يوجد احتمال ثالث معقول لظهور الأرض خارج هذين الاحتمالين؟**

عقليًا، لا نملك تفسيرًا ثالثًا داخل هذا التصور المادي. ولهذا، إذا أراد الملحد أن يبقى ملتزمًا بإلحاده، فلا مفر أمامه إلا قبول هذه المعادلة:

مادة عمياء + عمليات عشوائية + زمن = كون منضبط ومفهوم وقابل للفهم.

لكن أي اعتراف بوجود قصد أو غاية أو عقل منظّم وراء هذا النظام، يعني أنه لم يعد يتحدث عن الطبيعة العمياء وحدها، بل أصبح بحاجة إلى تفسير يتجاوز المادة نفسها.

وسنرى في الصفحات القادمة أن هذه الدعوى بالعشوائية لا تستقيم، وأن هذا الكون — بنظامه المحكم، وثبات قوانينه، ومفهوميته الدقيقة، وانسجامه العجيب مع عقل الإنسان — يستحيل أن يكون مجرد نتاج صدفة عمياء، بل هو برهان ساطع على وجود خالق عليم حكيم، جمع بين دقة الكون وبرمجة العقل لفهمه.

الإعجاز في الكون المنظم والمفهوم

دعنا نبدأ من مثال بسيط: لو وجدت ساعة دقيقة، بتروس تتحرك بانسجام، هل ستقول إنها وُجدت صدفة؟ أم ستدرك ببساطة أن وراءها صانعًا يعرف ماذا يفعل؟

ولو رأيت حاسوبًا يعمل بكل هذا التعقيد والتنظيم، فلن يخطر ببالك أنه تكوّن عشوائيًا بلا مهندس.

"**تذكر كلما زاد التعقيد ...امتنعت العشوائية.**"

فكيف بكوكب الأرض؟

كوكب يدور في مدار محسوب، بكتلة محددة، وغلاف جوي مضبوط، ومسافة دقيقة عن الشمس...

لو اختل عامل واحد فقط، لاختفت الحياة تمامًا.

دعنا نرى بعض ملامح هذا النظام:

- الأرض تدور حول الشمس بسرعة محسوبة تنتج عنها الفصول.
- الفصول تتحكم في الزراعة.

- الزراعة تمد الإنسان بالغذاء.
- والغذاء يمنحه الحياة.

وكأنك تنظر إلى نظام برمجي هائل، كل خطوة فيه تعتمد على ما قبلها.

خذ مثالًا الشمس:

- ضوؤها ليس مجرد إضاءة، بل هو أساس عملية التمثيل الضوئي.
- التمثيل الضوئي ينتج الأكسجين.
- الأكسجين يصل إلى كل خلية في جسدك ليبقيك حيًا.

ومثالًا القمر:

- جاذبيته تضبط المد والجزر.
- المد والجزر ينظمان البيئة البحرية.
- البيئة البحرية تؤثر في توزيع حرارة الكوكب.
- الحرارة تتحكم في المناخ.
- والمناخ يرسم تفاصيل الحياة اليومية.

بل أعقد من ذلك: جسم الإنسان نفسه ، أعقد نظام في الوجود هو أنت.

كل خلية في جسمك تحمل شيفرة مكتوبة بأربعة أحرف فقط(**DNA**) ، ومع ذلك تحتوي على أوامر إدارة وتشغيل وبناء كل أعضائك: القلب ،الدماغ، الأعصاب، التنفس، المناعة**...** كلها تعمل بتناغم مذهل، وأي خلل صغير = انهيار كامل للنظام.

فإذا كان هذا كلّه في كوكب واحد... فكيف بالكون كله؟

الكون ليس مجرد فضاء واسع أو فراغ صامت، بل هو بناء كوني بالغ الدقة، تعمل مكوناته معًا بتناغم أشبه ما يكون بآلة هائلة مترابطة.

انظر إلى بعض ملامحه:

- مجرّات تضم مئات المليارات من النجوم، وكل مجرّة تتحرك في الفضاء بانسجام مذهل.
- نجوم تولد وتموت وفق قوانين فيزيائية دقيقة، وتوزّع العناصر التي تتكوّن منها الكواكب والحياة.
- كواكب بأحجام ومدارات مختلفة، لكل منها ظروف حرارية وجوية محددة.
- مسافات محسوبة بين الأجرام؛ فلو اقترب نجم من آخر أكثر مما ينبغي لانهار النظام كله.

- قوى فيزيائية ثابتة مثل الجاذبية والقوة النووية والقوة الكهرومغناطيسية... لو تغيّر مقدار أي منها بنسبة ضئيلة جدًا، لاستحال وجود الذرات أصلًا.
- قوانين كونية قابلة للفهم؛ من الجاذبية إلى الضوء إلى حركة الأجرام، وكلها مكتوبة بلغة رياضية دقيقة، وكأن الكون "يعرض نفسه" للفهم.
- نسب دقيقة حساسة للغاية، مثل كثافة المادة، ومعدل التوسع، وشحنة الإلكترون... أي انحراف بسيط فيها كان سيجعل الكون إما ينفجر بلا تشكيل، أو ينهار قبل أن يبدأ.

هذا ليس مجرد فضاء... هذا نظام كوني كامل يعمل كآلة دقيقة، كل طبقة فيه منسجمة مع الأخرى:

من حركة الإلكترون حول النواة... إلى حركة القمر حول الأرض... إلى دوران الأرض حول الشمس... إلى دوران الشمس حول مركز المجرّة... إلى حركة المجرّات نفسها.

والأعجب من ذلك: رغم ضخامته التي لا يتصورها عقل، إلا أن الكون يعمل وفق مجموعة قوانين ثابتة منسجمة من أصغر جسيم دون ذري إلى أكبر عنقود مجرّي.

لهذا نقول بثقة: الكون أعقد بما لا يُقاس من أي آلة صنعها الإنسان.

بل هو أشبه بـ آلة كونية متقنة، كل جزء فيها يؤدي وظيفة محددة ضمن منظومة كبرى محكمة بدقة مذهلة.

إذن... هل يمكن للعشوائية أن تصنع هذا؟

العشوائية لا تبني أنظمة، ولا تكتب قوانين، ولا تضبط نسبًا، ولا تنتج علاقات مترابطة، ولا تفهم "المعادلات" و"الحساب" و"الضبط" أصلًا.

والذي نراه أمامنا هو: "كون منظم، مفهوم، مترابط، دقيق، متكامل، حيّ، ويخدم غايات محددة".

خلاصة هذه الفكرة : الكون نظامٌ محكم ودقيق، كل شيء فيه يسير بميزان، وكل جزء يؤدي دوره بانسجام مع بقية الأجزاء، وأي خللٍ في هذا النظام قد يفسد توازنه. وهذا الإتقان ليس أثرًا لعشوائية عمياء، بل دليلٌ على خالقٍ حكيمٍ أتقن كل شيء.

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

(تنويه قبل الانتقال إلى مفهومية الكون: منهجي في هذا الاستدلال يبدأ تدريجيًا: بالساعة، ثم الحاسوب، ثم كوكب الأرض، ثم الكون كله. فكرة هذا المنهج: إذا كان من المستحيل أن تكون

الساعة أو الحاسوب بلا صانع، فمن أولى وأقوى أن نستنتج أن كوكبًا كاملًا – بأجوائه ومناخه ومياهه ونباتاته وحيواناته ونظامه البيئي المتكامل – لا يمكن أن يكون بلا خالق، هذه الطريقة، المعروفة **بالاستدلال بالأولى**، من أرسخ المبادئ العقلية وأكثرها ثباتًا، ويستخدمها العقلاء في كل مجالات الحياة. فاتباع هذا المنطق لا يعبر عن سخف تجاه الإلحاد، بل عن مبدأ عقلاني يظهر استحالة العشوائية في المخلوقات المعقدة؛ **فالمادة في الطبيعة تتصرف وفق خصائص وقوانين ثابته** ، ومن المستحيل أن تتجمع عشوائيًا لتكوين نظام معقد كالساعة، **فكيف لنفس مادة الطبيعة** أن تكون الإنسان والحيوان والنبات، والأرض بما فيها من أنظمه مترابطة، بل الكون بما يحويه من هذا التعقيد والنظام الهائل ؟ ونحن نعلم أن سلوكها واحد وقوانينها ثابتة !)

مفهومية الكون

ليس الكون منظمًا فحسب... بل هو أيضًا مفهوم.

وماذا يعني أن يكون الكون مفهومًا؟

يعني أن الإنسان لا يعيش داخل عالمٍ غامضٍ تتحرك أجزاؤه بلا قواعد، وإنما يستطيع أن يدرس ما حوله، ويكتشف القوانين التي تحكمه، ويضع لها معادلات دقيقة، ثم يستخدم هذه القوانين ليتنبأ بما سيحدث قبل وقوعه.

وهنا تظهر عظمة الأمر:

نحن لم نفهم الكون فحسب، بل أقمنا حضارة كاملة على أساس فهمنا له.

فالعلم الذي بين أيدينا، والطب، والهندسة، والطيران، والاتصالات، والحواسيب، والصواريخ، وكل ما وصلت إليه البشرية من تكنولوجيا... لم يكن ليظهر أصلًا لو كان الكون فوضى لا يمكن فهمها، أو لو كانت قوانينه تتغير بلا ثبات.

تخيّل تجربة بسيطة: ترفع جسمًا ثم تتركه... فيسقط. تعيد التجربة مرةً ثانية، وثالثة، وعاشرة... فتجد النتيجة نفسها في كل مرة. لماذا؟ لأن هناك قانونًا ثابتًا اسمه **الجاذبية**، يعمل باستمرار وبانتظام.

إذن، الكون يسير وفق **قوانين ثابتة ومنتظمة**، وهذا بالضبط هو الأساس الذي يقوم عليه العلم التجريبي أصلًا.

فلو لم تكن الطبيعة ثابتة ومنظمة وقابلة للفهم، فكيف كنا سنجري تجربة علمية ونكررها لنحصل على النتيجة نفسها؟ وكيف كنا سنتنبأ بظاهرة قبل وقوعها؟ وكيف كنا سنبني آلة ونتوقع

أنها ستعمل بالطريقة التي حسبناها؟ الجواب قطعًا :**ما كنا لنستطيع**؛ لأننا ببساطة لن نكون قادرين على فهم كيفية عمل الكون من الأساس.

أمثلة من حياتنا اليومية على "مفهومية الكون:"

حتى الأشياء التي نظنها بسيطة جدًا ـــ كالطهي، وغلي الماء، وتشغيل الفرن ـــ كلها تعتمد على ثبات القوانين:

أنت تعرف أن الماء سيغلي عند ١٠٠ درجة، وأن اللحم يحتاج وقتًا أطول من الخضار، وأن الحرارة تزيد الطهي لا تنقصه، هذه ليست معلومات عشوائية؛ هذه قوانين ثابتة داخل الطبيعة.

ولو لم تكن درجة الغليان ثابتة، ولا معدل انتقال الحرارة ثابتًا، ولا التفاعلات الكيميائية في الطعام ثابتة، فلن تستطيع أن تطهو نفس الطبخة مرتين بنفس الطعم، ولن تستطيع المقادير أن تعطي نفس النتيجة.

حياتنا اليومية كلها قائمة على "**قابلية الطبيعة للفهم**"، وهذا بحد ذاته دليل أن الطبيعة ليست فوضى، وإنما كتاب مفتوح بلغة دقيقة.

وللتوضيح أكثر معنى "الكون مفهوم:"

العلماء درسوا حركة الشمس والأرض، فهموا قوانين الجاذبية والدوران، فهموا العلاقة بين الزوايا والظل والضوء، وبناءً على ذلك، تمكنوا من تحديد اليوم الذي يحدث فيه كسوف الشمس.

وليس هذا فقط، بل حددوا الساعة التي يبدأ فيها الكسوف، والدقيقة التي تختفي فيها الشمس، وحتى الثانية التي تظهر فيها مرة أخرى.

قالوا: يوم كذا، الساعة كذا، الكسوف يستمر ٣ دقائق و١٤ ثانية، وفعلاً... حدث ذلك.

كيف؟ لأنهم فهموا نظام الكون، حسبوه، وتوقعوه بدقة.

هل يمكن أن يحدث ذلك في كون عشوائي؟ أو في كون غير ثابت؟ أو في قوانين غير مفهومة؟ بالتأكيد لا.

حسنًا، تأكدنا أن الكون مفهوم، وأننا فهمناه وأقمنا عليه حضارتنا، ولكن ماذا يعني أصلًا أن يكون الكون «مفهومًا»؟ ولماذا يمكن أن تكون هذه الحقيقة دليلًا قويًا على وجود خالق؟

لنفكر بعمق...

حين نقول إن شيئًا **مفهوم**، فنحن لا نعني مجرد أننا نستطيع رؤيته أو وصفه، وإنما نعني أن وراء ظواهره **نظامًا وعلاقات وقوانين ثابتة** يستطيع العقل أن يكتشفها، ويفهم العلاقة بينها، ثم يستخدم هذا الفهم للتنبؤ بما سيحدث.

فلو كانت الطبيعة مجرد أحداث متفرقة لا رابط بينها، تتغير بلا قاعدة، ولا تتكرر وفق نمط ثابت، فلن يكون هناك شيء اسمه «قانون طبيعي» أصلًا، ولن يستطيع الإنسان أن ينتقل من مجرد ملاحظة الظاهرة إلى فهمها والتنبؤ بنتائجها.

لكن ما نجده في الواقع مختلف تمامًا.

نحن لا نرى الشمس تشرق اليوم بطريقة، وغدًا بطريقة أخرى بلا قاعدة، ولا نرى الأشياء تسقط وفق قوانين مختلفة كل مرة، ولا نجد حركة الكواكب تتغير بلا سبب. بل نجد أن الظواهر تتكرر وفق أنماط ثابتة، وأن هذه الأنماط يمكن للعقل أن يكتشفها ويصوغها في قوانين ومعادلات رياضية، ثم يستخدمها للتنبؤ بما سيحدث قبل وقوعه.

وقد جدّد فيلسوف الرياضيات مارك شتاينر (Mark Steiner) الحديث السابق نفسه في كتابه *Mathematics as a Philosophical Problem*(١٩٩٨م)، ببيان أن الفيزيائيين نجحوا في الكشف عن قوانين علمية على أساسٍ واحد، وهو أن الكون بنيةٌ رياضيةٌ قابلةٌ للفهم والكشف؛ بل إن الرياضيات تجاوزت منح العلماء القدرة على فهم الطبيعة ووصفها، إلى القدرة على الكشف عن ظواهر فيزيائية جديدة .انتهي [٤٩].

وهنا تحديدًا تظهر «مفهومية الكون:»

الكون لا يقدم لنا مجرد ظواهر، بل يقدم لنا **نظامًا يمكن قراءته، وقوانين يمكن اكتشافها، وعلاقات يمكن فهمها، ونتائج يمكن التنبؤ بها.**

ولكي تتضح الفكرة أكثر، لنبدأ بمثال بسيط :**الكتاب العادي.**

الكتاب في النهاية ورق وحبر، والحبر نفسه مجموعة من الذرات والمواد والتفاعلات الكيميائية. لكن هذه الذرات اجتمعت وفق ترتيب معين، فكوّنت حروفًا، والحروف كوّنت كلمات، والكلمات كوّنت جملًا، والجمل حملت معنى ورسالة يفهمها القارئ.

فالذي أمامنا ليس مجرد **مادة**، بل مادة منظمة تحمل **معنى ورسالة.**

---

[٤٩] النقل عن كتاب براهين وجود الله ص ٣٦١

وعندما تقرأ كتابًا وتفهم ما فيه، لا تقول إن الحبر والورق ألّفا الكتاب من تلقاء نفسيهما، بل تدرك أن وراء هذا الترتيب عقلًا كتب هذه الرسالة وأراد أن يوصل هذا المعنى.

فإذا كان الكتاب الصغير يحتاج إلى كاتب، فماذا عن **الكتاب الأكبر على الإطلاق: الكون؟**

فالكون كذلك عبارة عن ذرات ومادة وطاقة، تكوّنت منها العناصر، والعناصر كوّنت المواد، والمواد تفاعلت وفق قوانين ثابتة، فظهر لنا هذا البناء الكوني الهائل.

لكن الأعجب أننا لا نكتفي برؤية هذا البناء، بل نستطيع **قراءة قوانينه وفهم نظامه**؛ ندرس ظواهره، ونكتشف العلاقات التي تحكمها، ونحوّلها إلى معادلات، ثم نستخدمها للتنبؤ بما سيحدث.

وقد عبّر بعض علماء الإسلام عن الكون بأنه »**كتاب الله المنظور**«؛ فالكون آيات منظورة، كما أن الوحي آيات مسطورة.

وهنا تظهر واحدة من أعجب الحقائق في هذا الكون:

أن الكون ليس منظمًا فحسب، بل إنه قابل للفهم.

أي أن بين الواقع الخارجي من جهة، والعقل البشري من جهة أخرى، قدرًا عجيبًا من التوافق؛ فالكون يحمل قوانين يمكن للعقل أن يكتشفها، والعقل يمتلك القدرة على قراءة هذه القوانين وفهمها والتنبؤ بآثارها.

وهذا هو معنى أن يكون الكون »**مفهومًا**:« ليس مجرد أن له نظامًا، بل أن هذا النظام **قابل لأن يُقرأ ويُفهم ويُحسب ويُتنبأ به.**

ولذلك كان كون الكون مفهومًا من أعظم الأمور التي حيّرت أينشتاين، فقال كلمته المشهورة: »**أعظم شيء غير مفهوم فيما يتعلق بالكون؛ هو أنه مفهوم**[٥٠]«!

وهنا ننتقل إلى نقطة أعمق: كيف لعقلنا البشري المحدود أن يفهم هذا الكون بهذه الدقة المدهشة؟ كيف استطاع عقلٌ محدود أن يقرأ قوانين الطبيعة، ويفهمها، ويحوّلها إلى معادلات رياضية، ثم يستخدمها للتنبؤ بما سيحدث في الكون قبل أن يحدث؟

---

٥٠ "Das Unverstacndliche am Universum ist im Grande, dass wir es verstehen". Albert Einstein Letters to Solovine, (New York: Philosophical library, ١٩٨٧), p.١٣١

ومن أين جاء هذا العقل القادر على الفهم؟ بل من أين جاء الوعي الإنساني نفسه؟ ذلك الوعي الذي لا يكتفي بمجرد التفاعل مع المادة من حوله، بل يستطيع أن يتأملها، ويفهمها، ويبحث عن قوانينها، ويكتشف أسرارها، ثم يبني على هذا الفهم علمًا وحضارةً كاملة.

وهنا تظهر أمامنا حقيقة أخرى لا تقل إثارة للدهشة :**ليس العقل موجودًا فحسب، بل إن الكون نفسه قابل للفهم، والعقل مهيأ لإدراك هذا الفهم** .هناك توافق عجيب بين عقلٍ يبحث عن القوانين، وكونٍ تحكمه قوانين يمكن للعقل اكتشافها والتعبير عنها.

كأن أمامنا قفلًا بالغ التعقيد اسمه «الكون»، ومفتاحًا قادرًا على فتحه اسمه «العقل.«

فكما أن المفتاح لا يفتح القفل إلا إذا كان بينهما توافق دقيق، كذلك العقل لا يستطيع فهم الكون إلا إذا كان بينهما قدر عجيب من التوافق.

وهنا يبرز سؤال مهم :**هل هذا التوافق بين الكون المفهوم والعقل الفاهم مجرد صدفة، أم أنه أثر يدل على أن وراء هذا الكون خالقًا حكيمًا، أوجد النظام، وأوجد العقل القادر على إدراكه؟**

وتذكّر ما بيّنّاه سابقًا في مثال القفل والمفتاح: لا بد من توافقٍ دقيق بينهما حتى يستطيع المفتاح أن يفتح القفل.

وهذه ليست المرة الأولى التي نرى فيها التوافق والتكامل في الخلق، بل إن الزوجية نفسها صورة واضحة من صور هذا التوافق؛ فالذكر يكمل الأنثى، والأنثى تكمل الذكر.

لكن ما نراه هنا أعمق من مجرد توافق بين كائنين؛ فنحن أمام توافق بين «الكون» و«العقل»، بين المادة من حولنا، والوعي في داخلنا.

فالكون ليس موجودًا فحسب، بل يبدو أيضًا قابلًا للفهم، والعقل ليس موجودًا فحسب، بل يمتلك القدرة على اكتشاف هذا الفهم والتعبير عنه بلغة الرياضيات والقوانين.

وكأن العقل والكون قد التقيا على لغة واحدة، ونظام واحد، وإيقاع واحد؛ عقلٌ يبحث عن النظام، وكونٌ يحمل هذا النظام، في تناغم عجيب وتناسق مدهش.

سبحانك يا الله!

وقد عبّر الفيلسوف أرسطو عن هذا المعنى بقوله: " إن البحث في الطبيعة كاشف أن العالم محتوم أن يكون معلومًا، وأن الإنسان محتومٌ أن يَعْلَمَ؛ **فقد صُنعا بعضهما لبعض.**"[٥١]

واعيد واكرر ان الدليل الصارخ على أن الكون كتاب مفهوم ونحن قراؤه، هو **وجود الحضارة الحديثة، والعمران، والتقدم العلمي والتكنولوجيا**؛ فكل هذا لا يمكن أن يحدث لولا أن الكون قابل للفهم وأننا قادرون على إدراك قوانينه ونظامه.

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء: ١٢)

فالليل والنهار ليسا مجرد ظاهرتين تتعاقبان، بل هما آيتان يمكن للإنسان أن يلاحظ انتظامهما، ويحسب بهما الزمن، ويستخرج منهما السنن والقوانين.

وهكذا نجد أن الكون من حولنا قابل للقراءة والفهم والحساب، وأن الإنسان لم يُخلق أمام كونٍ مغلقٍ يستحيل إدراكه، بل أمام عالم يمكنه أن ينظر فيه، ويتأمل نظامه، ويكتشف شيئًا من قوانينه.

ولهذا يمكن تلخيص الفكرة في ثلاث كلمات:

- **الكون** :كتابٌ مليء بالنظام والقوانين.
- **العقل** :قارئٌ قادر على الفهم والاكتشاف.
- **العلم** :ثمرة قراءة هذا الكتاب وفهم قوانينه.

أي أن هناك من كتب هذا المعنى في الكون، ونحن مخلوقون لنقرأه. فكيف يكون هناك كتاب بلا مؤلف، أو رسالة بلا مرسل، أو تطابق بين المعنى ووعي القارئ بلا قصد؟

المعادلة واضحة :قوانين + ترتيب + هدف = معنى.

والمعنى لا ينبثق من العشوائية، ولا يُولد من الصدفة، ولا يصنعه اللاوعي.

---

[٥١] J. Lear, Aristotle: The Desire to Understand (Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٨٨), p. ٢٣٠

وهنا ننتقل إلى زاوية أخرى في الرد على فكرة العشوائية، زاوية علمية تطرح سؤالًا أكثر تحديدًا: هل يستطيع الزمن وحده أن يحوّل الفوضى إلى نظام؟ إذا كان الجواب: نعم، فماذا يخبرنا العلم عن أثر مرور الزمن على الأنظمة؟

هنا يأتي القانون الثاني للديناميكا الحرارية، ومفهوم الإنتروبيا؛ فالنظام المعزول يميل مع مرور الزمن إلى ازدياد الإنتروبيا، **أي إلى الانتقال نحو حالات أكثر تشتتًا وأقل انتظامًا.**

وهذا ما نراه حولنا بوضوح :الحديد يصدأ، والأشياء تتآكل، والحرارة تنتشر، والأنظمة تميل إلى فقدان ترتيبها إذا لم تُحفظ وتُمدّ بالطاقة.

إذن، الزمن في ذاته ليس قوةً تبني النظام كلما مرّ، بل على العكس، فإن الاتجاه الحراري العام في الأنظمة المعزولة هو نحو زيادة التشتت.

وهنا تظهر المشكلة أمام من يجعل الزمن والعشوائية تفسيرًا لنشأة النظام:

إذا كان مرور الزمن لا يكفي وحده لبناء نظام، وكان النظام المعزول يتجه وفق القانون الثاني للديناميكا الحرارية إلى زيادة الإنتروبيا، أي إلى مزيد من التشتت، فكيف يكون مجرد مرور مليارات السنين تفسيرًا كافيًا لظهور هذا الكون بكل ما فيه من قوانين ثابتة، وأنظمة دقيقة، وترابط بالغ التعقيد؟

بل إن السؤال يصبح أعمق من ذلك: إذا كان الكون يتجه – وفق هذا القانون – نحو التشتت، فكيف لا يزال إلى اليوم محتفظًا بهذا القدر الهائل من الانتظام؟ وكيف تستمر مجراته ونجومه وكواكبه وأنظمته في العمل بهذا الانسجام، دون أن تتحول إلى فوضى شاملة؟ وكيف تبقى القوانين التي تحكم هذا كله ثابتة ومنضبطة؟

الإجابة ليست في الذرات... ولا في العشوائية... ولا في مجرد مرور الزمن؛ بل في حفظ الله المستمر ورعايته الدائمة. فهو القيّوم الذي لا ينام ولا يغفل.

وهذا برهان قاطع على قيومية الله تعالى على الكون كله: فالكون ليس فقط مصنوعًا بإتقان، بل يعمل منذ نشأته بهذا الانسجام الهائل، دون أن يتحول إلى فوضى شاملة، وهذا أمر يستدعي تفسيرًا يتجاوز مجرد القول بالعشوائية.

تأمّل معي مثالًا بسيطًا يوضح الفكرة:

تخيّل غرفةً ضخمة مليئة بآلاف الأجسام المختلفة، وكلها تتحرك في الوقت نفسه وبسرعات واتجاهات مختلفة .كرات تتحرك في كل اتجاه، وأجسام تدور، وأخرى ترتفع وتهبط، وكل شيء يتحرك بلا توقف.

ثم اسأل نفسك: ماذا سيحدث لو تركنا هذه الأشياء تتحرك بلا أي توجيه؟

مع مرور الوقت ستتصادم ببعضها، وستتغير مساراتها، وستصطدم بغيرها، وتتراكم الأشياء في أماكن مختلفة، وتتحول الغرفة تدريجيًا إلى حالة من الفوضى. ولا يمكن أن تتوقع أن تستمر آلاف الأجسام في الحركة داخل الغرفة نفسها، ملايين المرات، مع بقاء كل جسم في مساره المحدد، دون أن يحدث بينها تصادم أو اضطراب شامل.

أما إذا دخلت الغرفة ووجدت أن كل هذه الأجسام تتحرك في مسارات دقيقة، وبسرعات محسوبة، وكل جسم منها يحافظ على موقعه ومساره، ولا يصطدم بالآخر رغم كثرتها وحركتها المستمرة، فسيكون السؤال البديهي:

من الذي ضبط هذه الحركة؟ ومن الذي جعل كل جسم يسير في مساره بهذا الانسجام؟

فإذا كان هذا الأمر يحتاج إلى تفسير إذا رأيناه في غرفة صغيرة، **فكيف بالكون كله؟**

مليارات المجرات، وفي كل مجرة مليارات النجوم، والنجوم والكواكب والأجرام تتحرك باستمرار، ومع ذلك لا نرى فوضى كونية شاملة، بل نرى نظامًا تحكمه قوانين دقيقة، وتتحرك الأجرام وفقها منذ أزمنة هائلة.

فالكون ليس مجرد مجموعة من الأشياء الموجودة، بل منظومة هائلة من الأجسام المتحركة، المرتبطة بقوانين تحفظ انتظام حركتها.

وهنا يظهر معنى قيومية الله تعالى على خلقه؛ فالله سبحانه هو القيوم، القائم على خلقه، الحافظ لهم، المدبّر لأمرهم، قال تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالكون لا يقوم بنفسه استقلالًا، ولا يحفظ نظامه بنفسه، وإنما يقوم بأمر الله وتقديره وتدبيره.

انظر إلى السماء: هناك نحو تريليوني (٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) مجرة، وفي كل مجرة مئات المليارات من النجوم. وبرغم هذا العدد الهائل والاتساع المذهل، تبقى المسافات محسوبة، والمدارات ثابتة، بلا اصطدام شامل.

وقد أقسم الله بهذه المواقع الجبارة فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦][٥٢]

ثم إن هذا النظام الكوني لا يقف عند السماء، بل يمتد إلى داخلك أنت أيضًا: ملايين العمليات الحيوية تعمل في وقت واحد بلا توقف—إشارات الأعصاب، انقسام الخلايا، ضخ القلب، تنفّس الرئتين... ولو تعطّل واحدٌ منها لثوانٍ معدودة لاختل وجود الإنسان كله .

ولعل خير ما نختم به هذا المبحث هو أن نتأمل كيف وصف الله تعالى هذا الخلق المحكم، ودعانا إلى النظر فيه والتفكر في نظامه وإتقانه

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] إشارة إلى انعدام الفوضى والخلل في خلق الله، ودعوة للتأمل في التناسق الكوني.

والسماء في القرآن اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يعلونا، حيث يشمل ما فوقنا من أجرامٍ ونجومٍ وكواكب، وهو تذكيرٌ دائمٌ من الله سبحانه بالنظر والتفكّر في هذا الكون المنظَّم البديع.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]

تجري الشمس وفق نظام مقدر مضبوط، مما ينفي العشوائية.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]

منازل القمر تمثل نظامًا رياضيًا دقيقًا يُبنى عليه التقويم القمري.

---

[٥٢] والتعبير القرآني هنا بالغ الدقة؛ فلم يقل: "بالنجوم"، بل قال: "بمواقع النجوم." ووجه الدلالة أن ما نراه من نجوم ليس صورتها الآنية، بل مواقعها في السماء كما تصلنا، لأن الضوء يحتاج زمنًا طويلًا جدًا ليصل إلى الأرض.

فقد تكون بعض النجوم قد تغيّرت أو انتهى وجودها أصلًا، لكننا لا نراها إلا في موقعها الضوئي الذي وصلنا عبر الزمن.

وهذا يفتح بابًا علميًا عميقًا: أن السماء التي نراها ليست "حاضر الكون"، بل صورة ممتدة عبر الزمن، مرسومة بدقة مذهلة تحكمها قوانين دقيقة تحفظ هذا النظام العظيم.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]

تأكيد على الحركة المنظمة لكل جرم في مداره، بلا تصادم أو فوضى.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] اختلاف الليل والنهار يعني دوران الأرض، وهو جزء من نظام دقيق دائم التكرار.

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]

"أتقن كل شيء" تشمل كل تفاصيل الخلق، من الذرات إلى المجرات.

ختامًا :**الكون ليس فوضى، بل منظّم بدقة، والعقل ليس مادة صماء، بل قادر على فهم هذا الكون وفك شفراته. وهذا التوافق العجيب بين كونٍ منظّم وعقلٍ قادر على فهمه ليس مجرد صدفة، بل دليل على خالقٍ عليمٍ حكيمٍ قدير، لا يُشبهه شيء ولا يعجزه شيء، سبحانه وبحمده.**

***

المبحث الثاني: برهان الضبط الدقيق

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣)

الكون المضبوط خصيصًا لحياتك

إعداد دقيق... قوانين محسوبة... وكون مجهَّز قبل مجيئك.

في الفصل الأول من باب "الكون" لاحظنا أمرًا مهمًا:

١- للكون بداية.

وهذا يعني أنه يحتاج إلى مُبدع، لأن العدم لا يولّد شيئًا، ولا يمكن أن ينبثق شيء من لا شيء.

٢- وفي المبحث الأول من الفصل الثاني، تبيّن لنا أن الكون ليس فقط منظّمًا، بل منظّمًا بدرجة مدهشة، بحيث يمكننا كتابة قوانينه في معادلات، وبناء علومنا وتقنياتنا عليها.

وهنا نصل إلى برهان ثالث ...برهان مذهل يوضح بجلاء:

الكون مُعدّ خصيصًا لك!

تخيّل المشهد... ومعناه عميق

أنت صعدت إلى الفضاء... سوف تموت فورًا، لأنه لا يوجد: أكسجين ، ضغط جوي ، حرارة مناسبة ، أي بيئة تساعدك على البقاء ، ثم فجأة تجد مركبة فضاء مجهّزة بالكامل تحتوي على: أكسجين مضبوط ،ضغط مثالي ،حرارة مناسبة ، طعام وشراب ، تهوية متكامل .

هل ستقول" :يا لها من صدفة جميلة! أن الطبيعة العشوائية كانت تعلم بقدومي فأعدت لي كل ما يحييني" ؟ أم ستقول" :مستحيل... هناك من كان يعلم بقدومي فجهّز هذه المركبة خصيصًا لأعيش فيها" ؟

المنطق يقول: هذا تصميم واضح ...لا صدفة ، لأن أي إعداد دقيق لحياة كائن حي يعني بالضرورة وجود "مُعِدّ" يعلم احتياجاته ويهدف إلى بقائه، أما الطبيعة العشوائية، فليس لها نية ولا معرفة ولا غاية لتوفر لك ما تحتاجه.

والآن انظر إلى الأرض!

إنها مركبتك وسط كون قاتل.

أنت لا تعيش في كونٍ صالح للحياة بشكل عام فحسب، بل تعيش على كوكب تتوافر فيه مجموعة هائلة من الشروط الدقيقة التي تجعل وجودك واستمرار حياتك ممكنًا.

فكما أنك عندما وجدت تلك المركبة مجهّزة بكل ما تحتاجه لم تقل: «يا لها من صدفة!»، كذلك حين تنظر إلى الأرض، وترى هذا الكم الهائل من التوافقات التي تجعل الحياة ممكنة، يحق لك أن تسأل:

هل نحن أمام مجرد صدفة عمياء، أم أمام إعداد وقصد وتدبير؟

وبحسب التصور الإلحادي، ظهرت الأرض نتيجة **سلسلة من العمليات والانفجارات والظواهر المادية غير الواعية**، بلا عقلٍ يقصد، ولا إرادةٍ تدبّر، ولا غايةٍ تريد أن تجعلها مناسبة للحياة.

لكن هنا يظهر السؤال المدهش:

كيف تم ضبط كوكب الأرض بهذه الدقة العجيبة، بحيث تتوافر فيه الشروط المناسبة لحياة الإنسان واستمرارها؟

والآن لنذكر بعض مظاهر هذا الضبط في كوكب الأرض الذي أُعدّ للحياة.

تذكّر دائمًا مثال »**مركبة الفضاء...**«

أمثلة مذهلة من الضبط الدقيق في كوكب الأرض

المسافة بين الأرض والشمس:

لو كانت الأرض أقرب قليلًا ⟵ نحترق.

ولو كانت أبعد قليلًا ⟵ نتجمد.

يجب أن تكون الأرض في المنطقة الصالحة للحياة.

وليس فقط المسافة، بل سرعة دوران الأرض، وميل المحور، وشكل المدار... كلها عوامل تدخل في منظومة دقيقة تسمح باستمرار الحياة.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم: ٣٣)

تركيبة الهواء:

الأكسجين بنسبة تقارب ٢١٪؛ لو زادت النسبة كثيرًا لزادت قابلية الاشتعال، ولو انخفضت كثيرًا لصَعُب التنفس.

وثاني أكسيد الكربون موجود بنسبة تسمح للنباتات بالقيام بدورها في دورة الحياة وإنتاج الأكسجين.

هذا ليس مجرد «هواء»... بل تركيبة دقيقة تسمح باستمرار الحياة.

المياه... سر الحياة:

الماء يتجمد عند ٠°، ويغلي عند ١٠٠° في الظروف القياسية، وله خاصية مدهشة: يتمدد عند التجمد، بخلاف معظم المواد.

تخيّل لو لم يكن الماء كذلك...

كانت البحار والبحيرات ستتجمد بطريقة مختلفة، ولتأثرت الحياة المائية بشدة.

(وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [المؤمنون : ١٨]

سرعة دوران الأرض:

الأرض تدور في ٢٤ ساعة ـــ لا أكثر ولا أقل، لو أسرع قليلًا: رياح مدمّرة ، أعاصير بلا توقف ، جاذبية أقل ، وفوضى مناخية مميتة ، لو أبطأ قليلًا: النهار سيصبح أيامًا طويلة نحترق نهارًا... ونجمد ليلًا

المسافة بين الأرض والقمر:

القمر ليس مجرد منظر جميل... بل جزء من هندسة الحياة: يضبط المد والجزر ، يحافظ على ميل الأرض ،يوازن دورانها ، يثبّت المناخ ، لو كان أقرب ⟵ فيضانات مهولة ، ولو كان أبعد ⟵ اهتزاز المحور وخراب الفصول ، ولو كان حجمه مختلفًا ⟵ ينهار توازن اليوم والليل

صدف موزونة؟!

الغلاف الجوي:

الغلاف الجوي نظام هندسي كامل: سُمكه مضبوط ، طبقاته مرتّب ،كثافته محسوبة ،نسب مكوناته دقيقة ، فلو كان أثخن قليلًا ⟵ يخنقك ويمنع الضوء ، ولو كان أرقّ قليلًا ⟵ الأشعة القاتلة تدمّر الحياة، إنه درع أمان وتنفس وتنظيم حراري.

التوازن بين النبات والحيوان والإنسان:

على الأرض دورة مذهلة:

- النبات ينتج الأكسجين ويستهلك$\mathbf{CO_2}$
- الحيوان والإنسان يستهلكان الأكسجين وينتجان$\mathbf{CO_2}$
- الماء يتبخر، يتكثف، ينزل مطرًا
- البحار تنظّم الحرارة
- الغابات تُنقّي الهواء
- البكتيريا في التربة تُعيد تدوير النيتروجين ليصبح صالحًا للنبات

لو اختل أي جزء من هذه الدورة... انتهت الحياة.

هذا ليس "كونًا جاء مناسبًا للحياة" ، هذا كون **صُمّم للحياة.**

الخلاصة حتى الآن: الأرض ليست كوكبًا «مناسبًا» للحياة فحسب، بل كوكب مُهَيَّأ ومُعَدٌّ للحياة.

بل أكثر من ذلك، إنها مصمَّمة لك أنت.

كأنما قيل للكون: "**هيِّئوا لهذا الكائن القادم بيتًا كاملًا، مُجهَّزًا، موزونًا، محسوبًا بأدقّ المقاييس**"

والآن نترك الكوكب ونخرج إلى المسرح الكبير...

ننتقل من الأرض إلى **الكون كله**، ذلك الكون الذي يصفه الملاحدة بأنه عشوائي أعمى بعد انفجار عنيف نتج من اللاشيء.

ولكن الحقيقة المذهلة :الكون مضبوط بدقة مذهلة لا تُصدَّق!!

انظر إلى ثوابت الكون الدقيقة:

ثابت الجاذبية(G) :

"الرقم الذي يحدد قوة الجذب في الكون كله — من حركة المجرات إلى وقوفك على سطح الأرض.

درجة الدقة المضبوطة به؟ مذهلة للغاية: الدقة = **١ من ١٠ أس ٤٠!**

أي لو تغير الرقم بنسبة

١.....,.،**فقط، لاختلَّ الكون كله.**

ولتقريب الصورة، تخيَّل أن لديك ملفًا إلكترونيًا ضخمًا جدًا، يحتوي على مليار مليار رقم، ثم تغيَّر رقم واحد فقط! عندها يتلف الملف كله، ويتعطل الجهاز، وينهار كل شيء.

وثابت الجاذبية يشبه ذلك تمامًا؛ فهو رقم واحد في قوانين الكون، لكنه يجب أن يكون مضبوطًا بدقة مذهلة.

فلو اختل هذا الثابت، لطارت الكواكب بعيدًا عن الشمس، أو انجذبت إليها واحترقت، ولما تماسكت الذرات، ولما عملت النجوم، ولما تكوَّنت أنت أصلًا.

وليس هذا الضبط مقصورًا على ثابتٍ واحد، بل إن الكون كله قائم على مجموعة من الثوابت والقوانين المضبوطة بدقةٍ مذهلة، بحيث إن أي تغير طفيف في أحدها يجعل وجود الكون القابل للحياة مستحيلًا.

فمن ذلك **ثابت التوسع الكوني(Λ)** ، الذي يضبط سرعة تمدد الكون بعد الانفجار العظيم. فلو كان التوسع أسرع قليلًا لتفككت المادة قبل أن تتكون النجوم والمجرات، ولو كان أبطأ قليلًا لانهار الكون على نفسه بفعل الجاذبية قبل أن تتشكل البنى الكونية. وتبلغ دقة هذا الضبط حدًا مذهلًا؛ إذ تُقدَّر بنحو واحد من .(**{٥٥}^١٠**) فبعد حدثٍ عنيف كالانفجار العظيم، كان المتوقع أن تسود الفوضى، لكن الذي نشأ هو نظام كوني بالغ الدقة والانتظام.

ومن ذلك أيضًا الفرق بين كتلة البروتون وكتلة النيوترون، وهو فرق ضئيل للغاية، لكنه حاسم. فلو تغير بمقدار يسير لما تكوَّنت الذرات أصلًا، ولما وُجدت العناصر الكيميائية، ولا الماء، ولا الهواء، ولا أي صورة من صور الحياة.

ويؤكد عالم الفلك البريطاني الشهير مارتن ريز في كتابه «**Just Six Numbers**»أن هذه الدقة لا يمكن تفسيرها بالصدفة المحضة. ويضرب مثالًا بقوة الجاذبية، فيبين أنه لو كانت أقوى بقليل مما هي عليه لاحترقت النجوم بسرعة هائلة، واستنفدت وقودها في زمن قصير. فالشمس –مثلًا– لو تضاعفت قوة الجاذبية لانخفض عمرها المتوقع من نحو ١٠مليارات سنة إلى أقل من ١٠٠مليون سنة، وهي مدة لا تكفي لظهور الحياة المعقدة على الأرض.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن زيادة قوة الجاذبية كانت ستؤدي أيضًا إلى تكوين نجوم وكواكب أصغر بكثير، كما أن أي كائن حي كبير سيُسحق تحت تأثير الجاذبية، ولن يكون ممكنًا وجود كائنات ذكية كالإنسان. انتهى كلام مارتن ريز، **والنقل هنا مقتبس من كتاب** »شموع النهار «**للدكتور** عبد الله العجيري، **حفظه الله.**

هل يعقل أن تكون الصدفة هي التي فعلت كل هذا؟

هل يمكن لشيءٍ بلا عقل أن يضبط دوران الأرض، وميل محورها، وتركيب غلافها الجوي، ودورتها المائية، وبعدها عن الشمس، ومجالها المغناطيسي، وفي الوقت نفسه يضبط قوة الجاذبية، وثابت التوسع الكوني، والكثافة الأولية، والفروق النووية، والقوى الأساسية، ونشأة العناصر، وقوانين الفيزياء، وحركة المجرات، وتوازن النجوم؟

أكلُّ هذا وقع بلا قصد؟ وبلا تصميم؟ وبلا علم؟ وبلا حكمة؟

وهل كانت "الطبيعة" تعلم، قبل أكثر من **١٣مليار سنة**، أن الإنسان سيأتي يومًا ما، فتضبط له كل هذه القوانين والثوابت بدقة متناهية ليجد كونًا صالحًا للحياة؟

يقول عالم الفلك الشهير أرنو بنزياس، الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، يقول: "يقودنا علم الفلك لِحَدَثٍ فريد وهو خلق كون من لا شيء، كون موزون بميزان دقيق من أجل توفير الظروف التي تسمح بالحياة؛ كَوْنَ لَهُ خُطَّة مُحكمة، **وإن شئت فقل خارقه** " [٥٣]انتهي

والآن، تأمل معي آيات سورة النحل، وكأنها تجسد أمامنا برهان الضبط الدقيق في أبهى صوره.

---

[٥٣] Margenau, H and R.A. Varghese, ed. ١٩٩٢. Cosmos, Bios, and Theos. La Salle, IL, Open Court, p. ٨٣.

ولكن قبل أن تقرأ الآيات بتدبُّر، تأمَّل هذا المثال الذي ذكره الشيخ الشعراوي رحمه الله: تخيَّل أنك في صحراء قاحلة لا يوجد فيها أحد، ثم وجدت طعامًا وشرابًا مما تشتهي مُعَدًّا لك! فهل تقول إن الصدفة هي التي صنعت هذا الطعام؟! أم تقطع مباشرةً أن هناك من علم بحاجتك، فأعدَّه لك قبل أن تصل؟

كذلك حالك في هذا الكون؛ فقد جئت إلى الأرض فوجدت كل شيء مهيأً لاستقبالك: هواءً تتنفسه، وماءً تشربه، وشمسًا تدفئك، وأرضًا تحملك، ونظامًا بالغ الدقة يحفظ حياتك واستمرارها.

وهذه الفكرة نفسها عرضها الفيلسوف البريطاني **أنتوني فلو** في كتابه »**هنالك إله**« بمثال أكثر تفصيلًا، فقال:

(تخيل أنك دخلت غرفة في فندق في إجازتك المقبلة، فوجدت مشغل السي دي والموضوع على الطاولة بجوار السرير يقوم بتشغيل الموسيقى المفضلة لديك، ووجدت الصورة المعلقة فوق السرير متطابقة مع الصورة المعلقة فوق المدفأة في بيتك، وأن الغرفة تم تعطيرها بذات العطر المفضل لديك، تهز رأسك في اندهاش فيما أنت تضع حقائبك على الأرض، لقد أصبحت منتبها لما حولك على نحو مفاجئ. تتقدم نحو الثلاجة الصغيرة وتفتح بابها وتتأمل في اندهاش في محتوياتها، فهذه مشروباتك المفضلة وكذا البسكويت والحلوى بل حتى الماء المعبأ هو من شركة الماء المفضلة لديك تتحول عن الثلاجة وتتأمل في الغرفة وتلاحظ أن الكتاب الموضوع على الطاولة هو الإصدار الأخير من مؤلفات كاتبك المفضل، تدخل لدورة المياه فتجد أن جميع أنواع الصابون والشامبو ومعجون الأسنان والأمواس والأمشاط قد وضعت على نحو مرتب على الرف، وكأن كل واحد منها تم انتقاؤه لك شخصيا، قمت بتشغيل التلفاز ووجدته موضوعا على قناتك المفضلة.

مع كل اكتشاف لك لهذه الضيافة فسيقل في ذهنك احتمالات كون ما جرى مجرد صدفة أليس كذلك؟ قد يقع في خاطرك أن مدير الفندق قد حصل على معلومات تفصيلية عنك وقد تكون معجبًا بشكل كبير بترتيباتهم الدقيقة جدا، وقد تقوم بتدقيق الفاتورة مرة أخرى للاطمئنان إلى تكاليف مثل هذه الترتيبات حتمًا ستكون مدفوعا بأن ثمة من كان يعرف بمجيئك لهذا الفندق).[٥٤]

---

[٥٤] There is a God p. ١١٣.

ثم يقول :

(سيناريو الإجازة المذكور هذا هو مجرد تمثيل محدود وبسيط وساذج إذا ما قارناه بواقع ما بات يعرف بحجة الضبط الدقيق الشهرة الحديثة لهذه الحجة أبرزت لنا بعدًا جديدًا بخصوص قوانين الطبيعة، كلما تأملت في الكون وقمت بدراسة مظاهر التصميم فيه كما يقول الفيزيائي فريمان دايسون:" **اكتشفت مزيدًا من الأدلة بأن الكون بطريقة ما كان يعلم بقدومنا**"، بعبارة أخرى فإن قوانين الطبيعة تبدو وكأنها قد صيغت من أجل دفع الكون قدما لظهور الحياة والمحافظة عليها، هذا هو مبدأ الأنثروبي والذي تم إشاعته من خلال عدد من المفكرين من أمثال مارتن ريز جون بارو وجون لزلي).[٥٥]

وبعد هذا المثال، تأمل كيف يلفت القرآن النظر إلى الحقيقة نفسها، ولكن بأسلوب أبلغ وأعمق؛ إذ يعدد النعم التي سُخرت للإنسان، ويُريه أن هذا الإعداد المحكم لا يمكن أن يكون وليد الصدفة، بل هو أثر علمٍ وقدرةٍ وحكمة.

والآن... تأمل هذه الآيات من سورة النحل، وكأنها تعرض أمامك برهان الضبط الدقيق في أبهى صوره :

(خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ (٤)وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ **لَكُم** فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥)**وَلَكُم** فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (٦)وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٧)وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ **لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ** وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨)وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٩)هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ **لَّكُم** مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)يُنۢبِتُ **لَكُم** بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١)وَسَخَّرَ **لَكُمُ** ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢)وَمَا ذَرَأَ **لَكُم** فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (١٣)وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ **لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ** لَحۡمٗا طَرِيّٗا **وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ** حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٤)وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ **بِكُمۡ** وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥)وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (١٦)أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧))

تأمَّل كيف تتتابع الآيات: خلق... ثم تسخير... ثم نِعَم... ثم منافع... ثم هداية....

---

٥٥ There is a God p١١٤.

ويؤكد المعنى في موضع آخر: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ *(الجاثية: ١٣)*

فهي تُعلن بوضوح: أن كل ما حولك مُعَدٌّ لك، ومُسخَّر لحياتك قبل أن تأتي إلى الوجود.

وكأن الكون كله يهمس لك: أنا لم أُخلق صدفة، بل جئت مُهيّأً، وأحمل في انتظامي دليلًا على خالقي.

***

الفصل الثالث: من الذي زيَّن الكون لذوقك؟ – برهان الجمال

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]

حين يتكلم الكون بلغة الذوق والإبداع

تخيّل أنك أحضرت طفلًا صغيرًا ما زال يتعلم كيف يمسك القلم، ثم أعطيته دفترًا أبيض وقلت له: «ارسم كما تشاء»؛ أي: شخبط بلا هدف.

هل تتوقع بعد دقائق أن تخرج أمامك لوحة فنية متكاملة؟

لوحة فيها تناسق، وتناظر، وتوزيع للألوان والظلال، وتفاصيل مترابطة، بحيث تشعر أن كل جزء منها وُضع في مكانه بعناية؟ بالطبع: لا.

لماذا؟ لأن الشخبطة العشوائية لا تفسّر اللوحة المتقنة.

فحين ترى لوحة جميلة، فإنك تبحث تلقائيًا عن الرسام الذي رسمها، لأنك تدرك أن هذا القدر من التناسق والترتيب ليس شيئًا يُنسب إلى العبث.

ومن هنا نبدأ في النظر إلى العالم من حولنا. لنبدأ بكوكبنا الأرض وما فيه، ونسأل كعادتنا: **كيف يتصور الملاحدة نشأة كوكب الأرض؟**

فكوكب الأرض، بحسب النموذج العلمي السائد، تشكّل منذ نحو **٤,٥مليار سنة** من بقايا المادة والغبار والصخور التي تجمعت بعد تاريخ من التصادمات والانفجارات الكونية.

وهنا يبرز السؤال:

هل تكفي هذه العمليات العمياء وحدها لتفسير كل هذا القدر الهائل من الجمال والتناسق والتعقيد الذي نراه على الأرض؟

فلنرَ ونتأمل ما بداخل هذا الكوكب، ولنبدأ بشيء بسيط جدًا...

الوردة

تأمل وردة واحدة.

شكل منظم ومتناسق، وألوان متعددة، وتفاصيل دقيقة، ورائحة تنتجها مركبات كيميائية محددة.

كل هذه الصفات تجتمع في كائن صغير، وتعمل داخل منظومة أكبر من التفاعلات الحيوية والبيئية.

والأعجب أن هذا الشكل لا يظهر مرة واحدة بصورة عشوائية، بل يتكرر في النوع نفسه وفق معلومات وراثية محددة.

الفراشة

ثم انتقل من الزهرة إلى الفراشة.

انظر إلى جناحيها، وإلى التناسق بينهما، وإلى الألوان والنقوش الدقيقة التي تميز كل نوع.

ثم تأمل دورة حياتها: **بيضة ← يرقة ← شرنقة ← فراشة.**

مراحل مختلفة تمامًا، ومع ذلك تنتقل الكائنات بينها وفق نظام محدد.

فاليرقة تتحول إلى شرنقة، ثم تخرج منها فراشة مكتملة الأعضاء، قادرة على الحركة والطيران والتغذي والتكاثر.

إنها ليست مجرد صورة جميلة، بل منظومة حيوية كاملة تعمل وفق معلومات وبرامج دقيقة.

ثم ابتعد قليلًا عن الكائنات الصغيرة، وانظر إلى **جمال الطبيعة** من حولك.

جبال شاهقة، وبحار واسعة، وأنهار تمتد بين الأرض، وغابات تغطي مساحات شاسعة، وحقول تتدرج ألوانها مع اختلاف الفصول.

صور مختلفة من الجمال، تجتمع كلها على كوكب واحد.

وتأمل كيف يجتمع في مشهد واحد الماء واليابسة والجبال والنبات والسماء، فتتكون أمامك صورة طبيعية متكاملة.

ويكفيك النظر مثلًا إلى غروب الشمس.

تتغير ألوان السماء تدريجيًا، وتظهر درجات مختلفة من الأصفر والبرتقالي والأحمر والوردي، وتتغير الصورة مع تغير الضوء والسحب والظروف الجوية.

وقد اعتدنا هذه المشاهد لكثرة ما نراها، حتى أصبحنا لا نتوقف عند جمالها.

لكن تأمل قليلًا: هذا الجمال الذي نراه ليس منفصلًا عن القوانين التي تحكم الطبيعة، بل يظهر من خلالها؛ فالضوء، والغلاف الجوي، وحركة الأرض، كلها تدخل في تكوين هذه المشاهد التي نراها كل يوم.

فمن وردة صغيرة، إلى فراشة دقيقة، إلى جبال وبحار وغابات، إلى مشهد غروب يتغير أمام أعيننا كل يوم... تتعدد صور الجمال، لكن يجمعها شيء واحد :**التناسق والانسجام.**

لكن ماذا لو كبّرنا الصورة أكثر؟ ماذا لو تجاوزنا الأرض نفسها، ونظرنا إلى الكون ؟

الكون نفسه... جمال لا يتوقف

ثم ارفع نظرك قليلًا عن الأرض، وانظر إلى السماء.

السماء والنجوم

نجوم لا تكاد تحصى، ومجرات هائلة، وسُدُم تتداخل فيها ألوان وأشكال مختلفة، ومشاهد كونية تمتد إلى مسافات شاسعة لا تكاد تتصورها.

ولا تنس أن هذا العدد الهائل من النجوم والأجرام السماوية ليس ساكنًا؛ فالكون في حركة مستمرة، والنجوم والمجرات تتحرك عبر هذا الامتداد الهائل .ومع ذلك، لا يتحول هذا العدد الهائل من الأجرام والحركة المستمرة إلى **فوضى بلا صورة،** بل نرى مجرات ذات أشكال واضحة، وسُدُمًا ذات تراكيب مدهشة، وتجمعات كونية تمتد على مسافات لا تكاد تستوعبها عقولنا.

حركة مستمرة، وعدد هائل، ومسافات شاسعة... ومع ذلك يبقى للكون هذا القدر من التناسق والجمال.

ولعل أفضل ما يوضح لنا ذلك أن نرى بعضًا من هذا الجمال أمام أعيننا.

وفي ذالك يقول اللاهوتي كلارك بنوك:

»أفضل مواجهة لتحدي الإلحاد، والعدمية التي تقترن به عادة، هي برؤية أوضح للجمال البهي الذي خلقه الله، لا عن طريق محاججات عقلية فقط[٥٦].« انتهي

فهذه الصورة تجمع لنا مشهدين من عالمين مختلفين :**جمال كائن صغير على الأرض، وجمال كون شاسع في السماء.**

وتأمل صورة النجوم...

إنها ليست مجرد نقاط مضيئة متناثرة في السماء، بل مجرة هائلة تضم مليارات النجوم، تتحرك ضمن نظام كوني واسع، ومع ذلك تظهر أمام أعيننا بهذا الشكل الحلزوني الجميل والمنظم.

---

[٥٦] Clark H. Pinnock, Most moved mover: a theology of God's openness (Carlisle: Paternoster Press, ٢٠٠٢), p.٢

مليارات النجوم، وغاز وغبار كوني، وحركة هائلة، ومسافات شاسعة... ومع ذلك تظهر لنا هذه البنية الحلزونية المتناسقة.

ولقد رُصدت بالتلسكوبات صورٌ كثيرة لمجرات أخرى، تظهر فيها هذا الجمال وهذا النظام.

فهل كل هذا الجمال مجرد صدفة؟

الجمال لا يُولد من العشوائية.

فكما لا تتحول شخبطة طفل إلى لوحة فنية، ولا تتحول كلمات مبعثرة إلى قصيدة متقنة، كذلك لا تكفي العشوائية وحدها لتفسير هذا القدر من الانسجام والتناسق والجمال.

ولذلك يقول **الدكتور سامي عامري:**

«من أعظم دلائل الخلق والتصميم أن يكون كوننا بهذا الجمال الدافق، رغم أنه نشأ عن مقدمة عنيفة توصف فيزيائيًا بأنها انفجار.« انتهي

حقًا، برهان الجمال من أعظم دلائل الخلق والتصميم؛ لأن الجمال ليس مجرد نظام، **بل هو درجة أعمق من النظام.**

فقد يكون الشيء منظمًا ودقيقًا، دون أن يكون جميلًا.

قد يكون هناك قانون رياضي صحيح، أو ترتيب منطقي للأرقام، ومع ذلك لا نصفه بالضرورة بأنه «جميل» بالمعنى الذي نقصده عندما نتأمل لوحة فنية، أو منظرًا طبيعيًا، أو مشهدًا من مشاهد الكون.

فالجمال يجمع أكثر من مجرد الترتيب؛ يجمع بين **النظام والمعنى والتناسق والإتقان** في صورة واحدة.

خذ مثالًا بسيطًا :**الكتاب.**

فالكتاب يحتوي على نظام؛ حروف مرتبة، وكلمات وجمل متناسقة، ويحتوي على معنى ومحتوى مقصود. ومع ذلك، لا يقول أحد إن هذا الكتاب يمكن أن يكون قد ظهر صدفة؛ لأن وجود النظام والمعنى والقصد يدل على عقل واعٍ وراءه، حتى لو كان خط الكتاب عاديًا وشكله غير مريح للعين.

فإذا أضفت إلى ذلك جمال الخط، وتناسق الصفحات، وروعة الأسلوب، وراحة العين عند قراءته، أصبح الدليل على وجود القصد والتصميم أوضح وأقوى.

فماذا عن هذا **الكتاب الكوني؟**

كونٌ ليس فقط منظمًا ويمكن فهم قوانينه، بل مليء أيضًا بالجمال والتناسق والإبداع في الألوان والأشكال والأصوات والمشاهد.

فإذا كنا نرفض أن يكون كتاب صغير، فيه نظام ومعنى، قد ظهر بلا عقلٍ وقصد، فكيف بهذا الكون الهائل الذي يجمع بين **النظام، والمعنى، والدقة، والجمال؟!**

ولهذا يقول الدكتور سامي:

"الطبيعة جميلة بصورة منتظمة، في حين أن صنائع الإنسان يندر أن تكون جميلة في غياب القصد الفني." انتهي

والمدهش أن برهان الجمال لا يقف عند جمال الكون من حولنا، فهناك زاوية أخرى أعمق : **الجمال الذي أودعه الله في داخل الإنسان نفسه.**

فبعد أن تأملنا جمال الأرض والسماء والنجوم والمجرات، لنسأل الآن عن الإنسان الذي يرى كل ذلك ويتأثر به: **من أين جاء فيك هذا الاستعداد لرؤية الجمال وتذوقه؟**

من زرع فيك حبَّ الجمال؟

الفكر المادي الإلحادي يقول لك :**أنت مجرد مادة كيميائية معقّدة، وكل ما في داخلك ليس إلا تفاعلات كهربائية وعمليات عصبية .**

لكن دعنا نسأل سؤالًا بسيطًا: إذا كنت مجرد ذرات متراكبة، فمن أين جاء هذا الإحساس بالجمال؟

لماذا يخفق قلبك أمام لوحة فنية؟ ولماذا تتأثر بنغمة عذبة أو صوت مؤثر؟ ولماذا تشعر بالسكينة عند رؤية غروب الشمس أو البحر أو النجوم؟ لماذا تحب التناسق والألوان المتناغمة، وتستقبح التنافر والقبح؟

القوانين الفيزيائية لا تعشق الألوان، والذرات لا تعرف معنى التناسق، والمادة الجامدة لا تتأمل الغروب ولا تشعر بجمال السماء.

ولهذا يقول اللاهوتي إدوارد فارلي: "**عندما يموت الإله؛ يموت الجمال**"

(Edward Farley, *Faith and Beauty*, Sydney: Ashgate, ٢٠٠١, p.٦٤)

والمقصود : إذا كان الكون بلا خالق ولا غاية ولا قصد، فمن أين جاء الأساس الذي يجعل للجمال معنى وقيمة تتجاوز مجرد التفاعلات المادية ؟ ومن زرع بداخلك **حبَّ الجمال** ؟

فأنت لا تحب الجمال فحسب، بل تدركه وتقدّر قيمته، وتشعر بأن بعض الأشياء أجمل من غيرها، وكما ذكرنا سابقًا في الباب الأول، فإن الإنسان يدرك الخير والشر، ويشعر بأن بعض الأفعال صحيحة وأخرى خاطئة؛ فإنه كذلك يدرك الجمال والقبح، ويشعر بأن بعض الأشياء جميلة وأخرى منفّرة.

وهنا تظهر نقطة مهمة: أنت لا تدرك الجمال فقط، بل تملك القدرة على التمييز بين الجمال والقبح .فالإنسان يدرك الأشياء بصورة أوضح من خلال أضدادها؛ **فبضدها تتميز الأشياء** .فكما ندرك قيمة النور عندما نرى الظلام، ونعرف نعمة الصحة عندما نذوق المرض، ونلمس جمال التناسق عندما نرى الفوضى، كذلك ندرك الجمال بصورة أوضح عندما نرى القبح.

ومن هنا يبقى السؤال الأهم: من أين جاء هذا المعيار أصلًا؟ ومن أين جاءت فيك القدرة على أن تحكم بأن شيئًا ما جميل، وأن شيئًا آخر قبيح؟

فهذا الوعي بالجمال، وهذه القدرة على التمييز بين الجميل والقبيح، لا يمكن اختزالها في مجرد المادة والتفاعلات الكيميائية؛ بل هي جزء من الفطرة التي أودعها الله فينا، وجعلنا ندرك الجمال ونحبه ونطلبه.

قال النبي ﷺ» :**إن الله جميل يحب الجمال**.« (رواه مسلم)

فحبُّك للجمال، وتأثُّرك بالمنظر البديع، وارتياحُك للصوت الحسن، كلها **تكشف عن فطرةٍ أودعها الله في الإنسان، وجعله بها يدرك الجمال ويحبّه ويطلبه.**

ويقول الدكتور سامي:

"إن الإحساس الجمالي في الإنسان عميق؛ موصول بدواخل النفس ونظام العقل، حتى إن الفيلسوفة (إلين يسنايك) رأت أن يُسمّى جنس الإنسان العاقل باسم *Homo Aestheticus* **(الإنسان الجمالي)، إذ الإحساس بالجمال واحد من أعظم المكونات النفسية للإنسان**«. **انتهي** [٥٧]

البعد الأعمق للبرهان: إحساسك بالجمال في داخلك، وجمال الكون في الخارج

لكن هناك جانبًا أعمق من مجرد وجود إحساس بالجمال في الإنسان.

---

[٥٧] Ellen Dissanayake, Homo Aestheticus: where art comes from and why (Seattle: Univ. of Washington Press ٢٠١٠)

فالإنسان لا يملك فقط قدرةً على تذوق الجمال، بل يعيش في كونٍ مليءٍ بالألوان والتناسق والأشكال والأصوات التي تتوافق مع هذا الذوق.

وهنا يبرز السؤال :**لماذا يتوافق ما في داخل الإنسان من إحساس بالجمال مع ما في الكون من جمال؟**

لديك عين تحب تدرجات ألوان الغروب، والكون مليء بهذه الألوان.

تحب أصوات البحر، والموج له إيقاع يبعث في النفس السكينة.

تستمتع بالتناسق والجمال، والطبيعة من حولك مليئة بالتناسق في الألوان والأشكال والأصوات.

وهذا توافق لافت بين **الذوق الداخلي والجمال الخارجي**؛ كالتوافق بين القفل والمفتاح، وكالتوافق بين العقل وقوانين الكون التي يستطيع فهمها.

وكأن الإنسان لم يُخلق في كونٍ أعمى عن الجمال، بل في كونٍ يستطيع أن يراه ويتأمله ويتذوقه.

وهنا يأتي الشاهد القرآني: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]

تأمل قوله تعالى :﴿**وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾؛ فالسماء ليست مجرد بناءٍ مادي من نجوم ومجرات، بل فيها زينة وجمال يدركه الناظر ويتأمله.

وكأن الله تعالى لم يخلق كونًا منظمًا يفهمه عقلك فحسب، بل خلق فيه جمالًا تراه عيناك، وتتأثر به نفسك.

فالجمال ليس شيئًا زائدًا عن هذا الكون، بل جانب من جوانب الإبداع في خلقه، ونعمةٌ أودع الله فيك القدرة على إدراكها؛ **فسبحان من أودع فيك الذوق، ثم خلق لك في الكون ما يبهجه.**

***

خاتمه شاملة

وقفة تأمل: براهين تمنع الصدفة وتثبت القصد

١- **برهان الزوجية** – مثال المفتاح والقفل

تخيّل أن ذرات الحديد تجمعت عشوائيًا في صحراء، فكوّنت مفتاحًا معقدًا ودقيقًا، وفي صحراء أخرى تجمعت ذرات أخرى، فكوّنت قفلًا يطابقه تمامًا، ثم التقى المفتاح بالقفل... ففتح بتمام التطابق!

هل ستقول :**صدفة؟** أم أن بداهة العقل ستصرخ في داخلك :**هذا قصد، وتصميم، وتطابق مقصود!**

تذكّر جيدًا هذه القاعدة العقلية: **كلما ازداد التعقيد، وازداد معه التوافق والتكامل بين الأجزاء، ابتعدنا عن تفسير الصدفة والعشوائية.**

فإذا كان مجرد تطابق مفتاح مع قفل يكفي ليدفعنا إلى القول بوجود تصميم وقصد، فكيف بالذكر والأنثى في الإنسان، والحيوان، والنبات؟

إن كل واحد منهما يحمل خصائص وأعضاء ووظائف تتكامل مع الآخر بصورة دقيقة، بحيث لا يقتصر الأمر على مجرد وجود اثنين، بل على **زوجية متكاملة تؤدي وظيفة محددة.**

وليس الأمر في الذكر والأنثى فقط، بل انظر إلى صور الزوجية والتكامل من حولك.

تأمل مثلًا الهواء الذي تتنفسه.

أنت تأخذ الأكسجين لتعيش، وتخرج ثاني أكسيد الكربون، بينما النبات يفعل العكس؛ يأخذ ثاني أكسيد الكربون الذي يخرج منك، ويستخدمه في صنع غذائه، ثم يطلق الأكسجين الذي تحتاج إليه من جديد.

أنت تعطيه ما يحتاج إليه، وهو يعيد إليك ما تحتاج إليه.

ما يخرج منك يصبح غذاءً له، وما يخرج منه يصبح حياةً لك.

وهكذا ترى شبكة هائلة من التكامل بين الكائنات من حولك؛ كل طرف يؤدي دوره، ويكمل الآخر، في نظام مترابط ودقيق.

فهل هذا مجرد تجمع عشوائي لأجزاء منفصلة؟ أم أننا أمام نظام تتكامل فيه الأشياء بصورة تجعل كل جزء منها يؤدي وظيفة، ويخدم وظيفة أخرى، وكأنها وضعت في مكانها عن قصد؟

٢- برهان العقل والكون – لغة واحدة مفهومة

ليس التطابق في "الأجساد" فقط، بل في "العقول والكون." ، عقلك مخلوق قادر على الفهم، والكون مكتوب بلغة مفهومة: قوانين، رياضيات، منطق، ثوابت دقيقة، كأنك تقرأ كتابًا مفتوحًا... ومن قراءته تبني علمًا، وتخترع حضارة، وتُقيم تكنولوجيا، فمن الذي جعل "العقل" أداة فهم؟ ومن الذي جعل "الكون" مكتوبًا بلغة يفهمها العقل؟

هل يمكن للصدفة أن تصنع "كتابًا" من القوانين... ثم تصنع له "قارئًا" يفهمه؟

٣- برهان الضبط الدقيق – الكون المهيأ للإنسان

إنه ليس في داخل جسدك فقط، بل بينك وبين الكون من حولك تناغم مدهش لا يمكن إنكاره:

- تحتاج إلى الطعام ...فتجد الأرض تنبت أنواعه بوفرة وتنوع.

- تحتاج إلى الماء ...فتجد دورة دقيقة تحفظه بين بحر وسحاب ومطر.
- تحتاج إلى الهواء ...فتجد غلافًا جويًا مضبوطًا بنسبة أكسجين مناسبة تمامًا لحياتك.
- تحتاج إلى الضوء والدفء ...فتجد شمسًا على بُعد محسوب، لا أقرب فتحرقك، ولا أبعد فتجمّدك.

إنه تطابق مزدوج بين احتياجاتك الداخلية وبين النظام الكوني الخارجي، لو اختل جزء منه لفسد كل شيء.

والضبط الدقيق لا يقف هنا؛ بل يمتد إلى كل ما يربطك بالحيوان والنبات:

فالطعام الذي تأكله، نباتًا كان أو حيوانًا، مهيأ لك تمامًا، وجسدك مبرمج لهضمه بدقة: الريق يُحلّل النشويات، المعدة تُفكك البروتينات، والصفراء تُذيب الدهون... سلسلة متكاملة محكمة بينك وبين ما تأكل، تكشف عن قصد وتدبير حكيم.

٤- برهان الجمال والذوق – تطابق أعمق

الأمر لا يقف عند حد البقاء المادي فقط، بل حتى وجدانك وذوقك صُمّما ليتطابقا مع جمال الكون:

- تحب التناغم... فتجد الطبيعة متناغمة.
- تميل للألوان المريحة... فتجد غروبًا يبهر العيون بتدرجاته.
- تحب التفاصيل الدقيقة... فتجد جناح فراشة كأنه لوحة مرسومة.
- ترتاح للنظام... فتجد الكون محكومًا بقوانين ثابتة يفهمها عقلك.

لا يمكن لأي عشوائية أن تخلق هذا التطابق المزدوج: بين حاجات جسدك ووفرة ما تحتاج إليه في الكون، وبين ذوقك الداخلي وجمال الطبيعة.

وأيضًا، الجمال ليس بينك وبين الكون فقط، بل ممتد في مخلوقات أخرى؛ فالزهرة في النبات لم تُلوّن عبثًا، بل صُمّمت بألوان زاهية تجذب النحل والفراش، فينقل حبوب اللقاح ويضمن استمرار الحياة والإثمار.

هنا ترى جمالًا مقرونًا بوظيفة، وزينةً مرتبطة بنظام مُحكم .

ونختم بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات)

ويعلّق الدكتور سامي عامري في كتابه *العلم وحقائقه*، في بيان حقيقة التزاوج والتناظر في الكون، قائلًا:

"كشف البحث العلمي عن هيمنة الثنائية على الوجود المادي؛ حتى قال الفيزيائي الشهير فيرنر هايزنبرغ: » تُشكِّل خصائص التناظر دائمًا أهم السمات الأساسية للنظرية العلمية . « إن خالق الكون هو خالق الطبيعة المتناظرة... **وذاك أولًا برهان دقة القرآن، وثانيًا من أعظم الآيات المادية على وجود خالق مريد حكيم؛ إذ لا تصنع العشوائية كونًا متناظرًا في كل أمره!**" انتهي

وبعد أن رأينا هذا التناظر والتكامل العجيب المنتشر في الكون؛ في الحياة، والقوانين، والعقل، والجمال... يبقى السؤال للملاحده :**عن أي عشوائية تتحدثون؟!**

ويكفي أن تتأمّل هذا المشهد، ثم تسأل نفسك :ماذا يخبرك هذا الجمال البديع، وهذا التناسق والإبداع الذي يملأ أرجاء الكون؟؟

قف وتأمل لحظة:

- كيف تجتمع ملايين العناصر المختلفة لتُنتج لوحة طبيعية بهذا الإتقان؟
- كيف تتناغم الألوان والأشكال في نظام واحد لا يختل؟
- وكيف تناغمت هذه القوانين المحكمة — ماءٌ وهواءٌ وضوءٌ وتربةٌ — لتصنع لك حياة، وتفتح لك باب الجمال، وتُظهر لك كونًا مفهومًا تُعمّره بعقلك وإرادتك؟

وأنظر مره أخري وتأمل قوله تعالي (**أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**) النمل(٦٠)

إنه جمالٌ يحمل معنى، ونظامٌ يقود إلى غاية، وتناسقٌ يشهد بأن وراءه خالقًا حكيمًا سخّر هذا كله لك.

وهذا هو المعنى الذي عبّر عنه **الرافعي** رحمه الله في تأمله لجمال الكون، فقال:

»**عندما أتأمل انبثاق الفجر؛ يُخيّل إليّ من جماله وروْعته أن الوجود في سكونه وخشوعه نفسٌ كبرى تستمع مصغيةً إلى كلمةٍ من كلمات الله لم تجئ في صوت ولكن في نور**». انتهي [٥٨]

تأمل هذا المعنى جيدًا :فالجمال الذي تراه بعينيك ليس مجرد صورة تُمتع النظر، بل يمكن أن يكون بابًا يوقظ القلب، ويدعو العقل إلى التأمل في خالق هذا الجمال .فالله سبحانه لا يريد منك فقط أن تدرك النظام بعقلك، بل أن تتذوق الجمال بروحك؛ لأن الجمال بابٌ إلى المعرفة، وطريقٌ إلى الإيمان، ودعوةٌ للقلوب قبل العقول.

ومن هنا يأتي أعظم سؤال: إذا كان قلبك يهتز بهذا الجمال الناقص الزائل في الدنيا، فكيف بلذة النظر إلى وجه الجميل سبحانه في دار الكمال والخلود؟! ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]

أمّا الكافر الجاحد، الذي أعرض عن هذا الجمال الدال على الله، فإنه يُحجب عن أعظم جمال: جمال وجه الله جل جلاله، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

فاختر لنفسك: بين نعيم رؤية الجميل سبحانه... وبين الحرمان والحجاب عنه.

***

[٥٨] الرافعي أوراق الورد (د.ن.، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م)، ص ٣٣

تعقيب: الإنسان بين مأساة الإلحاد و تكريم الإيمان

مأساة الإلحاد

حين تحاول أن تفسِّر حقيقة الإنسان من منظور الإلحاد، وتبحث عن قيمته وغاية وجوده ومصيره، ستجد نفسك أمام مجموعة من الأسئلة المصيرية :**ما حقيقة الإنسان؟ وما قيمته؟ وما غاية وجوده؟ وإلى أين ينتهي مصيره؟**

ولكي لا يكون الحديث عن هذه الأسئلة مجرد انطباعات أو أحكام مسبقة، فلنترك الحديث لأبرز الفلاسفة والمفكرين الذين عبّروا عن هذا التصور، ولننظر كيف وصفوا حقيقة الإنسان والكون والمصير الإنساني.

وقد عبَّر ريتشارد دوكنز – أحد رموز الإلحاد المعاصر – عن هذه النظرة المادية للكون والإنسان، حين يصف حقيقة الوجود في رؤيته قائلًا :

»نحن أبناء الفوضى... في أساس الوجود، لا وجود لغير الفساد، وموج الفوضى الذي لا مثيل له... لقد اندثرت الغاية من الوجود... **هذه هي الكآبة التي يجب علينا قبولها ونحن ندخل بعمق وبشفقة في قلب الكون**«. [٥٩]

يكشف هذا القول عن تصورٍ يرى الوجود خاليًا من الغاية، ويضع الإنسان في مواجهة كونٍ لا يحمل – في ذاته – قصدًا أو معنى متجاوزًا للمادة.

وانظر إلى قول ستيفن هوكينج – وهو أحد أبرز رموز الإلحاد المعاصر – حين يصف الإنسان وموقعه في هذا الكون قائلًا: *"الإنسان ليس سوى* ***وسخ كيميائي*** *على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم عادي في الضواحي الخارجية لأحد المجرات بين مائة مليار مجرة ."*[٦٠]

وهكذا يُختزل الإنسان – في هذا التصور – إلى مجرد مادةٍ كيميائية عابرة، في كونٍ شاسع لا يبدو فيه الإنسان إلا ذرةً صغيرة لا غاية لها.

قيمة الإنسان في ضوء الإلحاد والداروينية

---

[٥٩] Richard Dawkins, Unweaving theRainbow: Science, Delusion and the Appetite for Wonder (New York: Houghton Mifflin, ٢٠١٠), pix.

[٦٠] (Reality on the Rocks: Beyond Our Ken, ١٩٩٥)

وإذا كان الإنسان – في هذا التصور – مجرد مادةٍ عابرة، ووجوده لا يستند إلى غايةٍ متجاوزة للمادة، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو :**ما قيمة الإنسان إذن؟ وما الذي يمنحه مكانةً أخلاقية خاصة؟**

وقد تناول محمد شاهين التاعب – حفظه الله – هذه المسألة في كتابه *منهجية الوصول إلى الحق*، فقال:

"وفق التصور المادي الداروينيِ، نجد أن الإنسان ليست له قيمة أكبر من أي حيوان آخر. وهذا ما وضحه الداروينيِ الملحد الشرس بيتر سينجر حين قال: «**إن حياة الطفل حديث الولادة أقل قيمة من حياة الخنزير أو الكلب أو الشمبانزي.**«

(Peter Singer, Practical Ethics, 1st ed. Cambridge University Press, 1979, pp. 122–123)

وذلك لأنه – في هذا التصور – لا توجد أي قيمة موضوعية للإنسان إلا بمقدار ما يحققه من منفعة مادية. فالطفل حديث الولادة – من هذا المنظور – لا يُنتج ولا ينفع، بينما قد يُستفاد من الحيوان في الطعام أو الحراسة أو غير ذلك.

ويُكمل الفيلسوف الملحد جيمس راشلز هذا التصور حين يتحدث عن المعاقين ذهنيًا، فيُسائل – بناءً على الداروينية – عن مكانتهم الأخلاقية، وهل هي إلا كمكانة الحيوانات؟ بل ويطرح تساؤلات صادمة حول **إمكانية استخدامهم كما تُستخدم الحيوانات: في المختبرات أو حتى كطعام!!**

(James Rachels, Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism, Oxford University Press, 1990, p. 186)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

إن الإلحاد يصل بالإنسان إلى منتهى البشاعة، إذ يهبط بقيمته حتى يُعامَل كأداة أو مادة تُستخدم وتُستهلك! بل قد تصبح فئران التجارب – في هذا التصور – أكثر قيمة من بعض البشر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا نريد الإطالة في عرض هذه التصورات التي تمثل قاع الانحطاط في الفكر الإلحادي الداروينيِ.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

انتهي من كتاب منهجيه الوصول الي الحق

أما مستقبل الإنسان وفق الإلحاد

فوفق الرؤية الإلحادية، المستقبل مأساوي وقاتم:

- كل جهد، وكل اكتشاف، وكل حضارة... محكوم عليها بالزوال.
- لا روح تبقى، ولا حساب، ولا ثواب أو عقاب.
- لا عدالة حقيقية؛ لأن العدالة بلا آخرة تصبح – في هذا التصور – مجرد وهم وسراب.
- الكون بلا رسالة، وكل ما فيه يحدث بلا هدف، محض صدفة عمياء.

وهكذا ينتهي الإنسان في الإلحاد إلى شعور خانق بالعدم:

- عقل وفطرة يطلبان الخلود ↔ ومذهب ينكر الخلود.
- فطرة تتوق إلى العدل والمعنى ↔ ومعتقد يقطع الطريق إلى أي معنى.

ولهذا، فكثير من الملاحدة – رغم إنكارهم – يعيشون في صراع داخلي دائم بين ما تقتضيه فطرتهم وما يفرضه مذهبهم، فيُتركون حائرين محطمين، بلا سكينة ولا أمل.

وقد عبّر عن هذا اليأس الفيلسوف الملحد برتراند راسل، واصفًا حقيقة النظرة الإلحادية للإنسان ومصيره، فقال :

"الإنسان نتاج أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنهاية التي تسعى إليها؛ فأصله ونماؤه وآماله ومخاوفه وحبّه ومعتقداته، كل ذلك ليس إلا نتاجًا **لتواطؤٍ عرضيٍّ للذرات**... وقد قُدِّر له الفناء بفناء النظام الشمسي، **ولا بدّ أن يُدفن المعبد الكامل لإنجازات الإنسان تحت حطام كونٍ منهار**".

(Bertrand Russell, Mysticism and Logic, cited in Mary Poplin, Is Reality Secular?, InterVarsity Press, ٢٠١٤, p.٤٥)

ثانيًا: القيم الأخلاقية في نظر الإلحاد

وكما شرحنا سابقًا في مبحث الأخلاق، ففي الإلحاد لا يوجد معيار مطلق للخير والشر، فكل شيء نسبي، أو نتيجة صدف، أو مصالح شخصية. فالإنسان مجرد جسد وذرات، وقراراته الأخلاقية تراكم كيميائي في الدماغ، بلا غاية أو قيمة حقيقية.

مثال واقعي: النازية

ومن الأمثلة التي تكشف خطورة غياب المرجعية الأخلاقية المطلقة ما شهدته البشرية من جرائم الحركات الإجرامية، ومن أبرزها النازية، التي أظهرت كيف يمكن أن يؤدي غياب القيمة المطلقة – إذا اقترن بأيديولوجيات عنصرية ونظرة مادية للإنسان – إلى انهيار الرحمة والعدل وارتكاب أبشع الجرائم.

- الإنسان مجرد «ذرات تمشي على الأرض.«
- الحياة صراع بقاء للأصلح، والضعيف عبء.
- والنتيجة: ملايين قُتلوا، وأطفال أُسيء إليهم، ومعاقون أُعدموا، والحرب العالمية الثانية حصدت أكثر من ٧٠ مليون إنسان.

وهكذا، فإن غياب الله – في التصور الإلحادي – يعني غياب القيمة المطلقة، وانهيار الرحمة، وفقدان معنى الإنسان نفسه.

وحتى بعض الملاحدة أنفسهم أقرّوا بمأزق الإلحاد أخلاقيًا؛ فأليكس روزنبرج في كتابه *The Atheist's Guide to Reality* يقول:

"لا يوجد شيء اسمه الصواب أو الخطأ الأخلاقي... علينا أن نواجه حقيقة أن العدمية صحيحة".

ومن هنا يمكن أن نفهم الإشكال الأخلاقي بوضوح: إذا غاب الله، غابت الأخلاق المطلقة، وأصبحت القيم – وفق هذا التصور – مجرد مصالح مؤقتة، لا تردع ظالمًا ولا تنصف مظلومًا.

ثالثًا: خلاصة نظرة الإلحاد للكون والحياة

ويُلخّص هذه النظرة أحد أعلام الإلحاد، وهو أليكس روزنبرج، في كتابه *دليل الملحد إلى الواقع*، حيث يجيب فيه عن منظور الإلحاد وأجوبته عن أعظم أسئلة الإنسان.

ويجيب روزنبرج في كتابه قائلًا، عندما سُئل :

- هل يُوجد إله؟ **لا**.
- ما هي طبيعة الواقع؟ **ما تقوله الفيزياء** .
- ما غاية الكون؟ **لا توجد أي غاية**.
- ما هو معنى الحياة؟ **كما سبق**.

- لماذا أنا هنا؟ **ضربة حظ.**
- هل الدعاء مفيد؟ **بالطبع لا.**
- هل هناك روح؟ وهل هي خالدة؟ **أنت تمزح!**
- هل هناك إرادة حُرة؟ **لا، البتة.**
- ماذا يحدث عندما نموت؟ **كل شيء يستمر تقريبًا كما كان من قبل، باستثناء حالتنا نحن.**
- ما الفرق بين الصواب والخطأ، والخير والشر؟ **لا يوجد فرق أخلاقي بينهما.**
- لماذا يجب أن أكون أخلاقيًا؟ **لأن ذلك يجعلك تشعر بأنك أفضل من أن تكون غير أخلاقي.**
- هل الإجهاض، القتل الرحيم، الانتحار، دفع الضرائب، المساعدة الأجنبية، أو أي أمر آخر ممنوع، مسموح، أو إلزامي؟ **كل شيء جائز!!!!!**
- ما هو الحب، وكيف أجده؟ **الحب حل لمشكلة التفاعل الاستراتيجي، لا تبحث عنه، فهو سيجدك عند الحاجة.**
- هل للتاريخ أي معنى أو غرض؟ **التاريخ مليء بالصخب، لكنه لا يعني شيئًا.**
- هل في الماضي البشري أي دروس لمستقبلنا؟ **شيء قليل جدًا، إن وجد أصلاً**[٦١].

وهنا، وبعد أن عرضنا هذه التصورات بأقوال أصحابها، يمكن أن نلخّص الصورة التي يرسمها التصور الإلحادي للإنسان :**إنسان بلا غاية، وحياة بلا خلود، ومصير ينتهي إلى الفناء؛ فالوجود كله يمضي بلا قصد ولا غاية، والإنسان ليس إلا نتاجًا لمادة عمياء، تنتهي قصته بانتهاء حياته.**

وهذا المعنى نفسه لخَّصه الدكتور سامي عامري – حفظه الله – حين بيَّن الفارق الجوهري بين نظرة الإسلام إلى الإنسان ونظرة الإلحاد إليه، فقال :

"يُقرر القرآن في صريح آياته أنَّ الإنسانَ زرعٌ عظيمٌ في هذا الوجود؛ خُلِقَ ليعمر الأرض ويتعارف مع الخلق، ويعبد الرب، وهو إلى التنعيم إن استقام ولم يُعقب على فطرته بحُكْم.

---

[٦١] (*Alexander Rosenberg, The Atheist's Guide to Reality, pp.* ٢-٣)

وأما في سفر الإلحاد؛ فالإنسانُ يُولَدُ ليكون **جيفةً إثر ترقٍّ بيولوجي**؛ مبدؤه جنبات الرحم، ونهايته مع انقطاع الأنفاس... **خُلِقَ ليَمُوت، ويموت لأجل لا شيء**... أنفاسٌ تلهث إلى القبر بلا رجاء، وخطوات تسير به حثيثًا إلى الفناء... **الموت**: انتصار حتمي للكيمياء على البيولوجيا بعودة الإنسان إلى التراب... قوانين صامتة تحرك الوجود بلا عينين، وانحدار سريع وحثيث إلى هاوية الفراغ."

ثم يقول أيضًا:

"فِطرة الإنسان من فِطرة الوجود، فكلٌّ يسير في فلك واحد، في طريق واحد. أما الإلحاد فهو التعبير عن عشوائية الوجود وتشتّته الكريه، الذي يُكدِّر صفوه الأول ".انتهي

وهنا تتضح لنا الصورة التي يرسمها التصور الإلحادي للإنسان والكون: إنسانٌ بلا غاية، وحياةٌ تنتهي بالفناء، ووجودٌ لا يقف وراءه قصدٌ أو حكمة، وإنما هو نتاجٌ لمادةٍ عمياء وقوانين صمّاء.

وفي ختام نظرة الإلحاد إلى الإنسان نقول: إن الإنسان —— بفطرته السليمة —— يعلم أنه ليس مجرد حيوان، ولا كيانًا ماديًا عابرًا؛ بل يشعر في أعماقه أنه **مميَّزٌ ومكرَّم، وأن لوجوده قيمةً تتجاوز حدود المادة.**

ومن هنا ننتقل إلى السؤال الأهم :**إذا كان الإنسان يشعر في أعماقه بهذه القيمة، فمن أين جاء هذا التكريم؟ وما مصدر هذه الكرامة؟** وهنا تأتي النظرة الحقّة إلى الإنسان **...نظرة الإسلام.**

نظرة الإسلام... تكريم الإنسان وعلو منزلته

في الإسلام، أنت أيها الإنسان شيءٌ مختلفٌ تمامًا: أنت مخلوقٌ مكرَّم، نفخَ الله فيك من روحه، وعلَّمك، وفضَّلك، وجعلك خليفةً لله في الأرض، وصوَّرك في أحسن صورة وخلقك في أحسن تقويم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)

وقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن: ٣)

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥)

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)

ولماذا أنت هنا؟ لأجل غاية عظيمة: العبادة، والتزكية، والاختبار، والارتقاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

وهكذا كرّمك الله على نحو استثنائي: أرسل إليك رسلًا، وأنزل لك كتبًا، وبيّن لك الطريق، ووهبك عقلًا حرًا وإرادة مستقلة لا تُساق كالبهائم – أعزكم الله – بل تختار عن وعي ومسؤولية. جعلك خليفة له في أرضه، ومهيأ لتحمُّل الأمانة، ووعدك إن عبدته وشكرته بالخلود الأبدي في الجنة، وهو أهل الثناء والحمد والشكر سبحانه.

ولأن الله وهبك عقلًا يَفهم ويسعى في ملكوته، ولأنك مؤمن أن الكون مخلوق بحكمة مسخَّر لك، فإنك لا تراه جمادًا أصمّ، بل كتابًا مفتوحًا يدعوك للتأمل والتعلّم. تنظر إلى السماء فتخترع أدوات تقيس مساراتها، وتراقب الذرات لتفهم قوانينها، وتسعى لتعمير الأرض لأنك مأمور بذلك، وتدرس المخلوقات وتربط بينها لأنك توقن أن وراءها خالقًا عليمًا حكيمًا.

أنت لا تستكبر على العلم، بل تُقبل عليه؛ لأنك تدرك أن العقل هبة من الله، وأن الكون رسالة منه، وأن العلم سبيل لفهم هذه الرسالة.

وليس فقط عقلك يفهم، بل روحك هي التي تتذوّق وتفرح بجميل صنع الله.

تدرك أن الجمال صادرٌ عن الله، فلا تراه رفاهيةً زائدة، بل نعمةً مقصودة من الرحمن، تهدّئ روحك وسط زحام الحياة.

فتستمتع بما ترى وتسمع وتذوق، لا كمن غرق في الماديات، بل كمن يصغي إلى الألحان التي بثّها الله في هذا الكون شكرًا وامتنانًا.

ترى تدرّج ألوان الغروب، فتدرك أنه لحنٌ بصريٌّ خُلِق لك، وتسمع صوت الموج، فتشعر أنه نغمةٌ سُخِّرت لراحتك، وتتذوّق الطعام، فتشكر من أودع فيه لذّته، وتستمتع بالألحان التي صاغها الإنسان محاكاةً لأصوات الطيور، امتدادًا لذلك النغم الذي بثّه الله في الخلق، وتلمس نسيم الصباح، فتطمئن روحك، كأنه رسالة هادئة من ربك إلى قلبك.

هكذا لا تعيش الجمال استهلاكًا، بل تعيشه انسجامًا مع اللحن الكوني، حيث تتحوّل المتعة إلى شكر، والإحساس إلى عبادة.

وهذا المعنى قرّره القرآن بوضوح؛ إذ بيّن أن الجمال في الكون مقصود للنظر والتأمل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وبيّن أن حتى تفاصيل الحياة اليومية سُخّرت لنا، وفيها جمالٌ يُدركه القلب قبل العين، فقال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

فأنت تستنشق الجمال الذي بثّه الله في الطيبات، وتقول في قلبك: "سبحان من خلق هذا لنسعد به".

فالطبيعة معرض رباني تتذوق فيه جمال صنع الله، وتستمتع بالطيبات وتجتنب الخبائث، فيصفو عقلك وروحك، فتزداد قربًا ومناجاةً لربك، حتى يملأ قلبك الشوق إلى الذكرى الكبرى والنعمة العظمى: رؤية وجه الله في الآخرة.

أما رؤيتك للكون كمؤمن؟

ترى فيه بصمات الخالق... وآثار حكمته... وجمال قدرته.

ترى الشمس تشرق كل يوم بأمره، والقمر يسير في مداره بقدره، والنجوم تهدي في ظلمات البر والبحر بسلطانه.

تتأمل المجرات تدور، والكواكب تصطف، والذرات نفسها تسبح بحمد ربها... كل ذلك وفق نظام محكم، لا خلل فيه ولا عبث.

وتنظر إلى الجمال الذي يفيض به الكون: جمال زهرة تتفتح، جمال الطير في تحليقه، جمال البحر في هديره، جمال الجبال في ثباتها... فتدرك أن هذا الجمال لم يُزرع في الوجود عبثًا، بل هو رسالة رحمة ونعمة من الله لتسكن الأرواح وتستيقظ القلوب.

لكن الأعظم من ذلك أنك لا ترى الكون ككتلة باردة صامتة... بل كموكب عظيم، كله يسير في اتجاه واحد ... الي الله.

المجرات تسجد، الجبال تسبّح، الطيور تسبّح، والملائكة تسبّح... والكون كله في انسجام تام مع غايته الكبرى: عبادة الله والتوجّه إليه.

فما أقبح – بل ما أتعس – أن يكون الإنسان وحده هو الكائن الشاذ الخارج عن هذا النغم الكوني العظيم! أن يعصي ربه بينما كل ما حوله يطيعه، أن يتمرد بينما الوجود كله خاضع.

بل الطبيعي حين يرى هذا المشهد، يستحي أن يكون هو وحده النشاز وسط هذا السيمفونية الكونية المهيبة... فيسارع ليسجد مع الساجدين، ويسبح مع المسبحين، ويتوجه حيث يتوجه كل شيء: إلى الله الواحد الأحد.

الماضي والتاريخ بالنسبة للمسلم

وإذا نظرنا إلى **الماضي والتاريخ**، وجدنا فرقًا آخر بين نظرة الملحد ونظرة المسلم إلى الإنسان وماضيه.

فالملحد الذي يتبنّى التصور المادي يرى أن الإنسان ليس إلا حلقةً متأخرة في سلسلةٍ من التطور؛ بدأ وجوده من المادة، ثم اتحدت مكوّناتها وتفاعلت عشوائيًّا عبر مراحل مختلفة حتى وصلت إلى صورته الحالية، وعلى هذا التصور **فإن أجداد الإنسان يرجعون في النهاية إلى كائناتٍ حيوانية، وهذه الكائنات نفسها ترجع في أصلها إلى المادة الأرضية.**

أما المسلم، فعندما ينظر إلى ماضيه، فإنه لا يرى نفسه مجرد نتيجةٍ لسلسلةٍ مادية عمياء، بل يرى أنه امتدادٌ لموكبٍ عظيم بدأ بآدم عليه السلام، الذي أسجد الله له ملائكته، ثم تتابع فيه الأنبياء والرسل، من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، حتى خُتم بمحمد ﷺ.

فحين ينظر المسلم إلى تاريخه، لا يرى مجرد ماضٍ انتهى، بل يرى نفسه جزءًا من **موكبٍ ممتد عبر التاريخ**، سار فيه الأنبياء والرسل وأهل الإيمان في طريق واحد: طريق التوحيد والعبودية لله.

فأي عزّة، وأي فخرٍ أعظم من أن تكون على نهج هؤلاء الكرام، وأن تكون في ركب هذا الموكب المبارك؟!

إنها ليست مجرد قصةٍ عن الماضي؛ بل طريقٌ يمتد أمامك أيضًا، وينتهي —— بإذن الله —— إلى الجنة، حيث اللقاء بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحيث النعيم المقيم، فلا حزن ولا نصب، بل سرورٌ أبدي وسعادةٌ لا تنقطع.

وكأن القرآن يلخص لنا هذا المصير في قوله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقا﴾]النساء: ٦٩.[

القيم الأخلاقية في الإسلام

أما القيم الأخلاقية في الإسلام، فنجد أنها قيمٌ ثابتة وموضوعية، لا تتبدل بتبدّل الأهواء والمصالح، ولا تخضع لموازين القوة أو رغبات البشر؛ لأن مصدرها الله الحكيم، الذي يعلم ما يصلح للإنسان وما يفسده.

فالخير والشر في الإسلام ليسا مجرد رأيٍ شخصي، إنما لهما معيارٌ ثابتٌ يرجع إلى الوحي؛ فما أمر الله به فهو خير، وما نهى عنه فهو شر، وإن خالف ذلك هوى الإنسان أو مصلحته العاجلة.

وفي الوقت نفسه، فإن هذه القيم الإلهية لا تأتي غريبةً عن طبيعة الإنسان، بل تتوافق مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها؛ فالعدل والرحمة والصدق والكرم قيمٌ تستحسنها النفس السليمة، وتنفر من الظلم والكذب والخيانة والجور.

ومن أعظم الأمثلة على موضوعية الأخلاق في الإسلام :**العدل مع الأعداء.**

فقد يصل الإنسان إلى درجة من العداوة تجعله يميل إلى الظلم والانتقام، وهنا يأتي القرآن ليضع حدًّا للهوى، ويأمر بالعدل حتى مع من نكرههم، قال تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)

فمهما بلغت عداوتك لقومٍ ما، ومهما اشتد بغضك لهم، فلا يجوز أن يدفعك ذلك إلى ظلمهم؛ لأن العدل في الإسلام ليس خيارًا يتوقف على مشاعرك، وإنما هو أمرٌ رباني يعلو فوق الهوى والمصلحة الشخصية.

بل يرتقي الإسلام بالإنسان في باب العدل إلى درجة أعظم؛ فلا يطالبه فقط بالعدل مع من يختلف معه، وإنما يأمره بالعدل حتى عندما يكون الحق على حساب نفسه أو والديه أو أقرب الناس إليه.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)

وهذه الآية تمثل قمة الإنصاف والموضوعية في الأخلاق الإسلامية؛ فهي تأمر الإنسان أن يقيم العدل حتى لو كان ذلك على حساب نفسه، أو والديه، أو أقرب الناس إليه.

فالحق في الإسلام لا يُقاس بالقرابة ولا بالمصلحة، ولا يتغير بحسب الأشخاص والمواقف؛ وإنما يُعرف بالحق نفسه، لأن العدل قيمة إلهية ثابتة لا تتبدل بتبدّل الأهواء.

ولهذا لم تكن الأخلاق في الإسلام أمرًا هامشيًا بل كانت في صميم رسالة النبي ﷺ، وقد لخّص خاتم الأنبياء ﷺ جانبًا عظيمًا من رسالته في قوله: "إنما بُعِثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق"

فكانت الأخلاق في الإسلام أصلًا من أصول الإصلاح، وجزءًا من حقيقة الإيمان ؛ إذ لا يستقيم إيمان الإنسان مع الظلم والخيانة والكذب والاعتداء على حقوق الآخرين.

الخلاصة : الأخلاق في الإسلام ليست نسبية تتغير باختلاف الأهواء والمصالح، بل هي حقٌّ موضوعي ثابت يُلزم الإنسان بالعدل.

فالحق في الإسلام فوق الجميع، ويُقام العدل على الجميع دون أن يتغير بتغير الأشخاص أو المصالح.

هل تنتهي قصة الإنسان بالموت؟

إذا كان الإنسان قد يُظلَم أو يَظلم، وقد يموت قبل أن يرى ثمرة عدله أو يُعاقَب ظالمه، فلو انتهى وجوده بالموت ولم تكن هناك حياة أخرى، لبقيت مظالم كثيرة بلا إنصاف، وتضحيات وآلام كثيرة بلا جزاء؛ فقد يموت المظلوم مظلومًا، ويموت الظالم دون أن يُقتص منه.

أما في الإسلام، فالقصة لم تنتهِ بالموت.

الموت ليس نهاية الإنسان، وإنما هو انتقال من دارٍ إلى دار، ومن حياةٍ مؤقتة إلى حياةٍ باقية، حيث يقوم الناس لرب العالمين، ويُحاسَب كل إنسان على ما قدّم، ويُوفَّى كل ذي حق حقه، ويظهر العدل الإلهي كاملًا لا يظلم فيه أحد.

وهنا تأتي الحقيقة العظيمة التي يقررها الإيمان :**هناك خلود، وهناك جنة ونار، وهناك حساب وجزاء، وهناك عدلٌ مطلق لا يفلت منه ظالم، ولا يضيع فيه حق مظلوم.**

قال الله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)

فتأمل قوله تعالى :﴿**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾؛ فالأجر الكامل ليس في الدنيا، وإنما هناك يومٌ تُوفّى فيه الأعمال أجورها، ويُستوفى فيه العدل، ويُعرف فيه الفائز من الخاسر.

وهناك جنةٌ أعدها الله لعباده المؤمنين، ونارٌ أعدها للكافرين، فلا يستوي من أحسن ومن أساء، ولا يستوي من صبر واتقى بمن ظلم وطغى.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: ٢٨)

وبعد أن عرفنا أن العدل يكتمل يوم القيامة، يبقى سؤال آخر :ما الذي ينتظر المؤمن بعد هذا الجزاء؟ وما الغاية من عمله في الدنيا إذا كان عمره محدودًا؟

الجواب أن المؤمن لا يعمل لجزاءٍ مؤقت، وإنما يعمل لغاية تتجاوز حدود هذه الحياة؛ فهو يعلم أن عمره في الدنيا مهما طال سينتهي، لكن ما ينتظره بعد الموت لا ينتهي .وهذا الخلود يصبح حافزًا له على العمل والصبر، والإحسان إلى الناس؛ **لأنه يعلم أن ما يقدمه في هذه الحياة لن يضيع، بل ينتظره جزاءٌ أبدي.**

أما من يرى أن الموت هو نهاية الإنسان، فتنتهي معه أعماله وآماله وكل ما ينتظره؛ فلا حياة أخرى، ولا خلود.

وهنا تظهر عظمة الخلود؛ فالإنسان مهما طال عمره في الدنيا، فإن حياته محدودة، وكل لحظة فيها تمضي حتى تنتهي، أما نعيم الآخرة فليس مجرد حياة طويلة تمتد لسنوات أو قرون، وإنما هو حياةٌ لا يعقبها موت، ونعيمٌ لا ينقطع، وخلودٌ لا نهاية له ، ولتقريب معنى هذه المدة إلى العقل البشري، تخيّل غرفةً هائلة الاتساع، امتلأت جدرانها وأرضها وسقفها بأوراق لا تُعد ولا تُحصى، وملأنا كل ورقة بأرقام متلاصقة لا تنتهي: ...٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩

ثم تخيّل أننا جمعنا كل هذه الأرقام معًا؛ فسنحصل على رقم هائل تعجز العقول عن تصوره، وقد لا يكفي عمر الإنسان كله لعدّ أصفاره.

ومع ذلك، فإن هذا الرقم – مهما بلغ من الضخامة – يبقى محدودًا؛ لأنه في النهاية عدد له مقدار معين.

أما نعيم الجنة فشيء آخر تمامًا؛ فهو ليس مجرد مدة طويلة جدًا، بل خلود لا نهاية له .فلو جمعنا كل سنوات تاريخ الأرض، وكل أعمار البشر، وكل مليارات السنين التي يمكن أن يتخيلها العقل، فإنها تظل مدة محدودة أمام الأبدية.

وهكذا تتضح المفارقة :أعمال الإنسان في الدنيا محدودة، وعمره محدود، لكن الجزاء المترتب عليها في الآخرة يكون نعيمًا لا ينتهي.

وهذا وعد الله الحق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ (ص: ٥٤)

أي: رزقٌ لا ينفد، ونعيمٌ لا ينقطع، وعطاءٌ لا يصل أهله إلى نهايةٍ له.

فكل ما في الدنيا له نفاد: المال ينفد، والصحة تضعف، والشباب يرحل، واللذة تنتهي، والعمر ينقضي، والإنسان نفسه يموت. أما نعيم الجنة، فليس كذلك؛ إذ لا يمرّ فيه زمنٌ يُقال بعده: انتهى النعيم، ولا تأتي لحظة يخشى فيها الإنسان زوال ما هو فيه.

وهنا تظهر عظمة الجنة في التصور الإسلامي؛ فهي ليست مجرد مكافأة بعد الحياة، بل هي الغاية التي تعطي للحياة نفسها معناها واتجاهها. فالمؤمن لا يعمل في الدنيا من أجل متاعٍ ينتهي بالموت، وإنما يعمل من أجل مصيرٍ أعظم من حدود هذه الحياة، ونعيمٍ لا يقارن بأي نعيم عرفه الإنسان في الدنيا.

وكل ما في الجنة من راحةٍ وسعادةٍ وأمنٍ وطمأنينةٍ ولذة، لا يُقاس بما نعرفه في هذه الحياة؛ لأن أعظم ما في الدنيا مهما بلغ يبقى محدودًا، قابلًا للزوال والانقطاع، بينما نعيم الجنة يجمع تمام السعادة مع دوامها؛ فلا ألم يعقبها، ولا خوف يفسدها، ولا موت يقطعها، ولا نهاية تنتظرها.

ومن هنا تصبح الحياة في الإسلام ذات غاية واضحة :**حياةٌ محدودة تُثمر نعيمًا غير محدود، وعملٌ مؤقت يفضي إلى سعادةٍ أبدية** .وهذا المعنى يمنح الإنسان دافعًا للعمل، ويجعل للخير والتضحية والصبر معنى يتجاوز حدود اللحظة، لأن النهاية ليست الفناء، وإنما الوصول إلى نعيمٍ لا ينتهي.

منطقية الخلود في الإسلام

قد يتساءل الإنسان: كيف يمكن لنعيمٍ مخلوق أن يستمر بلا نهاية؟ وهل الخلود أمرٌ يناقض العقل؟

الخلود في الجنة ليس فكرةً أسطورية ولا خيالًا شعريًا، بل هو أمرٌ منسجم مع الإيمان والتوحيد؛ فالله سبحانه هو الحي الذي لا يموت، وعطاؤه لا ينفد، وقد وعد عباده المؤمنين بالخلود في دار البقاء.

ولتقريب معنى استمرار النعيم إلى الذهن، تخيّل شجرةً لا تموت، ولا تضعف، ولا ينقطع عطاؤها، بل تظل تُثمر ثم تُثمر ثم تُثمر بلا نهاية.

فلو كانت هذه الشجرة موجودةً باستمرار، فهل يُستغرب أن يكون لها ثمرٌ مستمر؟

بالطبع لا؛ لأن الثمر يستمر باستمرار الشجرة، ولا توجد مشكلة عقلية في أن يتجدد الثمر ما دامت الشجرة باقية.

فالمشكلة لا تكون في استمرار الثمر، وإنما في مصدر بقائه.

وهكذا الجنة :يبقى نعيمها باستبقاء الله لها، ويتجدد عطاؤها بلا نهاية؛ لأن الذي يُبقيها هو الله الذي لا يزول.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أمر مهم: الخلود في الجنة ليس ذاتيًا فيها؛ فالجنة مخلوقة، وكل مخلوق محتاج إلى خالقه في وجوده وبقائه، ولا يستطيع أن يستقل عن الله سبحانه.

فلو شاء الله أن يفني شيئًا من خلقه لفني، أما الجنة فقد وعد الله أهلها بالخلود، فبقاء الجنة وأهلها ليس بقوةٍ ذاتيةٍ مستقلة، وإنما بإبقاء الله وإرادته.

وهذا يشبه المصباح الذي لا يضيء بذاته، وإنما يستمر ضوؤه ما دام متصلًا بمصدر الطاقة؛ فإذا انقطع المصدر انطفأ. فكذلك الجنة لا تستمد بقاءها من ذاتها، وإنما تبقى بإبقاء الله لها، وهو الحي الذي لا يموت، والقادر الذي لا تنفد قدرته.

وقد بيّنا في الباب الثالث أن الكون له بداية، وأن العقل يحكم بضرورة وجود مبدأ مطلق بلا ابتداء، قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره؛ وهو الله سبحانه .فما دام الله هو الأول بلا ابتداء، فهو الآخر بلا انتهاء، كما قال النبي ﷺ: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» (رواه مسلم).

أما الجنة فهي مخلوقة لها بداية، وليست أزلية، لكن الله جعل لها البقاء والخلود، وأبقاها بقدرته ومشيئته؛ فخلودها ليس من ذاتها، وإنما من إبقاء الله لها.

الفرق بين الماضي والمستقبل

وهنا ينبغي التفريق بين أمرين حتى لا يختلط **الخلود في المستقبل بالأزلية في الماضي**.

ولتقريب ذلك، تخيّل شخصًا بدأ يومًا ما بالجري، ثم استمر في زيادة المسافة دون توقف. فمهما بلغت المسافة التي قطعها، يمكنه دائمًا أن يضيف إليها مسافة أخرى؛ لأنه بدأ من نقطة محددة، والامتداد هنا يقع إلى الأمام في المستقبل.

والدليل على إمكان هذا الامتداد بلا نهاية: أعطني أي رقم مهما كان كبيرًا، وسأستطيع دائمًا أن أضيف إليه أرقامًا أخرى، فيستمر العدد في الزيادة دون أن نصل إلى «آخر رقم». وهكذا يمكن أن يمتد الشيء إلى المستقبل بلا نهاية؛ لأنه بدأ من نقطة محددة، ثم يستمر في الزيادة.

أما لو قيل إنه كان يجري منذ الأزل بلا بداية، ووصل الآن إلينا بعد أن قطع هذا الماضي الذي لا بداية له، فهنا يختلف الأمر؛ لأننا نفترض أنه قطع بالفعل مسافة لا متناهية قبل أن يصل إلى لحظتنا الحالية، أي أننا نجعل الحاضر يأتي بعد عبور ماضٍ لا بداية له.

فالفرق إذن واضح :**الامتداد بلا نهاية بعد بداية أمر ممكن التصور، أما الامتداد بلا بداية في الماضي فهو أمر مختلف تمامًا.**

تطبيق ذلك على الجنة

والجنة كذلك: لها بداية؛ فهي مخلوقة وليست أزلية، ويدخلها المؤمنون في وقتٍ معلوم عند الله، ثم يستمر نعيمهم بلا نهاية.

فكل لحظة تنقضي يتبعها لحظة أخرى، ثم أخرى، وهكذا بلا توقف، دون أن يصل أهل الجنة إلى "آخر يوم نعيم."

فلو سألت أحد أهل الجنة :**منذ متى وأنت في النعيم؟** لقال: منذ دخلت الجنة.

ولو مرّت مليارات السنين، فسيظل لنعيمه بداية، لكنه لن يصل أبدًا إلى نهايته.

ولن يقول: "أنا أتنعم منذ الأزل"، لأن الأزلية المطلقة لله وحده، أما أهل الجنة فمخلوقون ولهم بداية.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

»كان الله ولم يكن شيء غيره« (رواه البخاري)

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر: ٦٢)

وهكذا يتضح أن **الخلود في الجنة لا يعني أنها أزلية، وإنما يعني أن لها بداية ولا نهاية لها؛** فهي مخلوقة، لكنها باقية بإبقاء الله، ونعيمها مستمر بعطائه الذي لا ينفد.

فالأزلية لله وحده، أما الخلود الذي وعد الله به أهل الجنة فهو خلودٌ له بداية، لكنه بلا نهاية.

خاتمة الفقرة: التوحيد والخلود

يتبيّن لنا أن نعيم الجنة أبديّ لا ينقطع، لكنه ليس بلا بداية، بل يبدأ من لحظة الخلق ويستمر بقوة الله، معتمد على الحي الذي لا يموت سبحانه .

فهو خلود منسجم مع العقل، ومنسجم مع التوحيد، لأنه يذكّر أن الله وحده الأزلي الأبدي، وكل ما سواه حادث ومخلوق.

ونلخّص الغاية والمصير للمؤمن: نعيم الجنة؛ حيث راحةٌ تملأ القلب، وسعادةٌ تغمر الروح، وأمنٌ لا ينقطع، وطمأنينةٌ لا تعرف خوفًا ولا حزنًا. فيها الطيبات تتجدّد كل لحظة، والسرور يزداد كل يوم، والنعيم أبديّ لا يفنى ولا يزول. يسعد أهلها بلا تعبٍ ولا عناء، ويزداد قربهم من الله، فيعيشون الفرح الكامل والطمأنينة المطلقة.

بينما حياة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر تمضي بلا غايةٍ في نهاية الطريق، ولا مصير يُسعد قلبه أو يطمئن روحه؛ حياةٌ محدودة بلا أفقٍ أبدي، لا يجد فيها طمأنينةً مستقرة ولا فرحًا دائمًا كما يجده المؤمن في وعد الله.

ومن هنا يصبح هذا النعيم الأبدي هو العدسة التي نفهم بها كل مشهدٍ مؤلم؛ فليست الأحداث متفرقةً بلا معنى، بل حلقاتٌ في طريقٍ ينتهي بعدلٍ كامل ورحمةٍ شاملة.

فالطفل الذي مات قبل أن يذوق من الدنيا شيئًا، في ميزان الإيمان لا تضيع قصته، بل يُعوَّض بنعيمٍ أبدي لا ينقطع، **حيث الرحمة المطلقة والعدل الكامل.**

والذي ابتُلي بمرضٍ أو ألمٍ أو فقدٍ أو محنة، لا تذهب لحظاته هدرًا، بل يُكتب له أجرٌ بغير حساب، ويُجازى على كل لحظة صبر، كما وعد الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

واستشعر جمال قوله ﷺ: "ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همّ، ولا حزن، ولا أذى، ولا غمّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه» [متفق عليه].

ومن هذا الفهم تنبع الصلابة النفسية عند المؤمنين، والصبر العميق، والرضا الهادئ؛ فهي ليست مشاعر عابرة، بل ثمرة رؤيةٍ إيمانيةٍ شاملة للوجود، تعطي للألم معنى، وللمعاناة غاية، وتربط كل ذلك بالعدل الإلهي والمصير الأخروي.

بينما تعجز الفلسفات المادية عن تقديم هذا التوازن؛ لأنها تنظر إلى الأحداث مقطوعةً عن نهايتها، فتفقد معناها ولا تكتمل صورتها.

وهكذا يقدّم الإسلام صورةً متكاملة للعدالة الحقيقية: عدالةٌ لا يفلت منها ظالم، ولا يُضيَّع فيها حق مظلوم، وعدالةٌ تمتد مع الخلود؛ لتشبع شوق الإنسان الفطري إلى جزاءٍ كاملٍ وعادل.

ومن هنا كان الإسلام دين الفطرة، لأنه يحقق أعظم مطلبين مغروسين في أعماق الإنسان:

مطلب العدل المطلق الذي تطمئن له النفس وتسكن إليه، **ومطلب الخلود الأبدي** الذي تتطلع إليه الفطرة ولا تكتفي بدونه.

وهذان المطلبان ليسا فكرة طارئة، بل جزء من تكوين الإنسان نفسه؛ لذلك لا يستقر القلب إلا بهما، ولا يهدأ العقل إلا إذا وجد لهما جوابًا واضحًا.

أما في الإلحاد:

فلا يكتمل مفهوم العدل من الأصل؛ تموت القصص قبل أن تُنصف، وتنتهي الحكايات قبل أن

تُفهم.

مات مظلوم؟ انتهى.

مات صغير؟ انتهى.

مات مقهور؟ انتهى.

بلا حساب، بلا عدل، بلا غاية.

وهنا تظهر المأساة الحقيقية؛ إذ تبقى الأحداث ناقصة، والمعاني مبتورة، فيقع الإنسان في حيرةٍ داخلية عميقة، لأنه يرى الألم ولا يرى نهايته، ويشهد الظلم ولا يجد له ميزانًا يُعيده إلى موضعه.

أما المؤمن، فيرى المشهد كاملًا؛ يصبر على ألمٍ مؤقت، لأنه يثق في عدلٍ لا يضيع، ونعيمٍ لا ينتهي، ولقاءٍ يُتمّ كل معنى.

ومن هنا يتضح أن الدين ليس فكرةً ثانوية، **بل هو ضرورةٌ وجودية لإنسانٍ يبحث عن معنى، ويضيق بالعبث، ويتوق إلى العدل والخلود.**

فالدين هو الضمان الحقيقي للعدل الإلهي؛ لأنه لا يحبس الإنسان داخل حدود الدنيا، بل يربطها بالآخرة، فتتضح الصورة الكاملة للمصير والجزاء. فالإيمان بالآخرة هو الذي يكتمل به معنى العدل الإلهي؛ فالله سبحانه كاملٌ منزهٌ عن كل نقص، وعدله مطلق، لكننا نرى في الدنيا مظالم لا يُقتصّ فيها من الظالم، وحقوقًا لا ينالها أصحابها. لذلك كان لا بد من حياةٍ أخرى يكتمل فيها العدل، ويُحاسَب فيها الظالم، ويأخذ فيها كل ذي حقٍّ حقه.

كما أن الدين يمنح الإنسان إطارًا أخلاقيًا ثابتًا، وبوصلةً واضحة تحميه من الضياع وسط الأهواء والنسبية التي تفتت القيم.

وهو أيضًا هدايةٌ ربانية تُنير الطريق في ظلمات الجهل والهوى، وتمنح الإنسان منهجًا متكاملًا للحياة، يوازن بين الروح والجسد، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة. وبدون هذه الهداية، يبقى الإنسان مشتتًا بين رغباته وتناقضاته، بلا غاية واضحة ولا طريق ثابت.

والأعظم من ذلك أن الدين يعرّف الإنسان بربه حق المعرفة، فيتعرّف إلى الله بأسمائه وصفاته كما عرّف بها نفسه، فيمتلئ قلبه تعظيمًا ومحبةً وخشيةً ويقينًا.

وهذا كله يتجلّى في الإسلام بوصفه دين الفطرة؛ فهو يجمع بين العقل والإيمان في انسجامٍ كامل، يُشبع العقل بالبرهان، ويُطمئن القلب باليقين، ويرتقي بالإنسان نحو الكمال الذي خُلق له.

فهل يرضى العاقل أن يسلك طريق الحيرة والضياع، أم يتبع طريق الحق واليقين؟

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]

فهذا هو طريق الهداية، ومنهج النجاة، وكلام الحق الذي لا يأتيه الباطل، وهو الرحمة والنور والشفاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]

وقفات في شمول التصور الإسلامي للحياة:

سبق أن تبيّن لنا كيف كرّم الإسلام الإنسان، وعرّفه بربه، ومنحه غايةً واضحة ومستقبلًا ممتدًا ونعيمًا لا ينتهي إن هو عبد ربَّه وشكره، ووعده بعدلٍ لا يُظلم فيه أحد يوم القيامة، لكن يبقى السؤال: هل اكتفى الإسلام بهذا البناء المعنوي والتكريم العظيم؟ وهل ترك واقع الحياة بما فيه من ظلمٍ ومشكلات دون علاج؟

الجواب: أن الإسلام لم يكتفِ ببناء الإنسان فحسب – مع عظم هذا البناء وعلوّ شأنه – ولم يقل للمظلوم: انتظر الآخرة لتُردّ حقوقك، بل جاء بمنهجٍ شامل يعالج حياة الإنسان من جميع جوانبها، ويقيم التوازن بين الإيمان والعمل، وبين الآخرة والدنيا؛ لأنه دين الله الذي يعلم خَلْقه وما يصلحهم.

وسنقف مع هذا الشمول من خلال أربع زوايا رئيسية:

أولًا: الجهاد وحماية المستضعفين

ثانيًا: الحرية والكرامة الإنسانية

ثالثًا: إقامة العدل في الأرض

رابعًا: العلم والعمل وجعل الدنيا مزرعة الآخرة

أولًا: الجهاد وحماية المستضعفين

من عظمة الإسلام أنه لا يكتفي بطمأنة المظلوم بوعد الآخرة، ولا بتهديد الظالم بعقابٍ مؤجل، ثم يترك الواقع كما هو؛ بل جعل من أسباب دخول الجنة أن يدافع المسلم عن دينه ونفسه وماله وعِرضه ، عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "من قُتِلَ دون ماله فهو

شهيد، ومن قُتِلَ دون أهله، أو دون دمه، أو دون دينه فهو شهيد". [صحيح] – رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد.

وجاءت آيات الجهاد لتؤكد هذا المعنى،فالدين الحق ليس أفيون الشعوب كما زعم كارل ماركس ، بل حمّل أتباعه مسؤولية مقاومة الظلم، والدفاع عن المستضعفين، ومواجهة العدوان، والعمل على إقامة العدل في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ **وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] ، تُظهر الآية أن الإيمان في الإسلام ليس موقفًا سلبيًا أمام الظلم، بل مسؤولية تُحرّك الإنسان لنصرة المستضعفين ودفع الظلم عنهم.

وقال سبحانه: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ **(النساء: ٨٤)**

وهذه الآية ليست استثناءً، بل القرآن مليء بالآيات التي تؤكد هذا المعنى؛ فالإيمان في الإسلام لا يعني الاستسلام للظلم، وإنما يدفع المؤمن إلى مقاومته، ونصرة المظلوم، والدفاع عن الحق، كلٌّ في موضعه وبما شرعه الله.

ثانيًا: الحرية والكرامة الإنسانية :

من عظمة الإسلام أنه لم يكتفِ بأن يخبرك أنك مكرَّم — ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ — وأنك خليفة في الأرض، وهي منزلة عظيمة لا تُقارن بمن يختزل الإنسان في كونه مجرد حيوان؛ بل قرن هذه الكرامة بمعانٍ عملية، فجعل الحرية والعدل وصيانة الكرامة من أعظم مقاصد الشريعة، ووقف في وجه الاستبداد والطغيان.

ويتضح هذا المعنى في دعوات الأنبياء عليهم السلام؛ فلم تكن مجرد دعوة عقدية، بل كانت دعوة للتحرر أيضًا، فدعوة نبي الله موسى عليه السلام إلى فرعون بدأت بتعريفه بالله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم جاء بعدها مباشرة مطلب تحرير بني إسرائيل من هذا الاستعباد: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

ففرعون لم يكن طاغيًا في عقيدته فقط، بل كان طاغيًا على الناس أيضًا؛ استعبدهم، وأذلهم، وسلبهم حريتهم، وجعل نفسه متسلطًا على رقابهم. ولذلك جاءت رسالة موسى عليه السلام لتواجه هذا الطغيان، وتعيد للإنسان كرامته وحريته، وتحرره من عبودية البشر.

فالإيمان بالله هو الأساس، وتحرير الإنسان من الظلم هو ثمرة من ثماره؛ إذ إن الإنسان الذي عرف أن الله وحده هو الرب والمعبود، لا ينبغي أن يخضع لظلم طاغيةٍ يجعل نفسه فوق الناس. وهكذا يحرر الإسلام الإنسان من عبودية البشر، ويحفظ له كرامته، ويقف في وجه الاستبداد والطغيان.

ثالثا : إقامة العدل في الأرض:

بعد أن تبين أن الأخلاق موضوعية وثابتة، وليست نسبية تخضع للأهواء والمصالح، يظهر جانبٌ أعمق من عظمة هذا الدين في باب الأخلاق.

فالإسلام لا يتعامل مع الأخلاق باعتبارها مجرد قيم مثالية تُذكر في الكلام، ولا يجعلها مجرد مشاعر داخلية أو صفات معنوية معزولة، بل **يربطها مباشرة بالله سبحانه:** بالحق، والعدل، والرحمة، والحكمة. لذلك فالأخلاق في الإسلام ليست منفصلة عن الإيمان، بل هي انعكاس له؛ فكلما ازداد قرب الإنسان من الله، ظهر ذلك في أخلاقه وسلوكه.

فالرحمة ليست مجرد سلوك اجتماعي، بل هي أثر من آثار اسم الله "الرحمن"، والعدل ليس فكرة بشرية مجردة، بل هو امتداد لاسم الله "العدل"، وكذلك الصدق والأمانة وسائر القيم، ليست معاني نظرية، بل طرق عملية يتقرب بها العبد إلى الله ويطلب بها رضاه.

لكن جمال الإسلام لا يقف عند الإيمان بهذه القيم فقط، **بل يتجاوز ذلك إلى تحويلها إلى واقع يُعاش.** فلم يأتِ الإسلام ليقول: "كن عادلًا" فحسب، بل جاء ليُقيم العدل، ويمنع الظلم، ويجعل للحق سلطانًا في حياة الناس.

ولهذا حمّل الإنسان مسؤولية الخلافة في الأرض، ليكون شاهدًا على هذه القيم بأفعاله قبل أقواله، وليكون وجوده سببًا في نشر العدل والرحمة بين الناس.

ومن هنا جاءت النصوص لتؤكد هذا المعنى، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، فالحكم بالحق ليس فكرة تُقال، بل مسؤولية تُترجم إلى عدلٍ يُقام، وظلمٍ يُرفع، ولهذا كانت من مهامّ الرسل الأساسية: إقامة القسط والعدل بين الناس، وضبط القيم الأخلاقية في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ** ﴾ **الحديد (٢٥)**

فالكتابُ والميزانُ هما اللذان يجعلان الأخلاقَ موضوعيةً تُطبَّق على الجميع، لا نسبيةً تحرّكها الأهواء والمصالح كما نرى في واقع العالم اليوم. ولا أوضح من ذلك من الظلم البيّن الذي نراه في شتّى بقاع الأرض؛ ظلمٌ ما كان ليقع لو التزم الناس بميزان الله وعدله. وهذا الظلم نفسه شاهدٌ على ما يمكن أن تصنعه النسبية حين تنفصل الأخلاق عن الحق والعدل.

ولهذا كرّم الله الإنسان وحمّله أمانة الخلافة في الأرض، وهذا التكريم ليس شرفًا مجردًا، بل مسؤولية أيضًا؛ فالإنسان مطالب بأن يلتزم بالهداية التي أنزلها الله، وأن يترجم تعاليم الإسلام إلى أقوال وأفعال، وأن يسعى إلى إقامة العدل والرحمة في الأرض. فالله سبحانه وتعالى جعل الإنسان مسؤولًا عن هذه الأمانة، ومطالبًا بأن يكون سببًا في نشر الخير والهداية بين الناس، وأن يعيش وفق القيم التي أمر الله بها :**الكرامة، والعدل، والرحمة، والهداية.**

ولهذا قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فخيرية الأمة الإسلامية تكمن في كونها، في الأساس، حاملة رسالة، وموكّلة بواجب التبليغ، وأمينة على أن تكون مثالًا يُحتذى به.

يقول الله عز وجل :﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)

يبين الله تعالى أنه لولا أن يُسخّر من عباده من ينصر الحق ويكفّ الباطل، لعمّ الفساد في الأرض، ولضاعت القيم واختلطت الموازين، فلا يُعرف الظالم من المظلوم، ولا يتميز الحق من الباطل، فيسود الاضطراب دون وعي الناس.

ولكن بدفع الله الناس بعضهم ببعض، تتجلى الحقائق وتظهر القيم، ويتميز الصف: من مع الحق ومن مع الباطل، ويكون في ذلك ابتلاءٌ لأهل الإيمان ليُظهر صدقهم وثباتهم، ثم يكون التمكين لمن صبر وصدق، ومن هنا، ومع ما يمر به الناس من فتنٍ وابتلاءات، فإن وعد الله قائم بأن يُظهر الحق ويُقيم العدل، على أيدي عباده الصادقين الذين ثبتوا على الحق وصبروا على البلاء، فيملأ الله بهم الأرض عدلًا ورحمةً بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا، كما بشّر بذلك النبي ﷺ.

وسبحان الله دائمًا وأبدًا بهذا التدافع ينكشف أهل الحق من أهل الباطل، وبه يميّز الله الخبيث من الطيب.

وخلاصة ما سبق، أن هذا التدافع سنةٌ ربانية لحفظ الأرض من الفساد، وليس صراعًا عبثيًا من أجل القوة أو الهيمنة.

وقد جاء في كتاب »**ركائز الإيمان** «بيانٌ لهذا المعنى، حيث يقول:

"*إن صراع البقاء لمجرد البقاء، أو من أجل الغلبة والسيطرة بغير قيم ولا أخلاق، وهو السائد في عالم اليوم، لهو صراع مدمر؛ لأنه هو الذي جعل شريعة الغاب هي العملة المتداولة بين الشعوب، القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

بينما التدافع الذي قرره الله وجعله من سننه هو تدافع الخير والشر، الذي ينتهي بغلبة الخير والقضاء على الشر. والله يمن على عباده بأنه جعل من سننه أن يوجد في الأرض أهل حق وأهل إيمان وأهل صلاح، يدفع الله بهم أهل الباطل، فيزهق الباطل وينتصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد، أو في القليل ينحسر الفساد فلا يصبح هو المسيطر.

وتلك كانت مهمة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، والأمة الوسط التي تكون شاهدة وقائدة ورائدة لكل البشرية. وإن غياب هذه الأمة عن الساحة لهو الكارثة الكبرى التي أصابت البشرية بما أصابها من فشو الفساد في الأرض، وفشو الظلم والاستبداد وصنوف الانحراف، ويكفي منه السيطرة العالمية لليهود والعولمة التي تريد أن تفرض الظلم الاقتصادي والانحلال الخلقي في الأرض.

كلا، ما أبعد سنة الله التي تهدف إلى حفظ الأرض من الفساد عن أعراف البشر الضالة في عصر عبادة الشيطان، التي تجعل الفساد هو الغالب في الأرض*"! **انتهى الاقتباس**.

وخلاصة هذه الفكرة الثالثه : أن الإسلام ليس إيمانًا نظريًا مجردًا، بل هو منهج حياة ومسؤولية، يجعل الأخلاق واقعًا يُرى، لا مجرد شعارات تُقال. فالمسلم الحق هو من تتحول قيمه إلى أثرٍ في الناس: عدلٌ يُقام، ورحمةٌ تُنشر، وصدقٌ يُرى، وإحسانٌ يُعاش.

رابعًا: العلم والعمل وجعل الدنيا مزرعة الآخرة:

من عظمة الإسلام أنه لم يأتِ ليعزل الإنسان عن الدنيا، ولم يجعل العبادة في ترك الحياة والانقطاع عنها، بل جعل الدنيا ميدانًا للعمل، والآخرة دارًا للجزاء. فالمؤمن يعيش في الدنيا، ويتعلم فيها، ويعمل، ويتزوج، ويطلب الرزق، ويعمر الأرض، وينتفع بما أحل الله له، لكنّه لا يجعل شيئًا من ذلك غايته النهائية؛ بل يجعل كل ذلك **وسيلةً لطاعة الله وبلوغ رضوانه**.

فالدنيا في الإسلام ليست غايةً تُعبد، وليست شيئًا يُهمل، وإنما هي **مزرعة الآخرة**؛ يغرس فيها الإنسان أعماله، ثم يحصد ثمرتها يوم القيامة. ولذلك لم يفصل الإسلام بين العلم والعمل، ولا

بين العبادة والحياة، بل جعل الإنسان قادرًا على أن يحوّل حياته كلها إلى عبادة إذا صلحت نيته واستقام عمله.

فدعا الإسلام إلى العلم، لأن العلم يهدي الإنسان إلى معرفة ربه ومعرفة الحق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟** ﴾ **(فاطر: ٢٨)**

وكذلك دعا الإسلام إلى العمل وعمارة الأرض، ولم يجعل الإنسان مجرد متعبدٍ منعزل عن الحياة، بل جعله مسؤولًا عن إصلاحها والانتفاع بخيراتها. قال تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ **وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ **(هود: ٦١)**

وأيضا اباح له الطيبات ولم يُحرّم الإسلام على الإنسان أن يستمتع بما أحل الله له من الطيبات، بل أنكر تحريمها بغير حق، فقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ **(الأعراف: ٣٢)**

فالإسلام لا يحارب فطرة الإنسان ولا يطالبه بأن يعيش ضدها، وإنما يهذبها ويوجهها؛ فيبيح الطيبات، ويحرّم الخبائث، ويضع للإنسان حدودًا تحفظ عليه دينه ونفسه وعقله وكرامته.

ومن هنا شجّع الإسلام على الزواج وتكوين الأسرة، وجعل في ذلك سكنًا ومودةً ورحمةً وعفة، بل يتحول اللهو المباح إلى عبادة يؤجر عليها الإنسان إذا صلحت نيته. وهكذا لا يجد المسلم نفسه مضطرًا إلى الاختيار بين أن يعيش حياته أو أن يعبد ربه؛ **لأن الإسلام جعل حياته نفسها ميدانًا للعبادة.**

وهكذا يجمع التصور الإسلامي بين الإيمان والعمل، وبين العلم والتطبيق، وبين عمارة الدنيا والاستعداد للآخرة، وبين حاجات الجسد وسمو الروح؛ فيعيش الإنسان حياةً طيبةً متزنة، وهو يعلم أن هذه الحياة مهما طالت فإنها طريقٌ إلى الحياة الأبقى.

وخلاصة التصور الإسلامي للوجود :أنه رؤية متكاملة للحياة لا تفصل بين الإيمان والعمل، ولا بين الدنيا والآخرة، ولا بين العبادة وعمارة الأرض، **يجمع بين الحياة الطيبة الكريمة في الدنيا، ونعيم الجنة الأبدي في الآخرة.**

خاتمة المبحث:

الإنسان بطبيعته لا يقبل أن تكون حياته بلا معنى، ولا أن يكون وجوده عبثًا بلا غاية أو مصير، هو مخلوقٌ يبحث عن المعنى والقيمة، ويطلب العدالة، ويحنّ إلى الكمال والخلود.

ولا يجد هذا الاكتمال إلا في الإسلام؛ حيث تتضح الغاية، ويستقيم الطريق، ويطمئن القلب بعدلٍ مطلق، ويمتد الأمل إلى خلودٍ لا ينتهي.

فهل يُعقل أن يُعرض الإنسان عن هذا كله، ويرضى أن يكون مجرد مادة متطورة عابرة بلا هدف؟!

أم يعود إلى فطرته فيقول كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] ، فتلخّص هذه الآية طريق الإنسان كله في كلمات قليلة: من أين جاء؟ من الله، لماذا يعيش؟ لعبادة الله، وإلى أين يرجع؟ إلى الله للحساب والجزاء.

ونختم بقوله تعالي : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]

وفي المقابل يقول سبحانه:﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]

فمن عرف الله عرف سرّ وجوده، وغاية حياته، وإلى أين المصير؛ فاستقرت نفسه، واطمأن قلبه، وثبت في طريقه.

وهكذا يبقى الفرق بين الإيمان والإلحاد فرقًا بين من عرف لماذا وُجد، وإلى أين يسير، وبين من يرى الحياة رحلةً عبثيةً بلا غاية، ولا رسالة، ولا مصير.

ولعل خير ما نختم به هذا المبحث ما سطَّره الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان منزلة الإنسان في الإسلام، إذ قال:

»اعلم أن الله سبحانه اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته، وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سمواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته – الذين هم أهل قربة – استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فالإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذه عدوًا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان خير البرية على الإطلاق، وخيره الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله، ولم يشعر به«... انتهي [٦٢]

***

التوحيد ضرورة عقلية لا مفر منها

من الكون المحدود... إلى الإله الواحد الكامل

لقد أثبتنا بالأدلة العقلية أن هذا الكون مخلوق محدود، وأن كل محدود لا بد له من خالق مطلق كامل أوجده من العدم، وهذه حقيقة عقلية لا مفر منها. وبفضل الله، قد بسطنا هذه الأدلة بسطًا وافيًا.

لكن يبقى السؤال: هل هذا الخالق واحد أم يمكن أن يكون هناك أكثر من إله؟

أولاً: الكمال المطلق يمنع وجود شريك

منطقيًا، لو افترضنا وجود إلهين أو أكثر، فلا بد أن نسأل: هل يمكن أن تختلف إرادتهم أم تتفق؟

١- لو اختلفوا في الإرادة : أي أن أحدهم أراد حياة إنسان، والآخر أراد موته.

هنا نجد أنفسنا أمام محالات عقلية ثلاث لا رابع لها:

- الاحتمال الأول: أن يتحقق ما يريدانه معًا، ولو كان متناقضًا. وهذا مستحيل عقليًا، لأن ذلك يعني اجتماع الشيء وضده في الوقت نفسه، مثل أن يكون العالم موجودًا وغير موجود معًا، وهذا محال.

---

[٦٢] مدارج السالكين (١/٢١٠)

- الاحتمال الثاني: ألا يتحقق مراد أي منهما، وهذا مستحيل أيضًا، لأن ذلك يعني فشل قدرة الاثنين معًا، والعجز يناقض صفة الألوهية.
- الاحتمال الثالث: أن يتحقق مراد واحد منهما فقط، والآخر عاجز عن تنفيذ إرادته، وهذا يعني أن أحدهما عاجز، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا.

وهذا ما قاله الإمام الباقلاني:

"لو اختلف إلهان فأراد واحد حياة إنسان وأراد الآخر موته، فإما أن يحدث الأمران معًا (وهذا مستحيل)، أو لا يحدث أي منهما (وهذا عجز)، أو يحدث أمر واحد دون الآخر (وهذا يثبت أن الثاني عاجز)، والعاجز لا يكون إلهًا[٦٣]".

٢-لو اتفقوا دائمًا

أي: اتفقوا على فعل واحد مشترك في الكون، فنواجه محالات عقلية أخرى:

- إذا شاركوا جميعًا في تنفيذ نفس الفعل، فكل واحد منهم سيكون محتاجًا للآخر حتى يتم الفعل، والاحتياج يدل على النقص، والنقص ينافي الكمال المطلق، فكيف يكون الإله ناقصًا وهو كامل؟
- وإذا قام أحدهم بالفعل وحده، فلن يكون للآخر أي دور حقيقي، وهذا يعني أن وجود الآخر بلا فائدة، ووجود شريك بلا أثر هو عبث يتنافى مع الحكمة والكمال اللذين يقتضيهما الإله الحق.

وملخّص هذه الجزئية ما أوضحه ابن تيمية رحمه الله حين قال:

"لو اشترك إلهان في فعل، فإما أن يكون كل واحد مستقل بالفعل، وفي هذه الحالة لا يحتاج لشريك، ووجود الآخر بلا فائدة، أو لا يكون مستقلًا ويحتاج للآخر، والمحتاج ناقص لا يصلح أن يكون إلهًا[٦٤]".

٣- **الخلاصة العقلية** : وجود أكثر من إله يؤدي حتمًا إلى واحدة من ثلاث نتائج:

- تناقض مستحيل التحقق.
- عجز ينافي الألوهية.
- احتياج ينفي الكمال المطلق.

---

٦٣ الباقلاني , تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ص ٤٥

٦٤ ابن تيميه , مجموع الفتاوي ٢٠/٩٧

والإله الحق لا يتصف بالتناقض ولا بالعجز ولا بالاحتياج، إذًا من المحال وجود أكثر من إله كامل مطلق، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]

ثانيا : وحدة الكون دليل على وحدانية الله

لو نظرت حولك، من أدق جزء في الذرة إلى أبعد المجرات، ستجد أن القوانين التي تحكم كل ذلك واحدة، وأن الثوابت الكونية ثابتة في كل مكان وزمان.

- قانون الجاذبية الذي يحكم حركة الكواكب في مجموعتنا الشمسية هو نفسه الذي يحكم المجرات على بعد ملايين السنين الضوئية.
- سرعة الضوء، وكتلة الإلكترون، وثوابت الطبيعة كلها لا تتغير مهما اختلف المكان أو الزمان.

لو كان هناك أكثر من إله، فمن الطبيعي أن يكون لكل واحدٍ منهم سلطانه وقوانينه الخاصة، وهذا يعني اختلافًا واضطرابًا في القوانين.

لكن الواقع الذي نراه هو نسيج كوني واحد متناسق من أوله إلى آخره، بلا أي انقطاع أو اضطراب.

الكل خرج من إرادة واحدة ، ولهذا قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢]

فالنتيجة الطبيعية لوجود آلهة متعددة هي انقسام الكون واضطرابه، لكن الواقع المشاهد نظام دقيق بلا فوضى، إذن المدبر واحد لا شريك له.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]

الآية توضح أن النتيجة الطبيعية لوجود آلهة متعددة هي انقسام الكون واضطرابه.

ملخص: إذا كان الكون كله منظومة واحدة متناسقة، فإن التفسير العقلي الوحيد هو أن خالقه ومدبره إله واحد كامل لا شريك له.

أما القول بتعدد الآلهة، فهو يؤدي حتمًا إلى الفوضى والتناقض والانقسام، وهذا ما لا يراه الواقع، إذ يشهد الكون بوحدانية الله تعالى.

ونضيف أيضًا: نظرًا لأن قضية الإيمان بالله هي قضية غيبية عظيمة، فلا بد أن يكون الاعتقاد مبنيًا على دليل واضح وبرهان قاطع، لا على الظنون والتخمينات، وإلا صار مجرد خرافة. وقد حذَّرنا القرآن من اتباع الظن بغير علم، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ النجم

وأمرنا أن نطلب البرهان، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]

وحين نتأمل في الكون نجد الأدلة العقلية التي عرضناها في هذا الكتاب البسيط، ومنها:

- برهان العقل الذي يثبت أن لكل حادث محدثًا، وأن الكون له بداية، أي أنه حادث لا بد له من خالق حكيم.
- برهان النظام الذي يُظهر الكون محكومًا بقوانين ثابتة من الذرة إلى المجرة.
- برهان الشيفرة الوراثية (**DNA**) التي تحمل مكتبة معلوماتية يستحيل أن تكون وليدة الصدفة.
- برهان قابلية الكون للفهم والدراسة.
- برهان الضبط الدقيق للكون وجماله البديع.
- برهان العقل الواعي، الإرادة الحرة، الفطرة، الأخلاق، والزوجية.
- برهان هداية الله للمخلوقات وتعليمها ما تعجز العقول البشرية عن تصميمه.

كل هذه أدلة عقلية قطعية على وجود إلهٍ مطلقٍ، سبحانه وتعالى.

أما من يزعم بوجود إلهين، أو ثلاثة، أو أكثر، فنقول له بهدوء: أين دليلك على ذلك؟ وهل الإله الكامل يحتاج إلى شريكٍ في الخلق أو التدبير؟ الجواب العقلي الواضح: لا.

فالإله الكامل لا يحتاج إلى غيره. وبالتالي، فإن ما يُسمّى بإلهٍ ثانٍ أو ثالث لا يكون له أثرٌ في الخلق، ولا دورٌ في التدبير، ولا بصمةٌ حقيقية في هذا الكون؛ إذ قد تكفّل الإله الكامل بالخلق والتدبير وحده، **وكون هذه "الآلهة" المزعومة بلا أثر في الكون، يعني أن الإيمان بها إيمانٌ بلا دليل، وما لا دليل عليه فليس إيمانًا، بل خرافة.**

وعليه، فإن كل دعوى بتعدّد الآلهة دعوى بلا برهان، وخرافة لا تقوم على أيّ أساسٍ عقليٍّ صحيح، تعالى الله عن الحاجة أو الشريك علوًّا كبيرًا.

وبالمناسبة، فإن هذا التأكيد الإسلامي الصارم على اتباع الدليل العقلي الواضح، والتحذير من اتباع الظنون والخرافات والسحر، لم يكن أمرًا عابرًا، بل كان له دورٌ حاسم في تشكيل العقلية العلمية التي قامت عليها النهضة العلمية والحضارية.

فالإسلام لم يفتح بابًا للجهل أو للخرافة، بل دعا الإنسان دائمًا إلى التفكير، والنظر، والبحث، والتجربة، والاستقصاء، وربط المعرفة بالدليل والبرهان، لا بالأوهام والظنون.

ومن هنا، كان المسلمون من أوائل الأمم التي أرست قواعد العلم على أسسٍ عقليةٍ ومنهجية، فاهتموا بالملاحظة والتجربة والتدوين والبحث، وأسهموا في دفع الحضارة الإنسانية نحو التقدم في مجالات متعددة، في وقتٍ كانت فيه أجزاء واسعة من العالم غارقة في تصوراتٍ خرافية وظنونٍ بعيدة عن المنهج العلمي، مما عطّل حركة العقل وأبطأ مسيرة المعرفة.

وهنا نذكر بعض شهادات المؤرخين والباحثين الغربيين على هذا الدور الحضاري:

يجيبك المؤرخ الأمريكي مارك جراهام في كتابه: "**كيف صنع الإسلام العالم الحديث** «بعبارة جامعة مانعة، يقول فيها: "**إن الغربيين كانوا جالسين عند أقدام المعلمين المسلمين على مدى خمسمائة سنة** ... لقد كان المسلمون كلّ الأشياء التي تنكرها الكتب المدرسية: فنانون، شعراء، فلاسفة، علماء رياضيات، كيميائيون، علماء فلك، فيزيائيون. **لقد كانوا بفضل الكتاب المعجز كل شيء**"!

وتُعد سيجريد هونكه مستشرقة ألمانية معروفة، في كتابها الشهير »**شمس العرب تشرق على الغرب** «تقول في مقدمة الكتاب:

»إنّ أوروبا مدينة للعرب وللحضارة العربية [= الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي]، وإنّ الدين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جداً، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، لكنّ التعصب الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا... ظل العرب ثمانية قرون طوالاً يشعون على العالم علمًا وفنًا وأدبًا وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أنّى ذهبوا في أقاصي البلاد ودانيها سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثم أنكرت أوروبا الاعتراف بهذا الفضل للعرب.«

وانتهت إلى القول: "نعم إن العرب هم مخترعو العلوم التطبيقية والوسائل التجريبية بكل ما تدل عليه هذه العبارة. والعرب هم المخترعون الحقيقيون للأبحاث التجريبية"

وتضيف هونكه موضحة ما قدمه المسلمون أصحاب ثقافة اللسان العربي:

»العرب هم مؤسسو الكيمياء التجريبية، وكذلك الطبيعة العملية، والجبر، والحساب بمعناه الحديث، وحساب المثلثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، والاجتماع وغير ذلك من الاختراعات الكثيرة الأخرى في مختلف العلوم والمعرفة، وغالبًا ما سطا عليهم اللصوص ونسبوها إلى أنفسهم. فالعرب هم الذين قدموا للعالم أغلى وأثمن هدية، فهم أصحاب البحوث المنتظمة في الطبيعيات، هذه البحوث التي كانت العامل القوي في بعث العلوم الطبيعية في أوروبا.« انتهي من كتاب: براهين النبوة للدكتور سامي عامري حفظه الله

وهكذا يتضح أن التوحيد الذي جاء به الإسلام لم يحرّر الإنسان في عبادته فقط، بل حرّره أيضًا في فكره، وعلمه، ونظرته إلى الكون والحياة؛ لأنه علّمه أن الحقيقة لا تُنال بالخرافة والظنون، وإنما بالنظر والعقل والدليل، فكان ذلك من الأسس التي أسهمت في بناء النهضة الإنسانية التي شهد بها التاريخ.

ثالثًا: التوحيد دين الفطرة

التوحيد ليس مجرد عقيدة عقلية قائمة على البرهان، بل هو أيضًا دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فالإنسان إذا تُرك على طبيعته، بعيدًا عن أي مؤثرات خارجية، سيجد في أعماق قلبه ميلًا فطريًا نحو إله واحد كامل الصفات، يدبّر أمره، ويرزقه، ويحميه وقت الشدة، ويهديه إلى الخير والحق.

فطرته السليمة لا تعرف تعدد الآلهة ؛ فقلب الإنسان لا يتسع لتعدد أرباب؛ فكيف يمكن أن يتسع لآلهة متعددة كاملة مطلقة الصفات؟!

هذا في ميزان الفطرة والعقل معًا أمر غير ممكن، بل هو نوع من التناقض ، لأن النفس البشرية لا تجد الطمأنينة ولا الأمان إلا عند ذات واحدة كاملة الكمال المطلق، ولو تأملت في حياة البشر، ستجد أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض — في لحظة أزمة حقيقية أو خطر داهم كالغرق أو الحريق أو الزلازل — يدعو أكثر من إله في وقت واحد!

بل إن الفطرة تدفعه مباشرة لأن يصرخ إلى إله واحد فقط، لأنه يعلم في أعماقه أنه لا ملجأ ولا منجى إلا منه سبحانه، إذًا، فالدليل الفطري شاهد بوضوح على أن الإله الحق واحد، وأن فكرة تعدد الآلهة مخالفة لما جُبلت عليه القلوب السليمة والعقول المستقيمة.

وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]

فالآية ترسم مشهدًا واقعيًا وفطريًا في آن واحد: عندما تحيط الأخطار بالإنسان، ويشعر أنه على وشك الهلاك، فإنه ينسى كل المعبودات الباطلة، ويتوجه بقلبه ولسانه إلى الله وحده، مخلصًا له الدعاء، لأنه يعلم يقينًا أنه لا منقذ ولا مفر إلا منه سبحانه.

ونختم بما جاء في قوله تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ۚ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٦٤) النمل

فالآية تُذكّر بأن خالق الكون ومنظمه ورازق العباد هو إله واحد، وأن الإشراك به ظلم للعقل والفطرة، وعدول عن الحقيقة الواضحة التي يشهد عليها كل شيء في الوجود.

التوحيد عند المسلمين

الإسلام هو الدين الوحيد الذي جمع بين توحيد الخالق في العقيدة والفكر، وبين توحيد العبادة في العمل والسلوك. فالتوحيد ليس مجرد فكرة نظرية، بل هو منهج حياة متكامل يجمع بين الإيمان القلبي والالتزام العملي.

وقد لخّص الأستاذ أنور الجندي هذا المعنى بقوله:

"لو قلنا إن لكل دين طابعًا يميّزه، فإن طابع الإسلام هو التوحيد؛ فهو لُبابه، ومنهجه، وقوامه، والعامل الأساسي الذي يفصل بين الإسلام وبين غيره من المذاهب والفرق المبنية على الوثنية أو الإلحاد أو تعدد الآلهة[٦٥]".

[٦٥] أنور الجندي , الشبهات والاخطاء الشائعه في الفكر الاسلامي ص ٣٤

فالمسلم لا يكتفي بالإيمان بأن الله وحده هو الخالق المدبر، بل يجعل عبادته وطاعته وخضوعه لله وحده، فلا يشرك معه أحدًا في العبادة، ولا يدعو غيره، ولا يطلب النفع أو دفع الضر إلا منه سبحانه.

ويتميّز التوحيد الإسلامي بأنه يشمل ثلاثة أركان رئيسية:

١. توحيد الألوهية :أي إفراد الله وحده بالعبادة، فلا تُصرف صلاة ولا دعاء ولا نذر ولا رجاء إلا له سبحانه.

٢. تنزيه الله عن الشريك أو الوسيط أو الابن :فلا يُنسب له ولد، ولا يُجعل بينه وبين خلقه وسيط يشاركه في العبادة أو التصرف.

٣. رفض الشرك بجميع صوره :سواء كان شركًا في الربوبية (الاعتقاد بمدبر آخر)، أو في الألوهية (عبادة غير الله)، أو في الأسماء والصفات (تشبيه الله بخلقه أو إعطاؤه صفات المخلوق).

وهكذا يكون التوحيد في الإسلام عقيدة عقلية راسخة تدل عليها البراهين، وفي الوقت نفسه فطرة قلبية نقية يولد عليها الإنسان، ليجد فيها السلام والسكينة والاتساق مع الكون كله الذي يسبّح بحمد خالقه الواحد الأحد.

وبما أن العقل السليم يرفض الشرك، فإننا نستبعد مباشرة كل دين أو عقيدة تقوم على تعدد الآلهة أو إشراك غير الله في الألوهية أو العبادة. وهذا يقودنا إلى استبعاد:

.١الأديان الوثنية:

- الهندوسية :تقوم على عبادة عدد هائل من الآلهة، ولكل إله منهم اختصاصاته وصلاحياته، مثل براهما (الخالق)، وفشنو (الحافظ)، وشيفا (المدمر)، وغيرها. هذا التعدد يناقض بداهة العقل، إذ إن تعدد الآلهة يعني التضارب في الإرادة والسيطرة، مما يؤدي إلى فساد الكون، وهو ما لا نراه.
- اليونانية والرومانية القديمة :اعتقدوا بآلهة متعددة، لكل منها مجال، مثل زيوس (إله السماء)، وبوسيدون (إله البحر)، وأثينا (إلهة الحكمة). هذه الصورة البشرية للآلهة مليئة بالقصص المتناقضة والصراعات، مما ينفي عنها صفة الكمال الإلهي.
- المصرية القديمة :عبدوا آلهة كثيرة، مثل رع (إله الشمس)، وأوزيريس، وحورس... وكانت بينهم قصص تنافس وصراع، وهو ما يتنافى مع كمال الإله الحق.

٢ الأديان القائمة على التعدد في ذات الإله (كالنصرانية المعاصرة)

النصرانية المحرَّفة اليوم تقوم على عقيدة التثليث: الإله واحد، لكنه في الوقت نفسه ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس.

وهذا الجمع بين الوحدة المطلقة والتعدد الحقيقي في ذات واحدة هو تناقض عقلي صريح؛ لأن الإله لا يمكن أن يكون واحدًا وثلاثة في آنٍ واحد، إذ لا يصح عقلًا الجمع بين الوحدة والتعدد في الشيء نفسه.

(ولمن أراد التفصيل فليرجع إلى *كتاب براهين النبوه للدكتور سامي عامري حفظه الله*).

لكن ما يهمنا هنا — في سياق براهين وجود الله — هو نقطة أعمق وأخطر، وهي: أن فكرة أن لله ابنًا محالٌ عقليًا من أصلها، حتى قبل النظر في تفاصيل التثليث.

لماذا فكرة ''المسيح ابن لله'' محال عقليًا؟

لنفهم ذلك، تذكّر معي هذا المثال البسيط: تخيّل جنديًا لا يستطيع إطلاق الرصاصة إلا بعد أن يأذن له قائد، وهذا القائد لا يُصدر الإذن إلا بعد قائدٍ قبله، وهكذا... سلسلة بلا بداية زمنية.

هل ستُطلق الرصاصة؟ الجواب واضح: لا، لأن السلسلة إذا كانت بلا بداية زمنية، فلن تصل أبدًا إلى الفعل، وهذا هو نفس الإشكال العقلي الذي يترتب على القول بأزلية الكون؛ فأنا وُجدت بعد أبي، وأبي وُجد بعد أبيه، وهكذا تتعاقب الأجيال حتى نصل إلى الإنسان الأول، والإنسان الأول وُجد من مادة الأرض، والأرض نفسها مكوَّنة من عناصر جاءت من أجيال سابقة من النجوم، ثم تمتد سلسلة نشأة هذه العناصر إلى ما قبلها من مراحل نشأة الكون، وهكذا فلو افترضنا أن هذه السلسلة ممتدة إلى الماضي بلا بداية، لكان وجودي في الحاضر متوقفًا على سلسلة لا أول لها من الأحداث السابقة، أي على عبور ماضٍ لا متناهٍ حتى نصل إلى اللحظة التي وُجدتُ فيها، وهذا محال عقليًا.

وبعد أن تذكّرنا ما سبق شرحه من استحالة عبور اللامتناهي، نعود الآن إلى الإشكال العقلي في مسألة ''ابن لله.'' ، فلو قيل إن لله ابنًا، فلابد أن يكون وجود هذا الابن متعلقًا بالأب، لكن إذا كان الأب أزليًا بلا بداية زمنية، فكيف يمكن للابن أن يصل إلى الوجود أصلًا؟! وكيف يمكن له أن ''يقطع'' زمنًا لا بداية له حتى يوجد؟

أو بعبارة أخرى: سيكون على هذا الابن أن ينتظر زمنًا لا بداية له حتى يأتي، وهذا محال عقليًا بالضرورة؛ لأنه يقتضي عبور الزمن اللانهائي للوصول إلى نقطة وجود محددة.

وكذلك تمامًا: لو كان لله ابن، لكان وجود هذا الابن محالًا من الأساس.

فكيف لهم بعد ذلك أن يقولوا إن المسيح ابن الله ـــ والعياذ بالله ـــ؟ تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن هنا تتبيّن ضرورةٌ عقليةٌ جليّة: أن الله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن الزمان والمكان، إذ هو خالقهما ومُوجِدهما من العدم.

وهنا يظهر إعجاز العقيدة الإسلامية في تصور الإله، إذ جاءت بتوحيدٍ خالصٍ من كل تناقض، ينسجم مع العقل السليم والفطرة المستقيمة.

فقد أكّد الإسلام تأكيدًا قاطعًا أن الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. وأنه سبحانه بائنٌ عن مخلوقاته، فليس جزءًا من الكون، ولا حالةً من حالاته، ولا حلقةً في سلسلة الوجود، بل هو خالقُ كلِّ شيء، منزَّهٌ عن الزمان والمكان، إذ هو خالقهما ومُوجِدهما، له الكمالُ المطلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهو الغنيُّ عن العالمين.

شهادة القرآن على فظاعة دعوى "الولد"

وانظر إلى التعبير القرآني المزلزل عن هذه الدعوى، حين لا يصفها باعتبارها خطأً عقديًا محدودًا،بل باعتبارها كارثة كونية عقلية ووجودية وعقدية: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (مريم: ٨٨–٩٣)

فعبّر القرآن عن فظاعة هذه الدعوى بأقوى ما تعبّر به اللغة، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾،أي أمرًا عظيمًا منكرًا تقشعرّ له العقول قبل القلوب. ثم لم يكتفِ بالوصف اللفظي، بل نقلنا إلى مشهد كوني مزلزل: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، ليؤكد أن هذه الدعوى ليست مجرد خطأ في التصور، بل قولٌ لو صحّ لاختلّ به أساس الوجود كله.

وهكذا يقرر القرآن تقريرًا حاسمًا: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

وتأمّل بلاغة القرآن وهو يقرّر حقيقة عقدية بأسلوب بسيط واضح، حين يبيّن أن المسيح كان يأكل الطعام، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه عبدُ الله ورسولُه؛ لأن الأكل دليل الحاجة،

والحاجة دليل النقص، إذ يضعف بالجوع ويتقوّى بالطعام، والنقص يستحيل في حق الإله أو ابن الإله حاشاه.

قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞۖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ **كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ**ۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)

ثم يختم القرآن القول الفصل في شأنه عليه السلام، في بيانٍ جليٍّ لا يترك مجالًا للالتباس ، فيحدّد حقيقة عيسى ابن مريم، وينفي عنه كل ما أُلصق به من دعاوى الألوهية والبنوة، ويقرّر أنه عبدٌ لله ورسولٌ منه، يدعو إلى توحيده وعبادته وحده : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ (مريم: ٣٤–٣٦)

ومن هنا يتجلّى أن تقرير التوحيد هو القضية المركزية، وقد جاء القرآن بتقريره في أوجز وأحكم بيان، كما تجلّى ذلك بوضوح في سورة الإخلاص، التي هدمت الشرك من جذوره وأقامت التصور الصحيح للإله الحق.

الخلاصة

•القول بالتثليث محاولة للجمع بين الوحدة والتعدّد في ذات الإله، وهذا تناقضٌ عقلي صريح لا يستقيم مع أبسط قواعد العقل.

•فكرة «ابنٍ لله» محالٌ بالضرورة العقلية؛ لأنها تفترض عبور اللانهاية للوصول إلى وجود الابن، وعبور ما لا بداية له محال عقلًا.

•نقول للملحد كذلك: إن زعمتَ أننا أبناءُ طبيعةٍ ماديةٍ عشوائيةٍ أزلية، فإن وجودنا الآن يكون مستحيلًا؛ لأن وجودنا حينئذٍ يتوقف على سلسلةٍ لا بداية لها، وما لا بداية له لا يمكن أن يُنتج وجودًا فعليًا، فيكون وجودنا محالًا عقلًا، وهذا باطل؛ لأننا موجودون الآن.

وإن قلتَ إن للكون بداية —— وهو القول الصحيح عقلًا وعلميًا، حيث يقدّر العلماء اليوم عمره بنحو ١٣ مليار سنة —— فإن السؤال الحتمي هو: كيف خرج الوجود من العدم؟ وكيف نشأ الشيء من اللاشيء؟ فلابد إذن ——كضرورةٍ عقلية —— من الإيمان بذاتٍ مطلقةٍ واجبة الوجود، أوجدت الكون من العدم، ولا تخضع للزمان ولا للمكان ولا لقوانين المادة؛ لأنها خالقة للزمان والمكان والمادة وقوانينها.

•ولو قيل إن الخالق اتحد بالخلق، أو كان جزءًا من هذا العالم، للزم من ذلك أن لا يكون خالقًا بالمعنى الحقيقي؛ لأن الخالق لا يمكن أن يكون جزءًا مما خلقه أو خاضعًا لقوانين المخلوقات.

بل سيصبح وجود العالم متوقفًا على شيءٍ داخل العالم نفسه، وهذا الشيء يحتاج بدوره إلى من أوجده، ومن أوجده يحتاج إلى من أوجده، وهكذا بلا بداية، وهو محال عقلًا؛ لأننا لن نصل أبدًا إلى سببٍ أول يفسّر وجود العالم.

ولهذا فإن القول بالحلول أو الاتحاد — أي جعل الله جزءًا من العالم، أو جعل العالم هو الله — قولٌ باطل يخالف ما جاء به الكتاب والسنة، ويرفضه العقل الصريح؛ لأنه يناقض معنى الألوهية. فالله سبحانه هو الخالق الغني عن كل ما سواه، وكل ما في الوجود مفتقرٌ إليه.

ومن هنا يقرر الإسلام أن الله سبحانه **بائنٌ عن مخلوقاته، متعالٍ عن الزمان والمكان**؛ لأنه خالق الزمان والمكان، وخالق كل ما فيهما.

وبذلك يتبيّن أن فكرة «المسيح ابن لله»، كما أن فكرة «نحن أبناء الطبيعة»، لا تقوم على أي أساسٍ عقلي أو منطقي.

بعد أن تبيّن بالعقل أن التوحيد الذي جاء به الإسلام هو التصوّر الوحيد المتسق مع الوجود والمنطق؛ توحيدٌ يثبت لله سبحانه الكمال المطلق، وينزّهه عن الشريك والولد والاحتياج إلى خلقه، فقد أقرّ بعظمة هذه العقيدة عددٌ من مفكري الغرب والمستشرقين، رغم ما عُرف عن كثيرٍ منهم من نقدٍ للإسلام أو تحاملٍ عليه.

وفيما يلي، نورد — بتصرّف — بعض ما جاء في كتاب «براهين النبوة» للدكتور سامي عامري حفظه الله:

فقد قال المستشرق الفرنسي إرنست رينان ـ على الرغم من نقده الشديد للإسلام وتأثره بالنزعات العنصرية في قراءته للأمم ـ:

»إن أعظم هبة قدّمتها الحضارة الإسلامية إلى العالم هي **التوحيد** واللغة العربية.«

(Hourani, Islam in European Thought, p. ٣٨. Frederick Quinn, The Sum of All Heresies, p. ٩٩).

وقال الفيلسوف الفرنسي فولتير:

»**من ميزات هذا الدين قيامه على عقيدة التوحيد التي ليس فيها أسرار، وهي متوافقة مع العقل الإنساني، وقد جذبت تحت قانونها العديد من الأمم.**«

(Voltaire, Essai sur les mœurs, Paris, ١٨٣٤, vol. ١, p. ٢٦٨).

كما قال المستشرق جاك بيرك:

»ربما يمكن تلخيص رسالة القرآن في كلمة واحدة: **توحيد الله**.«

(Jaques Berque, Relire le Coran, Paris, ١٩٩٣, p. ٢٠).

وهذه هي عين الحقيقة التي عبّر عنها ابن تيمية رحمه الله بقوله:

»التوحيد هو سرّ القرآن ولبّ الإيمان.« (مجموع الفتاوى)

ويعلّق الدكتور سامي عامري بقوله:

»**التوحيد القرآني ثورة مدهشة على عقائد العصر، لا تزال تبهر خصوم الإسلام إلى اليوم**.«

وليس الأمر مقصورًا على تقرير التوحيد فحسب، بل إن المتأمل يجد بُعدًا آخر بالغ العظمة في القرآن، وهو دقّة ما جاء به القرآن في بيان أسماء الله وصفاته؛ إذ يجمع الخطاب القرآني بين تنزيه الله عن كل نقص، وإثبات صفات الكمال له، مع الجمع بين التعظيم والقرب، في تصور عقدي متكامل، وهو ما يُظهر عمقًا في التصور الإلهي لا يمكن أن يكون من صناعة بشر.

إذ يؤكد علوَّ الخالق في سلطانه وربوبيته، وأنه لا يدانيه الخلق في شيء من عزّ الربوبية، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٨)

ويُظهر إحاطته المطلقة بكل شيء، وأن علمه لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فقال سبحانه:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)

ويقرر غناه المطلق عن خلقه، وأنه سبحانه هو المعطي ، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (الأنعام: ١٤)

ويبيّن قدرته المطلقة التي لا يعجزها شيء، وأن أمره إذا أراد شيئًا إنما هو كلمة واحدة لا تحتاج إلى سبب أو وسائط، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)

ويقرر حقيقة البعث والخلق من جديد، وأن سنن الوجود كلها خاضعة له وحده، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم: ٢٧)

ويقرر تنزيهه المطلق عن أن تُدركه الأبصار أو تحيط به العقول، مع كمال علمه وإحاطته بكل شيء، فقال سبحانه:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)

ويؤكد قاعدة التنزيه الكاملة التي لا تقبل شبهة تشبيه أو مماثلة، فقال جلّ وعلا:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)

ثم تتتابع النصوص في القرآن والسنة لتقرر أن الله سبحانه هو أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين، وأن له من الكمال والجلال ما لا يبلغه وصف، ولا يدانيه تصور.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان أسماء الله وصفاته:

»صفات الله كلها صفات كمال محض؛ فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها؛ فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها.« انتهي

في ختام هذا المبحث : بعد استبعاد كل المعتقدات التي تقوم على التعدد أو الشرك، يتبيّن بوضوح أن رسالة الأنبياء جميعًا كانت واحدة لا تتبدّل :التوحيد الخالص.

الله واحد لا شريك له؛ لا في الخلق، ولا في التدبير، ولا في العبادة.

ولقد حمل الأنبياء عليهم السلام لواء هذا التوحيد، يدعون إليه، ويؤكدون انسجامه التام مع العقل السليم والفطرة المستقيمة ، ثم جاء خاتمهم، النبي محمد ﷺ، برسالةٍ خالصة نقية من كل شائبة، تُعيد التوحيد إلى صفائه الأول، وتجمع بين معنيين عظيمين:

توحيدٌ يُدركه العقل: أن الله واحد أحد، لا شريك له في خلقٍ ولا أمر، **وتوحيدٌ يعيشه القلب**: إخلاص العبادة له وحده، بالمحبة والخوف والرجاء، بلا وسيط ولا شريك.

فكانت دعوته ﷺ هي الأصل الذي يُبنى عليه كل فهمٍ صحيح للدين، وكل نظرٍ سليمٍ للكون، وكل تصورٍ مستقيمٍ للحياة.

دعوة تجمع بين نور الوحي وبرهان العقل، بين صفاء الفطرة وهداية السماء؛ فلا تصادم فيها، ولا اضطراب، بل انسجام كامل يطمئن له القلب ويستقر به العقل.

إنها دعوة التوحيد الخالص؛ أعظم ما يدل على صدق هذا الدين وجماله، وهي النور الذي يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم في كل زمان ومكان.

ويكفي القرآن العظيم حجةً قائمة بذاته؛ يأخذ بالإنسان مباشرةً إلى الله، يخاطب قلبه وعقله معًا، بأوضح بيان وأقوى برهان، ويجيب عن أعمق الأسئلة الوجودية التي يبحث عنها الإنسان، كما مرّ معنا في هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣)

***

فن التعامل مع الشبهات

قد يُلقي بعض الناس شبهات أو إشكالات جزئية حول مسألة الإيمان بالله أو دلائل وجوده.

لكن ينبغي أن ننتبه :العقل السليم لا يهدم بنيانًا شامخًا من مئات الأدلة القطعية بسبب شبهة عارضة أو سوء فهم عابر.

مثال توضيحي

تخيّل أن هناك قضية كبيرة أمام قاضٍ عادل، فيها مئات الأدلة الواضحة:شهادات متطابقة، بصمات، تسجيلات، قرائن قوية، وتوافق كامل بين أحداث الواقعة وسياقها، كل هذه الأدلة تؤكّد الحقيقة نفسها بلا أدنى اضطراب.

ثم يأتي شخص ويقول: "وجدتُ شاهدًا واحدًا قال كلامًا مختلفًا قليلًا... إذن يجب أن نلغي كل الأدلة، ونعتبر القضية كلها باطلة"! هل هذا تفكير سليم؟ طبعًا لا.

القاضي العاقل يقول: الأدلة المتضافرة لا تُهدم باضطراب شاهد واحد.

بل نبحث أوّلًا: هل الشاهد أخطأ؟ هل نَقَل الأمر منقوصًا؟ هل رأى جزءًا ولم يرَ الآخر؟ هل فهم المشهد فهمًا خاطئًا؟

وحتى لو لم نفهم بالضبط سبب الخطأ عند هذا الشاهد، يبقى الأصل ثابتًا: الحقيقة لا تسقط بسبب شبهة عابرة، خاصة إذا قامت عليها مئات البراهين المتينة.

الربط بالإيمان

وهكذا تمامًا في مسائل الإيمان: لا يمكن لشبهة جزئية أو قصة مبتورة أو سوء فهم أن يهدم كتلة هائلة من الأدلة العقلية والكونية والروحية.

ومن هذه الأدلة الكبرى – بإجمال :– برهان العقل (لكل حادث محدث) ،برهان النظام والقوانين الدقيقة، برهان الشيفرة الوراثية والمعلومات، برهان مفهوميّة الكون وصلاحيته للفهم، برهان الضبط الدقيق والجمال، برهان العقل الواعي والإرادة الحرة والفطرة والأخلاق والزوجية، برهان الهداية الفطرية للكائنات، وغيرها مئات البراهين الممتدة في كل ذرة، وكل خلية، وكل قانون، وكل حركة في الكون...كلها تنطق بلسان واحد: أن لهذا الكون إلهًا واحدًا، خالقًا عليمًا حكيمًا.

وكما قال الدكتور النابلسي حفظه الله: "الطريق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق".

فهل يُعقل أن ننسف هذا البناء العظيم الراسخ... لأجل شبهة عابرة في جزئية صغيرة؟!

افتراض جدلي لكشف أصل المشكلة

ولذلك... لنفترض – فقط لغرض النقاش – أن الكائنات الحية ليست إلا نتاج مادة صمّاء من الطبيعة، وأن عناصرها: تربة الأرض، والماء، والهواء، قد تعاونت على تكوين كل الكائنات الحية.

فالطبيعة المادية التي نراها أمام أعيننا، والتي لا تبني شيئًا بإرادتها ولا تقصد شيئًا بذاتها، تصبح – وفق هذا التصور – فجأة قادرة على صناعة الحياة بكل هذا التعقيد والنظام! وكأنها امتلكت من تلقاء نفسها عقلًا وتدبيرًا وقدرةً على الإبداع... فقط حتى نقول إن الإنسان لم يخلقه الله! أما في غير ذلك، فالطبيعة عاجزة حتى عن اختراع كوب ماء من تلقاء نفسها!

لكن حتى لو سلّمنا بهذا الافتراض جدلًا، فإننا لم نصل إلى أصل السؤال، بل انتقلنا خطوة واحدة إلى الوراء.

فمن أين جاءت التربة أصلًا؟ وكيف تكوّن الماء والهواء؟ بل كيف وُجد الكون كله؟ ومن أين جاءت المادة والطاقة والقوانين التي تحكمها؟ ومن الذي أوجد هذه القوانين وثبّتها بهذا الانتظام والدقة المذهلة؟ ومن أين جاء هذا النظام المحكم، وهذا التناغم والجمال الذي نراه في أرجاء الكون؟

ثم انظر إلى الإنسان نفسه...

كيف اجتمعت قوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا في هذا الكائن حتى أصبح قادرًا على الوعي والتفكير والتأمل والاستدلال؟ كيف نشأ العقل الذي يفهم العالم، ويكتشف قوانينه، ثم يقف ليسأل: من أين جئت أنا؟ ومن أين جاء هذا الكون؟

وكيف ظهرت الأخلاق والضمير، والشعور بالمسؤولية، والقدرة على التمييز بين الخير والشر؟ وكيف ظهر إدراك الجمال والمعنى والغاية، في عالم يُفترض – وفق التصور المادي – أنه بلا قصد ولا غاية؟

بل كيف استطاعت «الطبيعة» – إن صح التعبير – أن يوجد في كل كائن حي هذا النظام المعلوماتي المعقد الذي يحمله الحمض النووي(**DNA**) ، بما يتضمنه من شفرات وتعليمات منظمة؟ ومن أين جاءت هذه المعلومات أصلًا؟

ومن الذي هدى المخلوقات إلى طرائق معيشتها، وألهمها من الغرائز ما يعجز الإنسان عن تقليده في كثير من الأحيان؟ وكيف ظهر في الإنسان هذا التوق العميق إلى المعنى، والبحث عن الحقيقة، والشعور بالافتقار إلى خالق أعلى منه!!

باختصار، ولله الحمد والمنّة، تتضافر أمامنا براهين كثيرة على وجود الله سبحانه وتعالى؛ براهين تستند إلى بداهة العقل، وحقائق الكون، ووعي الإنسان، والفطرة، ووحي السماء.

ومن هنا يكون المنهج الصحيح واضحًا :**ابنِ يقينك على المحكمات الواضحة، ولا تجعل شبهة عابرة تهدم ما قام عليه اليقين من براهين متضافرة.**

وإن استشكل عليك شيء، فاسأل أهل العلم، واقرأ وتعلّم، وابحث عن الجواب قبل أن تُصدر حكمًا على أصلٍ عظيم بسبب إشكال لم يتضح لك بعد. فكلما ازددت بحثًا ونظرًا، ازداد يقينك بأن الشبهة الواهية لا تساوي شيئًا أمام الحق إذا قامت عليه البراهين.

أما أن ينقلب المؤمن على عقبيه لمجرد شبهة أو فتنة عارضة، فهذا هو الخلل الذي يحذر منه القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ **(الحج: ١١)**

وتأمل هذا المشهد: هل يستطيع طفل صغير أن يهدم بناءً شامخًا متماسكًا بيده؟ كذلك تمامًا، لا تهدم شبهة واهية بناءً متينًا من البراهين التي أودعها الله في الكون، وفي النفس، وفي آيات الوحي.

فعدم معرفتك بجواب سؤال لا يعني عدم وجود الجواب، ووجود شبهة لا يعني وجود حجة، والجزء الذي لم تفهمه بعد لا يملك أن يهدم الحقيقة التي قامت عليها مئات الدلائل.

وهذا المنهج لا يقتصر على براهين وجود الله سبحانه وتعالى، بل ينطبق كذلك على براهين النبوة؛ فكما أن شبهةً جزئية لا يمكن أن تهدم هذا البناء العظيم من الأدلة الدالة على وجود الخالق، فكذلك لا يصح أن نترك مجموع البراهين القائمة على صدق النبي ﷺ بسبب إشكال عابر، أو رواية لم نفهم سياقها، أو شبهة تحتاج إلى جواب وتفصيل.

فنبوة محمد ﷺ ليست قائمة على دليل واحد حتى إذا أُشكل على الإنسان هذا الدليل اضطرب يقينه، وإنما قامت عليها منظومة متكاملة من البراهين والشواهد: القرآن الكريم، وسيرة النبي ﷺ، وصدقه وأمانته، وأخلاقه، وأخباره، ومعجزاته، وما جاء به من التشريع والهداية، وشهادة أصحابه وأعدائه له بالصدق والأمانة؛ وكل ذلك يتضافر ليؤكد حقيقة واحدة: أن محمدًا ﷺ رسولٌ من عند الله.

ومن هنا ينبغي أن ندرك خطورة إنكار نبوته ﷺ لمجرد شبهة عابرة؛ لأن الأمر لا يتوقف عند رفض دليلٍ واحد، بل إن إنكار النبوة يقتضي تفسير مجموع ما جاء به النبي ﷺ تفسيرًا آخر؛ فالقرآن الذي جاء به، والأخبار التي أخبر بها، والتشريع الذي بلّغه، والدعوة التي عاش لها، **كل ذلك يصبح – على هذا الافتراض – مجرد كذبٍ وافتراءٍ على الله، ويصبح النبي ﷺ – والعياذ بالله – مدّعيًا للنبوة ومفترِيًا على الله.**

وإنكار نبوة النبي ﷺ يلزم معه هذا الوصف، كما عبر الدكتور سامي عامري – حفظه الله – في كتابه براهين النبوة والرد على المستشرقين والمنصرين:

أ- "**هل القرآن صنعة أكذب الكاذبين؟**

إنكار ربانية القرآن يلزم أن يكون القرآن صنعة كاذب عتيٍّ في الخديعة؛ فصاحبه يكذب ويتحرى الكذب، ويمكر بقومه أشد المكر، إذ يتعمّد اختلاق السور في كل مناسبة، ويرتب أصول الدين الجديد وتفاصيله الكثيرة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهو في أثناء كل ذلك ينسب قوله إلى الله – سبحانه – دون حرج ولا تململ ضمير... وهذا يتعارض تمامًا مع ما نعلمه من صدق نبي الإسلام ﷺ في كل أمره، وشهادة القريب والخصم له باستقامة لسانه على الحق ومجانه حاله لفعل المفترين". انتهي

وقد عبر أيضًا ابن تيمية رحمه الله قائلاً:

" مُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين". انتهي

ويؤكّد القرآن هذه الحقيقة تأكيدًا قاطعًا، فيحكم بالظلم الأقصى على كل من ادّعى كذبًا أن الوحي يأتيه من عند الله، أو افترى على الله قولًا بغير حق، قال تعالى:

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَو قال أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ** وَمَن قال سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَن آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣)

فهذا البيان القاطع يُظهر أن كل من ادّعى وحيًا مزيفًا أو افترى على الله، فهو أظلم الناس وأعظمهم جرماً.

ولذلك أقول: لقد جرّب الناس أساليب الدجالين والكذابين عبر التاريخ، فما وجدوا فيها إلا التناقض والاضطراب، والادعاءات التي سرعان ما تنكشف حقيقتها. أما القرآن، فنجد فيه نورًا وهدى وانسجامًا، يزكي النفوس، ويهدي العقول، ويدعو إلى الحق والخير. وكذلك السنة والسيرة، فهما شاهدان على صدقه ﷺ، بما اشتملتا عليه من دلائل الصدق والمعجزات والأخبار والتشريع والهداية.

وسأنقل هنا خلاصةً كنت قد ذكرتها في مقال سابق بعنوان» :**الغيبيات... البرهان الذي لا يسقط**«، لما فيها من فائدة في فهم طريقة التعامل مع الشبهات، وفي الوقت نفسه تفتح لنا بابًا مهمًّا من أبواب الاستدلال على صدق النبي ﷺ، وتمهّد للحديث عن براهين النبوة.

" إذا تأملنا القرآن العظيم، وفي السنة المطهرة، سنجد أن غالبية موضوعاته تتعلق بعالم الغيب، أي: ما لا يعرفه الإنسان ولا أهل زمانه.

والغيب في القرآن نوعان رئيسيان:

١. **غيب مطلق:** وهو الغيب الذي اختصّ الله تعالى بعلمه وحده، فلا يحيط به عقلٌ بشريّ مهما بلغ، ولا تصل إليه تجربة، ولا يكشفه رصد، ولا يُعرَف إلا بخبرٍ صادقٍ من الله عزّ وجلّ.

ويدخل في هذا الغيب: ذات الله سبحانه وتعالى، وأسماؤه وصفاته كما عرّف بها نفسه، وتفاصيل اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وأحوال الجنة والنار، وحقائق الملائكة، والوحي، والنبوة.

واللافت هنا — وهو موضع الإعجاز— أن القرآن حين تكلّم عن هذا الغيب المطلق، تكلّم عنه بمنتهى الاتساق، دون تناقض، ودون اضطراب، ودون تخبّطٍ ، على عكس ما نجده في

كلّ محاولات البشر حين يتجرؤون على الحديث عن الإله، أو الغيب الأعلى؛ إذ لا يخرج كلامهم إلا خليطًا من الأساطير، والتناقضات، والتصورات البشرية القاصرة.

٢.**غيب مرحلي**: وهو الغيب الذي لم يكن معلومًا للناس وقت نزول الوحي، ثم كُشف لهم على مراحل زمنية، إمّا بتحقق وقوعه، أو بتقدّم المعرفة البشرية، أو بانكشاف آثاره مع مرور الزمن. وقد جاء في القرآن الكريم بصور متعددة، منها: غيب ماضٍ: أخبار عن وقائع تاريخية وأمم سابقة لم يكن للعرب علمٌ بها، ولم تُعرف تفاصيلها ولا ثبتت صحتها إلا بعد قرون، عبر البحث الأثري والدراسات التاريخية الحديثة.

غيب مستقبلي: إخبار دقيق عن أحداث ستقع في المستقبل، ثم وقعت وتحققت كما أخبر بها القرآن الكريم والسنة المطهّرة، دون زيادة أو نقصان.

الغيب الكوني المشهود لاحقًا (الإعجاز العلمي): هو ما تضمّنه القرآن الكريم من إشارات إلى سنن كونية وحقائق علمية تتعلّق بخلق الإنسان، ونشأة الكون، والبحار، والنبات، وقوانين الحياة، وهي حقائق لم تكن معروفة للبشر وقت نزول القرآن، ثم تكشّف معناها مع تطوّر المعرفة العلمية، دون أن يتعارض ذلك مع أي نصٍّ قرآني.

وهكذا... نجد أن القرآن الكريم جمع بين الغيب المطلق الذي لا يُنال إلا بالوحي، والغيب المرحلي الذي يكشف صدق الوحي مع مرور الزمن، في كتاب واحد متماسك، بلا تناقض، ولا اضطراب، ولا خلل.

ولهذا، كان التحدي الإعجازي للقرآن قائمًا، ومتجددًا، وفي أعلى درجاته على الإطلاق.

والآن... ركّز معي في المثال التالي؛ لأنه سيجعلنا نرى هذا الإعجاز بصورة عملية واضحة، ويكشف لنا حجم التحدي الذي واجهه القرآن بصورة يصعب تجاهلها:

تخيّل أن تأتي لأي إنسان في هذا العالم، وتقول له: "أنا سأعطيك تكليفًا عجيبًا: اكتب لي كتابًا ضخمًا، يقارب ٦٠٠ صفحة، ويكون فيه كل هذه الأنواع من الغيب:

غيب مطلق: مثل اليوم الآخر، تفاصيل الجنة والنار، أحوال الملائكة، مشاهد القيامة، بل الأعظم من ذلك: أن تصف الله عز وجل وصفًا كاملًا يليق بجلاله وجماله.

غيب مرحلي مستقبلي: تسجّل فيه نبوءات دقيقة ستقع بعد وفاتك، وتتحقق حرفيًا كما أخبرت بها،

غيب مرحلي ماضٍ: تكتب فيه أحداثًا تاريخية لم يكن لقومك أي علم بها، ولا وثائق مدونة، ولا مخطوطات تحفظها.

ثم أضف إلى ذلك: أن تذكر في هذا الكتاب معلومات دقيقة عن: خلق الإنسان، والسماء، والأرض، والجبال، والبحار، والنبات، والكون...

وكل ما تكتبه لا يتعارض مع أي حقيقة علمية قطعية، رغم أنك تعيش في بيئة تملؤها الأساطير والخرافات.

وليس هذا فقط... بل يجب أن يخوض هذا الكتاب مواجهة فكرية شاملة، مع جميع الخصوم العقائديين، ليُبيّن الحق المبين للناس:

- فيُحاجج أهل الكتاب بالحجة والبرهان، ويكشف تحريفاتهم بالتفصيل، ويقيم عليهم الحجة.
- ويُفحم المشركين والكافرين، فيُفكك أباطيلهم من الجذور، ويهدم ما بنوه من خرافات، وهم في أشد حالات العداء لك، ويحاربون دعوتك بشراسة.

ومع كل هذا الصراع العقائدي العنيف، لا يفقد كتابك صفاءه ولا اتزانه... بل يظل مشرقًا بالرحمة واضحًا في حجّته، يأخذ بيد السامع – مهما كان مخالفًا – بقلبه وعقله، ويقوده برفق وصدق إلى الله تعالى، بأقوى بيان، وأوضح حجة... وذلك رغم أنك في موضع خصومة وجدال!

وليس هذا فحسب... بل يقدّم هذا الكتاب – في الوقت نفسه – أعمق الإجابات عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي حيّرت البشرية عبر القرون: من أنا؟ من أين جئت؟ لماذا أعيش؟ ما الغاية من وجودي؟ وأين سأذهب بعد الموت؟

وهي الأسئلة التي عجز كبار الفلاسفة والمفكرين عن تقديم إجابات يقينية ومرضية لها، رغم محاولاتهم المتكررة عبر آلاف السنين.

بل أزيدك... أن يتضمن هذا الكتاب تشريعًا شاملًا، متوازنًا، يصلح لكل الناس، في كل زمان ومكان، يحقق العدالة والرحمة كما يتضمّن إشاراتٍ إعجازيةً إلى سننٍ كونيةٍ ثابتة، وصراعٍ أبديٍّ بين الحقّ والباطل، ووصفًا دقيقًا لطبائعِ أقوامٍ تتكرّر صفاتهم في كلّ العصور — كاليهود والمنافقين والطغاة — ليبقى هذا الكتاب شاهدًا على سنن الله في النفس والمجتمع والتاريخ.

ولا تنسَ: أنك ستقوم بكل هذا وأنت تزعم الكذب على الله! على خالقك ورازقك ومدبّر أمرك! تزعم أن هذا الكتاب وحيٌ من عنده، وأنه أرسلك للناس، وهو لم يرسلك.

وهذا من أعظم أنواع الكذب على الإطلاق: الكذب على الله عزّ وجلّ.

ثم إنك، بذلك، تكذب على قومك، وعلى أهلك، وعلى أصحابك، في أخطر قضية وجودية يمكن أن تُطرح على الإنسان.

ومع ذلك كلّه، لا تُفضَح، ولا تُكشَف، ولا تتضارب رواياتك أبدًا! بل تعيش بين قومك حياةً واقعية عملية لا يمكن تزويرها: مبتلًى، مهاجرًا، مجاهدًا، ناصحًا، مربيًا، ومعلّمًا لأصحابك.

ثم يخرج هؤلاء الذين ربّيتهم من بعدك قادةً للأمم، وخيرَ جيلٍ عرفتْه البشرية، ملأ الله بهم الأرض عدلًا ورحمة، وغيّروا مجرى التاريخ في زمنٍ قصير.

والأدهى من ذلك كلّه : أنك ستكتب هذا الكتاب وأنت أمّي، لا تقرأ ولا تكتب، تعيش في بيئةٍ أمّية لا تعرف تلك العلوم، ولا تملك أدوات هذا البيان أصلًا.

ومع ذلك، يخرج هذا الكتاب بأعلى مستوى لغوي وبياني عرفته البشرية، متحدّيًا فصحاء العرب وبلغاءهم وشعراءهم، بل متجاوزًا إيّاهم إلى تحدٍّ مفتوحٍ للإنسانية كلّها: أن يجتمعوا جميعًا ويأتوا ولو بسورةٍ واحدةٍ من مثله! ويمضي أكثر من أربعة عشر قرنًا، وتتعاقب الأمم، وتتطوّر اللغات، وتتبدّل الحضارات، ولا يزال التحدّي قائمًا، ولا يزال العجز واحدًا: لا أحد يأتي بمثله... لا في الماضي، ولا في الحاضر.

ذلك هو التحدّي القرآني، الذي يكشف وجهًا من أوجه الإعجاز القرآني في أوضح صوره، وأقواها حجّة، وأبقاها أثرًا عبر الزمان

والنتيجة الحتمية: لو حاول أيُّ إنسانٍ أن يكتب صفحةً واحدةً على هذا النمط، جامعًا فيها كلَّ ما ذُكِر آنفًا، فلن تكون تلك الصفحة إلا مليئةً بالتناقضات، والخرافات، والزيف، والسخف؛ ذلك أنّنا جميعًا نعرف أساليب الكذّابين والدجّالين حين يتحدّثون عن الغيب بكلّ أنواعه، وفي مقدّمة ذلك حديثهم عن أسماء الله وصفاته، ومهما حاولوا الإتقان أو التزيين، فإن آثار الكذب، والاضطراب، والضعف تفضحهم منذ اللحظة الأولى.

ولهذا، لا نستغرب أبدًا أن يكون التحدي القرآني حاسمًا، قاطعًا، ومقرونًا بالوعيد، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا

شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (*البقرة*: ٢٣-٢٤) "

ومن هنا يمكن أن نلخّص الإعجاز القرآني في حقيقةٍ واضحة لا تحتمل اللبس: أنّ القرآن كتابٌ جمع ما لا يمكن أن يجتمع في كتابٍ بشريٍّ واحد؛ هو كتاب هداية، يخاطب القلب قبل العقل، فيأخذ بيد الإنسان — أيًّا كان موضعه أو زمانه — إلى الله تعالى، فيعرّفه به، ويوقظ فطرته، ويهدي ضميره، ويقيمه على الصراط المستقيم.

وهو في الوقت نفسه كتاب معجزة، قائمٌ بذاته، متفرّدٌ في بيانه، محكمٌ في نظمه، متّسقٌ في معانيه، باقٍ بتحدّيه، أبهر العقول، وأعجز البلغاء، وأقام الحجة على الإنس والجنّ عبر القرون، دون أن يبهت أثره أو يضعف سلطانه.

وهو — فوق ذلك كلّه — كتاب تشريعٍ شامل، يضع للإنسان منهج حياته كاملًا: ينظّم علاقته بربّه، وبنفسه، وبغيره، وبالمجتمع، وبالدولة، بل وبالإنسانية جمعاء؛ تشريعٌ يضبط أدقّ تفاصيل السلوك الإنساني، من أعظم قضايا الحكم والعلاقات الدولية، إلى أخصّ شؤون الأسرة، وحقوق الزوجين، وآداب الحياة الخاصة.

فجمع القرآن — على نحوٍ يستحيل على البشر — أولًا بين الهداية والتعريف بالله، وهي المقصد الأساس الذي أُنزل من أجله، ثم بين المعجزة القائمة بذاتها، تثبيتًا لهذه الهداية وإقامةً للحجة، ثم بين التشريع العادل الصالح لكل زمان ومكان، ليُترجِم الهداية إلى واقعٍ عمليٍّ في حياة الناس.

وهذا الجمع وحده كافٍ ليقطع بأن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون نتاجَ من يكذب على الله، وإنما هو — كما أعلن عن نفسه — كلامُ اللهِ ربِّ العالمين ، كما أن هذا الإتقان في البناء والهداية والتشريع، يشير في ذاته إشارةً عقليةً قوية إلى وجود خالقٍ حكيمٍ عليم، أودع في هذا الوحي ما يهدي العقول والقلوب معًا.

ولعل من اللافت أن هذا المعنى لم يقتصر على شهادة المؤمنين بالإسلام، بل شهد به بعض المنصفين من غير المسلمين أيضًا. ومن ذلك ما قاله الفيلسوف الإنجليزي الشهير **توماس كارليل** في كتابه *الأبطال*، مخاطبًا قومه من النصارى:

"لقد أصبح من أكبر العار على أي فردٍ متحدثٍ في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خداعٌ مزوِّر".

ثم يكمل حديثه قائلًا:

"وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟! أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا.. **وما الرسالة التي أداها إلا حقٌّ صراح، وما كلمته إلا قولٌ صادق**". **انتهى**. *نقلًا عن كتاب «لماذا أسلموا.»*

خلاصة (التعامل مع الشبهات): باختصار، ولله الحمد والمنّة، نحن أمام بنيانٍ إيمانيّ شامخ، أُسِّس على آلاف البراهين القطعية، في الكون، وفي النفس، وفي الوحي، تشهد كلها على وجود الله، وربانية القرآن، وصدق نبوة محمد ﷺ.

فلا يجوز لعاقل أن يُسلم هذا البنيان المنيع لريح شبهةٍ عابرة، أو فتنةٍ طارئة، أو تساؤلٍ لم يُحسن البحث فيه.

الشبهة مهما بدت كبيرة، فإنها أمام هذا اليقين ليست إلا كنفخة هواء ضعيفة لا تزعزع صخرة رسخت في أعماق الأرض.

ثلاث وقفات ضرورية في مسألة الشبهات

ونقف هنا ثلاث وقفاتٍ ضرورية في طريق التعامل مع الشبهات، هي بمثابة الدرع الواقية للمؤمن، يحتمي بها قلبه وعقله من الاضطراب والزلل:

الوقفة الأولى: طلبُ العلم

إن العلمَ من أعظم وسائل التقرب إلى الله، بل هو مقدَّم على كثيرٍ من النوافل؛ لأن به تُعرَف الحقائق، وبه يُدفَع الباطل، وبه يزداد الإيمان رسوخًا ويقينًا.

فالعلم هو مفتاحُ الثبات، وسلاحُ المؤمن في مواجهة التيه والشك، وهو النورُ الذي يبدّد ظلمات الجهل والضلال.

تأمّل قوله تعالى، إذ لم يأمر نبيَّه ﷺ أن يسأله الزيادة في شيءٍ من الدنيا — لا مالٍ ولا جاهٍ ولا سلطان — بل في العلم وحده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]

وما أشدَّ حاجتنا في هذا الزمان — زمنِ الفتن وتدفّق المعلومات — إلى التمسّك بهذا النور الرباني، والسعي إلى طلب العلم الصحيح المقرون بالإيمان والتواضع، لا العلم المجرّد الذي يورث كِبرًا وغرورًا.

وكلما ازداد اطّلاعُ الإنسان على عجائب الكون، وتأمّل ما فيه من جمالٍ وإحكام، وتجاوز القشور إلى دقائق النظام؛ ازداد إيمانًا بخالقه، وازداد يقينًا بحكمته وعظمته وكمال صفاته.

وفي هذا ينقل لنا سبنسر عن هرشل قوله: "كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالقٍ أزليّ، لا حدّ لقدرته ولا نهاية؛ فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم... وهو صرحُ عظمةِ الله وحده."

ويقول سبنسر أيضًا : "إن العالمَ الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتكوّن من الأكسجين والهيدروجين بنسبةٍ مخصوصة — بحيث لو اختلّت لصار الشيءُ شيئًا آخر غير الماء — ليُدرِك عظمةَ الخالق وقدرته، وحكمتَه وعلمَه الواسع، أشدَّ إدراكًا ممن لا يرى فيها إلا نقطة ماءٍ فحسب. وكذلك العالمُ الذي يتأمّل قطعة البَرَد وما فيها من جمال الهندسة ودقة التقسيم، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطرٌ تجمّد من شدّة البرد«.انتهي

الوقفة الثانية: معرفة حدود نفسك كمخلوقٍ ضعيف، واللجوء إلى الله وطلب الهداية

من أدرك حقيقة نفسه، علم أنه مخلوقٌ محدود، لا يملك من العلم إلا قليلًا، ولا يحيط من أسرار هذا الوجود إلا بقدر ما أذن الله له أن يعلم. قال تعالى:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهذه الحقيقة وحدها كافية لتكسر في قلب الإنسان وهم الاستغناء، وتزرع فيه التواضع؛ فانظر إلى علم البشر كيف يتغير ويتطور عبر الزمن، وكيف يكتشف الإنسان في كل عصر أنه كان يجهل أشياء كثيرة ظنها من قبل معلومةً مكتملة، بل كلما اتسعت دائرة معرفته، اتسعت أمامه دائرة ما يجهله. فكيف يتكبر مخلوقٌ محدود العلم، في كونٍ لا يزال يكتشف أسراره حتى اليوم؟

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالمؤمن الذي يعرف قدر نفسه لا يغتر بما أوتي من علم، ولا يجعل ما وصل إليه من معرفة سببًا للكبر والاستغناء، بل كلما ازداد علمًا، ازداد إدراكًا لعظمة ما يجهله، وازداد افتقارًا إلى ربه. فهو يسعى في طلب العلم، ويبحث عن الحق، لكنه يعلم في الوقت نفسه أن علم المخلوق مهما بلغ يظل محدودًا، وأن علم الله سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء.

ولهذا كان أعلم الناس بالله أشدهم افتقارًا إليه، وأبعدهم عن دعوى الاستغناء عنه. فهذا إبراهيم عليه السلام، إمام الموحدين وخليل الرحمن، الذي حطّم الأصنام بيده، وجادل قومه، وأقام

عليهم الحجة، لا يغتر بما آتاه الله من يقين، بل يظل خائفًا على نفسه وذريته من الضلال، فيدعو ربه قائلًا: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾ **[إبراهيم: ٣٥]**.

وإذا كان هذا حال إبراهيم عليه السلام، فكيف يأمن غيره على نفسه؟ وكيف يظن الإنسان أن مجرد امتلاكه بعض العلم أو قوة الاستدلال تجعله في غنى عن الله وهدايته؟

بل إن سيد الخلق محمدًا ﷺ، المؤيد بالوحي والمعصوم في تبليغ الرسالة، كان يكثر من دعاء ربه أن يثبت قلبه على الحق، فقال:

»**يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**« **[رواه الترمذي]**.

فالقضية إذن ليست أن تعرف الحق فقط، وإنما أن تسأل الله أن يثبتك عليه، وأن يرزقك التواضع له، وألا يجعل ما تعلمه سببًا لابتعادك عنه.

وفي المقابل، يحذر القرآن من الكِبر الذي يفسد القلب، ويغلق أبواب الهداية، ويجعل الإنسان يرى الحق ثم يرده؛ فالإنسان قد يمتلك العلم، وقد يرى الآيات والبراهين، لكن إذا دخل الكبر إلى قلبه، فقد يحول بينه وبين الانتفاع بما علم.

ويعرض لنا القرآن نموذجًا مخيفًا لرجل أوتي من الآيات والبيّنات ما كان كافيًا لهدايته، ثم انسلخ منها بإرادته، قال تعالى:

﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٥].

لقد أوتي من الآيات ما كان يمكن أن يكون سببًا لهدايته، لكنه لم ينتفع بها؛ لأن المشكلة لم تكن في غياب الدليل، وإنما في موقف القلب من الدليل. فليس كل من رأى الحق قبله، وليس كل من عرف الحجة خضع لها.

وهكذا يفعل الكِبر بصاحبه؛ قد يحول بين الإنسان وبين الحق، حتى يرى الآيات ثم يعرض عنها، ويسمع الحجة ثم يرفضها، لا لأنها ضعيفة، وإنما لأنه لا يريد أن يخضع لها.

قال تعالى:

﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ **[الأنعام: ١١٠]**.

وقال سبحانه في التحذير من الكبر:

﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ **[الأعراف: ١٤٦]**.

فالكِبر ليس مجرد صفة سيئة في الأخلاق، بل قد يكون حجابًا بين الإنسان وبين الهداية؛ لأن المتكبر لا يبحث عن الحق ليخضع له، وإنما يبحث عما يوافق هواه، وقد يرفض الحق لمجرد أنه جاء على خلاف ما اعتاده أو ما يراه هو.

ومن هنا، فإن من أعظم أسباب الثبات على الإيمان أن يعرف الإنسان قدر نفسه، وأن يدرك أنه مهما بلغ من العلم والفهم، فإنه يظل عبدًا ضعيفًا محدود المعرفة، محتاجًا إلى ربه في كل لحظة.

فاسأل الله الثبات، واطلب منه أن يريك الحق حقًّا ويرزقك اتباعه، وأن يريك الباطل باطلًا ويرزقك اجتنابه؛ فإن أعظم ما يحتاجه الإنسان بعد أن يعرف طريق الحق، أن يُوفَّق للسير فيه والثبات عليه.

الوقفة الثالثه: ضبط الشهوات وعدم الانسياق وراءها

أما الوقفة الثالثه فهي من أهم الوقفات، لأنها تمسّ فتنةً عظيمة يعيشها شباب هذا العصر : فتنة الشهوات، وفي مقدمتها الانغماس في الإباحية وما يصاحبها من نظرٍ محرم وإدمانٍ يفسد القلب.

وهذه الفتنة لا تفسد الأخلاق فحسب، بل تُضعف الفطرة، وتُشتت الفكر، وتُوهن الإرادة، حتى يجد الإنسان قلبه قاسيًا، وعزيمته ضعيفة، ونفسه أثقل عن الطاعة، فلا يثبت على الحق كما كان، ولا يجد للإيمان والعبادة الحلاوة التي كان يجدها من قبل.

وقد تناول كثيرٌ من الأطباء والباحثين الآثار النفسية والعصبية للإباحية، وأشاروا إلى أنها تُضعف القدرة على التركيز، والتحكم في الشهوات، واتخاذ القرار، كما ترتبط عند بعض المدمنين باضطراباتٍ في المزاج، وضعف الدافعية، وصعوبة تكوين العلاقات السوية.

وإذا اجتمع ضعف القلب مع استسلام النفس للهوى، أصبح الإنسان أكثر عرضةً لاتباع الشبهات، وأبعد عن نور الهداية.

وهذا ليس مجرد كلامٍ نظري، بل واقعٌ يشهده كثيرٌ من الشباب؛ فكم من شابٍ تغيَّرت أخلاقه، وضعفت إرادته، وقسا قلبه بسبب الاستسلام لهذه الفتنة. ومن أراد القرب من الله حقًّا، فليعلم أن مجاهدة الشهوة، وغضَّ البصر، والتوبة الصادقة، من أعظم خطوات الثبات على طريق الإيمان.

وقد قال العلماء قديمًا :**التخلية قبل التحلية**؛ أي: تطهير القلب من الأدران أولًا، ليتهيأ لاستقبال نور الإيمان وثمرات الطاعة.

ومن جاهد نفسه في ترك المعصية، أعانه الله وبدّل ضعفه قوة، وفتح له من أبواب الفهم والثبات ما لم يكن يتصوّره.

ولا بد من التنبيه إلى أن كثيرًا من الشبهات الفكرية التي يقع فيها الشباب ليست دائمًا نتيجة بحثٍ أو اقتناع، بل قد تكون ثمرة قلبٍ أثقلته الشهوة، حتى ضعف صفاؤه، فلم يعد يرى الحق كما كان يراه من قبل؛ فكلما غلب الهوى على القلب، خفت نور البصيرة، واضطرب ميزان الفهم.

صحيح أن الشهوات كثيرة—كالزنى، والخمر، وكل ما شابه ذلك—لكن في زماننا تبقى الإباحية أخطرها؛ لأنها سهلة الوصول، شديدة التأثير، وتستهدف أضعف غريزة في الإنسان بلا حواجز.

وما يلحق بها من نظرٍ للعري، وصور ومقاطع ومنشورات، ومسلسلات تُطبع الفاحشة... كل هذا يحمل نفس الأثر :يطفئ نور القلب، ويهدم الحياء، ويجعل النفس أقرب للشك والانحراف.

ولذلك أوضح نقطةً مهمّة في هذه المسألة: إن كثيرًا مما يسمّى اليوم "إلحادًا" ليس إلحاد عقلٍ وفكر، بل هو — كما قال بعض المفكرين — **"إلحاد بطنٍ وفرج؛ لا عقلٍ وفكر."** فالإنسان حين تغمره الشهوات، ويثقل قلبه بالمعاصي، تنطمس بصيرته، ولا يعود ينظر للكون بعين الفطرة التي فُطر عليها.

فنحن نعلم بداهةً — قبل أي تعقيد فلسفي — أن هذا الكون بتناسقه العجيب وجماله الباهر ونظامه الرياضي الدقيق، يدل دلالةً لا لبس فيها على الخالق العظيم.

وقد جاء رجل إلى أحد السلف –رحمه الله– فقال له: يا إمام، دلّني على وجود الخالق !

فقال له الإمام :أخبرني عن سفينةٍ في البحر، تسير وحدها بلا قائدٍ ولا ملاح، تحمل البضائع وتذهب وتجيء — أيمكن هذا؟ قال الرجل: لا، هذا محال! فقال الإمام :فكيف بهذا الكون العظيم، بسمائه وأرضه، بشمسه وقمره، بليلٍ ونهارٍ، يسير بلا خالق ولا مدبّر؟ فبهت الرجل وأقرّ بوجود الله.

وهكذا، فالإيمان بالله أمرٌ فطريّ مغروس في النفس، تشهد به القلوب السليمة والعقول المستقيمة على مرّ العصور، لكن ما حدث في زماننا أن الانغماس في الشهوات — من زنا وخمر وإباحية — أفسد الفطرة، وأظلم البصيرة، فترك كثير من الناس الدين لا لأن عندهم "برهانًا"، بل لأن الدين يذكّرهم بما يفرّون منه، فيبحثون عن فلسفات تبرّر سقوطهم أمام أهوائهم.

ثم ظهر عاملٌ آخر زاد هذا الانحراف اشتعالًا :الجراح الثقيلة التي خلّفها الماضي الديني في أوروبا. فقد رأى الغرب كيف **كبّلت الكنيسة العقول، وحاربت العلم، ومنعت الناس من الطيّبات ومساندتها أحيانًا للظلم والاستبداد**، فكانت النتيجة ردَّة فعل عنيفة اندفع فيها كثيرون إلى الطرف المقابل، حتى تجاوزوا نقد المؤسسة الدينية إلى إنكار الدين نفسه، بل وإنكار الخالق ورسله.

وفي ذلك ننقل ما جاء في كتاب »**ركائز الإيمان** «بيانٌ لهذا المعنى حيث يقول:

"واعجب إن شئت للجاهلية المعاصرة –التي تدل على التاريخ كله بما أحرزته من ((العلم)) –تنكر وجود الله أصلًا، وتنكر البعث كذلك، وتنكر كل ما لا تدركه الحواس.. لا لأسباب ((علمية))، ولكن لسبب وجداني بحت، هو الهروب من إله الكنيسة الذي كانت الكنيسة تستعبد الناس باسمه، وتضيق عليهم، وتضطهدهم، وتطاردهم في يقظتهم ومنامهم، **وتفرض عليهم كل أنواع الطغيان الروحي والمالي والسياسي والعقلي والعلمي**.

فهربوا إلى إله لا كنيسة له، ولا رجال دين، ولا دخل له بأعمال الناس في الأرض، يهيمون على وجوههم كالأنعام دون أن يحاسبهم على أعمالهم، وسموه ((الطبيعة))، ونسبوا إليه الخلق والتدبير، وإن كانوا نفوا عنه ((الحكمة))، فقال عنه دارون: ((الطبيعة تخبط خبط عشواء!)) (Nature works haphazardly)." **انتهى**.

ومع ذلك، فلو كان المقصود هو البحث الصادق عن الحق، لكان الأولى ألا يُرفض الدين كله بسبب أخطاء الكنيسة، بل أن يُرفض الباطل، ثم يُبحث عن الدين الحق. أما أن يتحول الاعتراض على مؤسسة دينية بعينها إلى إنكار الخالق، وإنكار الوحي، ومصادمة بديهيات العقل والفطرة، فذلك انتقال لا يلزم منه عقلًا، ولا يقتضيه إنصاف.

ولو أنهم نظروا نظرة عادلة إلى الإسلام كما هو — دينًا نقيًا بأصوله وكليّاته — لوجدوه لا يقيّد العقل، ولا يحارب العلم، بل يدعو إليه ويجعله من أجلّ العبادات، ولوجدوا أنه لا يحرّم الطيّبات، ولا يجعل بين العبد وربه واسطة، وأنه دين ينسجم مع الفطرة، ويقوم على الرحمة والعدل والوسطية.

جاء الإسلام ليحرّر الإنسان من عبودية هواه، ليصفو قلبه، ويستقيم عقله، ويتوجه بروحه إلى الله وحده.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

وبذلك يتبين أن الإلحاد ليس نتيجةً حتميةً للعقل أو للعلم، بل كثيرًا ما ينشأ من اجتماع الشبهة مع الشهوة، أو من ردود أفعال تاريخية، أو من تصورات خاطئة عن الدين. أما إذا تجرد الإنسان للحق، وأقبل عليه بعقلٍ منصف وقلبٍ سليم، فإن الفطرة تهديه إليه، والعقل يدله عليه، والوحي يكمله ويهديه إلى سواء السبيل.

ولهذا فإن الثبات أمام الشبهات لا يكون بمجرد الأمنيات، وإنما يقوم على أربعة أركان :**علمٍ نافع، وتواضعٍ للحق، وهدايةٍ من الله، ومجاهدةٍ للهوى** .فكلما ازداد الإنسان علمًا، وصدقًا، وإخلاصًا، ازداد يقينًا وثباتًا، وكان أبعد عن الاضطراب أمام الشبهات.

ولهذا شبَّه الله الإيمان بالبناء الراسخ الذي يقوم على أساس متين، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾]التوبة: ١٠٩.[

فالإيمان المبني على العلم والبصيرة والتقوى لا تهزه الشبهات، ولا تزعزعه العواصف؛ لأنه قائم على أساس راسخ. أما من بنى معتقده على الهوى، أو التقليد، أو الظنون، فإن أول شبهة قد تزعزع يقينه، كما ينهار البناء إذا قام على أرضٍ متصدعة.

ونسأل الله أن يرزقنا العلم النافع، والقلب السليم، والثبات على الحق حتى نلقاه.

***

خاتمه الرحلة
البراهين واضحة بين يديك ؟!

في نهاية هذه الرحلة، تجلّت لنا الآيات بوضوح، وانكشف خواء الإلحاد وظلاله الزائلة؛ فقد ادّعى العقل لكنه عادى البديهيات، وتغنّى بالعلم ثم أغلق عينيه عن الحقائق التي تهتف باسم خالق حكيم...

ثم اسمح لي أن نتفكر معاً، ونتدبر الحقائق القادمة بعمق وتأمل:

- هل ما زلت تقرّ أن تُربة الأرض أخرجت الإنسان بكل هذا التعقيد؟
- هل ما زلت ترى أن الذرات العشوائية كتبت بترتيب دقيق الشيفرة الوراثية كما تُكتب آلاف الكتب الطبية المتخصصة؟
- هل ما زلت تنكر وجود الإرادة الحرة وتراها "وهمًا"، بينما تمارسها في كل قرار تتخذه الآن؟
- هل ترى أن العقل الواعي الذي صنع الأجهزة واخترع الآلات يمكن أن ينشأ وحده مع الوقت؟
- وهل نسيت أن الوقت نفسه يُبلي النظام لا يخلقه؟
- وهل الرحمة التي في قلب أم تجاه طفلها هي مجرد وهم كيميائي أيضًا؟
- وهل تساءلت لماذا تلجأ إلى الله الذي تنكره في لحظة شدتك؟

وليس الإعجاز في فردٍ واحد فحسب، بل الأعجب أن ترى الزوجية ممتدة في أرجاء الكون كله...

ذكرٌ وأنثى، موجبٌ وسالب، ليلٌ ونهار، سماءٌ وأرض، ماءٌ ويابس.

أما في الإنسان، فالمشهد أعمق وأعجب: فما بالك بذكرٍ وأنثى يُوجدان معًا، في اللحظة نفسها، بجهازٍ تناسلي متكامل، وهُرمونات متوازنة، وبُنية نفسية وجسدية تجعل كُلًّا منهما مُهيأً للآخر؟ فهل يُعقل أن تُنشئ الصدفة وحدها هذا التوازن الدقيق: رجل وامرأة، متكاملان جسديًا وبيولوجيًا ونفسيًا، فإذا اجتمعا أُخرج منهما جيل جديد يحمل الشيفرة نفسها، ويواصل رحلة الحياة؟

ثم مَن الذي هدى الخلية الأولى، وسخّر لها القوانين، وألهمها المسير في ظلمات الرحم، لتنقسم وتتشكل من «نطفة أمشاج» حتى تصير أعقد مخلوق نعرفه على وجه الأرض؟!

والأعجب من ذلك كله... أن هذا الإنسان لا يخرج نسخةً مطابقةً لغيره، بل يحمل بصمته الوراثية وخصائصه التي تميّزه عن غيره؛ فلا تكاد تجد إنسانين متطابقين في كل شيء.

فمن علّم هذه الخلية الأولى كل ذلك؟ ومن أعطاها هذه التعليمات؟ ومن هداها إلى هذه الرحلة المعقدة، خطوةً بعد خطوة؟!

واستكمالًا لبرهان الإلهام والتعليم في الخلية الأولى للإنسان، انتقلنا إلى عالم الحيوان والنبات، وهو عالم زاخر بالعجائب التي لا تُحصى، كل تفصيلة فيه تحمل بصمة الإلهام الإلهي والتعليم الرباني. وما عرضناه ليس إلا غيضًا من فيض:

- فمن الذي علّم زهرة الأوركيد أن تتنكّر في هيئة أنثى النحل لتخدع الذكور وتستدرجهم للتلقيح؟
- ومن أبدع زهرة المطرقة، هذه المعادلة الهندسية العجيبة التي حيّرت العلماء؟
- ومن أخرج اليعسوب، الطيّار العسكري المعجزة بقدراته الفائقة على المناورة في الجو؟
- ومن أبدع عنكبوت الأوركيد، فنان التمويه القاتل الذي يتقن فن الخداع؟
- ومن أعطى النمل عبقرية "الإنترنت البيولوجي" ليتواصل ويتعاون بدقة مذهلة؟
- ومن علّم السمكة القنّاصة قوانين فيزياء الانكسار لتصيب فريستها تحت الماء بلا خطأ؟
- ومن أوحى للنحلة أن تسلك سلوكًا رياضيًا معقّدًا يحلّ أعقد المسائل في هندسة خلاياها ورحلاتها؟

ثم نرفع أعيننا عن الكائنات، وننظر في صمت إلى هذا الكون الفسيح، فنسأل أنفسنا: من أين بدأ؟ وكيف خرج؟

ثم نعود نسأل العقل والعِلم معًا: أليس لهذا الكون بداية؟ ألم يعترف العلم أنه خرج من العدم؟ فنسأل بكل صدق: أفيخرج الشيء من اللاشيء؟ أيُعقل أن ينبثق هذا النظام المذهل من العدم؟!

ثم نظرنا في نظام الكون، فلم نجده فقط منظمًا أو متناسقًا، بل وجدناه مفهومًا، يمكن لعقل الإنسان أن يفهمه ويُدوّنه، بل وأن يبني عليه حضارة كاملة.

فهل هذا "الكون المفهوم" صدفة؟ كتاب مكتوب بلغة الذرات والقوانين، ونحن العقول التي تقرأه وتفهم معانيه؟ ألا يذكّرك التكامل بين "العقل" و"الكون" بالتكامل بين "الذكر" و"الأنثى"؟ لكن على مستوى أعقد وأعمق وأجمل، وكأن كليهما مخلوق من نفس "المشكاة." العقل مُهيَّأ لفهم

الكون، والكون مكتوب بلغة يفهمها العقل: قفل ومفتاح، مُتقابلان متناسقان، ينطبقان على بعض بدقة لا تعرف العشوائية إليها طريقًا.

ولم يكتفِ الكون بذلك، بل وجدناه معدًّا بدقة لأجل حياتنا، كأنه يعرفنا: أعدّ كل شيء قبل أن نأتي بموازين محسوبة، ودرجات حرارة مضبوطة، ومسافات فلكية محسوبة.

وهناك زوجية أخرى أوضح: بين احتياجات الجسد المادية من طعام وشراب وهواء ونور، وبين وفرتها في الكون بتكامل مذهل.

ثم الأعجب والأرقى: أن الزوجية لا تقف عند حدود البقاء المادي أو الفهم العقلي، بل تمتد إلى الذوق والروح، بين "الكون الجميل" و"النفس التي تتذوّق هذا الجمال."

فالإنسان لا يكتفي بالخبز والماء، بل يبحث عن الألوان التي تُبهجه، والأصوات التي تُسعده، والمشاهد التي تُحرّك وجدانه، فإذا به يجد كونًا مزدانًا باللوحات البديعة: سماء مرصعة بالنجوم، غروب يذيب الألوان، أزهار تتفتح بأشكال وألوان مدهشة، وأصوات عذبة من زقزقة الطيور إلى خرير الماء، وكأن الكون يقول له: "لم أُخلق فقط لغذاء جسدك... بل لبهجة روحك أيضًا".

وهذا التناسق العجيب بين حاجة الإنسان للجمال، ووجود هذا الجمال في الكون من حوله، ليس أمرًا عابرًا؛ بل يدل على انسجام عميق بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه ، فهذا التكامل بين المادة والروح، وبين الإحساس والجمال، يشير إلى أن هذا الوجود لم يُترك عبثًا، بل هو قائم على حكمةٍ وقصد، ومن هنا يظهر أن وراء هذا الكون خالقًا حكيمًا عليمًا، أودع فيه هذا الجمال، وجعل الإنسان قادرًا على إدراكه والتأثر به، ليكون ذلك طريقًا لمعرفة ربه والتقرّب إليه.

ثم عدنا في نهاية الرحلة لنقارن بين الإيمان الذي اخترناه بعقولنا وقلوبنا، فوجدنا أنفسنا مكرمين، خلفاء لله في أرضه، يعدنا سبحانه بنعيم لا يفنى، إن عبدناه وشكرناه، وهو أهل الشكر والمجد والثناء سبحانه!

ثم نظرنا إلى الإلحاد، فإذا هو يخبرك أنك مجرد وسخ كيميائي، لا قيمة لك، لا معنى، لا هدف، وأن مصيرك الفناء! وأنا أعلم .... أعلم أن الفناء مؤلم لك، لكن بوسعك أن تعمل عقلك، وتعود إلى النور، إلى اليقين، إلى النعيم الأبدي.

لكن بقيت لي نصيحة أخيرة لك: إن أصررت على عنادك، فمصيرك الحقيقي ليس الفناء كما تظن بل هو العذاب الأبدي.

فتذكّر: هي حياة قصيرة، إما أن تحلّق إلى خالقك فتنعَم في جنات الخلود، وإما أن تختار العمى

عن النور فتُطرَد من رحمته إلى عدله: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

فقط أعمل عقلك، وتدبّر في الكون، وتأمل في نفسك... ثم فكّر بصدق وتجرد. وأعدك: إن تحررت من الهوى ستصل لا محالة.

وإن صدقت في بحثك، وأعملت عقلك بإنصاف، فستدرك أن الدين ليس ترفًا فكريًّا، بل ضرورة وجودية تمنح الإنسان العدل، والمعنى، والاتزان الأخلاقي؛ فحينها تتهيأ نفسك لاستقبال الإيمان الحقيقي؛ الإيمان الذي يحلّق بك إلى خالقك بقلبك وعقلك معًا، حيث يلتقي العقل بالفطرة، والعِلم بالوجدان، فتتناغم أنت والكون في اتجاه واحد جميل... إلى الله.

وهنا تتجلّى عظمة الإسلام: فهو لا يقدّم للإنسان مجرد عقيدة نظرية جامدة تنحصر في التصورات الذهنية، بل يقدّم **منهج حياة متكامل**؛ منهج يجمع بين قوة البرهان العقلي، وصفاء الفطرة الإنسانية، وعبادة الله وحده بلا شريك؛ إنه دين يخاطب العقل بما يقنعه، ويُشبِع الروح بما يطمئنها، ويهدي السلوك بما يقومه، وهذا الجمع الفريد هو الذي يمنح الإنسان سكينة داخلية لا تعصف بها العواصف، وطمأنينة قلبية لا تهزها تقلبات الزمان.

ولذلك، العقيدة في الإسلام ليست فكرة ذهنية مجرّدة، بل رؤية شاملة للحياة؛ يعيش فيها المؤمن مع الله، وبالله، وفي سبيل الله، في عمله وراحته، في سره وعلنه، في دنياه وأخراه.

هي عقيدة تُلزمه بالحق في كل قرار، وتوجّهه ليكون عادلًا، رحيمًا، أمينًا، وهي في الوقت نفسه جسر بين العقل والقلب؛ فلا عقل ينفصل عن الإيمان، ولا إيمان يخلو من برهان، وهي أيضًا جسر آخر بين العلم والإيمان، وبين حاجات الجسد والروح، وبين الدنيا والآخرة؛ حيث المعنى، والهدف، والعدل، والسعي الذي لا يتوقّف... لأن النتيجة عند الله، وأجر الساعي إليه لا يضيع أبدًا، فلا تحزن، ولا تقلق على الطريق، ما دام سعيك لله عز وجل.

تأمّل قول النبي ﷺ: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها" في صحيح البخاري ، فحتى لو شارف العالم على نهايته، يبقى المؤمن متمسّكًا بالأمل، عاملًا في الخير، لأنّه يعلم أن ميزان الله لا يضيع شيئًا، وأن ما يغرسه اليوم لله، سيثمر غدًا في دار الخلود.

وهكذا يعيش المؤمن، الذي كرّس حياته لله، وجعل سبيل دينه ورفعة أمته هدفه الأعلى، في سلام داخلي وانسجام تام مع نفسه والكون من حوله، لا تناقض في إيمانه ولا صراع في تفكيره،

بل تنبض حياته بسكينة القلب ووضوح العقل، وتتجلى في رؤية تشرق من حاضر الدنيا إلى بهجة الآخرة.

وفي نهاية المطاف إن اخترت طريق التوحيد، فسيناديك ربك بلطفه وكرمه:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠)

فأيّ نداء أكرم من هذا النداء؟ وأي ختام أبهى من أن تكون النهاية جنةً عرضها السماوات والأرض، أُعدّت للمتقين!!

ولك أخي المسلم أغلى وصية: تمسّك بالقرآن... فلن تضل بعده أبدًا.

لا تثبُت القلوب في بحر الفتن إلا لمن أمسك بحبل الله المتين :القرآن الكريم.

القرآن هو كلام الله إليك ...أنزله ليكون:

هدايةً لك ، طمأنينةً لقلبك ، نورًا لطريقك ، دليلًا لك حين تحتار، طُهرًا لروحك حين تتلوث، وصلةً دائمة بينك وبين ربك.

القرآن هو الحصن الحقيقي في زمن الفتن.

تذكّر قول النبي ﷺ: "إن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا» [حديث حسن].

فأي ضمان أعظم من هذا؟ أن يكون في يدك حبل موصول بالسماء، متين لا ينقطع، يثبتك وسط عواصف الفتن، ويهديك سواء السبيل.

وقد رأينا في ثنايا هذا البحث المتواضع أن أعظم براهين وجود الله مبثوثة في كتاب الله، بطريقة تخاطب القلب والعقل معًا، فتقودهما مباشرةً إلى الله سبحانه.

تأمل بنفسك وتدبّر إعجاز القرآن في هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ

مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٩٥-١٠٣].

تخاطب هذه الآيات القلب والعقل معًا بأقصر طريق وأوضح بيان؛ فمشهد الحياة وهي تنبثق من الجماد، وتعاقب الليل والنهار في نظام محكم، والنجوم التي تهدي السائرين في ظلمات البر والبحر، والماء النازل من السماء ليحيي الأرض بعد موتها ويُخرج منها أرزاقًا متنوعة؛ كلها شواهد ناطقة بقدرة الخالق ووحدانيته.

ثم يلفت القرآن النظر إلى أصل الإنسان، كيف نشأ من نفس واحدة، وكيف انتقل من تراب إلى بشر عاقل مكرّم، ليكون ذلك أدعى للتفكر والشكر، وأبعد عن الغفلة والغرور.

وترتقي الآيات بالبصيرة إلى ذروة التوحيد، فتكشف عظمة الله المتفرد بجلاله، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، البديع الذي أبدع السماوات والأرض بلا مثال سابق.

إنها ومضات متتابعة تهدي الفطرة السليمة والعقل الصادق إلى الحقيقة الكبرى: أن لهذا الكون إلهًا واحدًا، عليمًا قديرًا، لطيفًا خبيرًا.

وتأمل أيضا قوله تعالي

﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ(٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ

(٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۚ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٢٧) ﴾ سورة الروم

طلب بسيط :أن تعود فتقرأ هذه الآيات مرة أخرى، لكن هذه المرة بروح متدبّرة، وقلب حاضر، وعقل منفتح... دع نور كلماتها يتسلل إلى أعماقك، وسترى بنفسك الفرق. وهكذا هو شأن كلام الله عز وجل كلّه؛ كلما عدت إليه بصدق، ازددت به يقينًا ونورًا.

ختامًا: لا تبدأ يومك بلا قرآن!

أنت تعيش في حرب فكرية وشهوانية كل لحظة، ولا نجاة إلا بسلاح القرآن.

هو درعك من الشبهات، وسيفك ضد الشهوات، ونورك في دروب الحيرة.

اقرأه... تدبره... عش به ومعه دائما.

قال الله تعالى: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ٢].

والله ما تمسّك أحد بهذا الكتاب إلا شرح الله صدره، وملأ قلبه يقينًا، وثبّت خطاه حتى يلقاه.

وانظر لوصف الله عز وجل للقرآن في ختام سورة الشورى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

تأمّل! وصفه الله بأنه **روح ...**وهل يستطيع أحد أن يعيش بلا روح؟!

فكذلك القلب؛ **لا حياة له بلا قرآن.**

ووصفه بأنه نور **...**فهل يسير أحد في الظلام بلا نور؟!

فكذلك من أعرض عن القرآن عاش في ظلام الحيرة والضلال.

وهذا الأثر العظيم للقرآن في حياة الإنسان عبّر عنه عدد من المفكرين، **فقال مونتاي:** «إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن التأثير القرآني **كمثل رجل أُفرغ من دمه.**« انتهي [٦٦]

ويقول **محمد إقبال رحمه الله:** «إن القرآن ليس بكتاب فحسب، إنه أكثر من ذلك؛ **إذا دخل القلب تغيّر الإنسان، وإذا تغيّر الإنسان تغيّر العالم.**« **انتهي** [٦٧]

---

[٦٦] قالوا عن القرآن لعماد الدين خليل ص ٢٨٧،

[٦٧] روائع إقبال للندوي ص ١٥٨

ويقول **ويقول د. فريد الأنصاري رحمه الله** : «إنه لا شيء أقدر من القرآن على بناء الإنسان: عقيدةً وعبادةً وسلوكًا اجتماعيًا ، **إن القرآن هو مفتاح النفس الإنسانية، فمن أخطأ القرآن فقد أخطأ المفتاح** .« **انتهي** [٦٨]

ختامًا

أيها القارئ الكريم، بعد هذه الرحلة الطويلة في براهين وجود الله، يبقى أمرٌ مهم لا ينبغي أن نغفل عنه :**أن معرفة الله لا تكتمل بمجرد معرفة الأدلة، وإنما يظهر أثرها في التوكل عليه والثقة به.**

فمَن توكَّل عليه كفاه، ومَن اعتمد على سواه خذله؛ إذ لا ملجأ من الله إلا إليه، ومن تأمَّل عظمةَ الخلق، ودقّةَ النظام، وانسجامَ الكون، أيقن يقينًا جازمًا أن وراء هذا الإتقان خالقًا عليمًا قديرًا، قيّومًا على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، وإليه يُرجَع الأمر كلّه، **فلا يستقيم بعد ذلك أن يُغفل الإنسان ربَّه، ويعلّق قلبه بمخلوق ضعيف، عاجز عن نفسه، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، بينما الله سبحانه هو الخالق المتصرّف في كل شيء، القادر على كل شيء، المستحق وحده للثقة والتوكل.**

ولهذا المعنى العظيم، يختم الله تعالى سورة هود بآيةٍ جامعةٍ مانعة، تُجسِّد حقيقة التوكّل الحقّ، فيقول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] فما دام الأمر كلّه راجعًا إلى الله، فمن من مقتضى العقل والإيمان، أن **نتوكّل عليه في كل شيء.**

ويؤكّد هذا المعنى ما قاله نبيّ الله موسى عليه السلام لقومه وهم في أشدّ لحظات الابتلاء: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]

وتأمّل دقّة التعبير : ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ ، كأنّ التوكّل ليس أمرًا زائدًا على الإيمان، بل هو لازمٌ من لوازمه، وثمرةٌ طبيعيّة له.

فمن آمن حقًّا بالله ربًّا وإلهًا ومدبّرًا، لا بدّ أن يعتمد عليه، ويثق به، ويفوّض أمره إليه، ولا يعلّق قلبه بغيره، فالإيمان الصادق لا يكتمل إلا بتوكّلٍ صادق، تكون فيه محبّتك وخوفك ورجاؤك وخشيتك لله وحده، لا لسواه.

---

[٦٨] البيان الدعوي .د. فريد الأنصاري – ص ٢٦٠

ونختم فِقرة التوكّل باستكمال مشهدٍ من قصّة أبِي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ذلك المشهد الذي تتجلّى فيه حقيقة الإيمان في أبهى صورها؛ إذ لم يكن إيمانًا نظريًا مجرّدًا، بل توجّهًا كاملًا، وثقةً مطلقة، وتسليمًا لا اضطراب فيه.

فبعد أن أعلن خليلُ الرحمن براءته من الشرك، ووجّه قلبه ووجهه إلى خالقه، فنطق بكلمة التوحيد الخالدة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، ثم حاجّهم بثبات المؤمن الواثق، المتوكّل على مولاه، لا باضطراب الخائف، فقال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[الانعام ٧٨ – ٨١]** ،حقًّا... فأيُّ الفريقين أحقّ بالأمن؟

من علّق قلبه بالله وحده، أم من وزّع قلبه بين آلهةٍ زائفة، وأسبابٍ عاجزة، وبشرٍ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؟

وهنا نكون — بفضل الله ومنّته— قد بلغنا ختام هذه الرحلة، وليكن مسك الختام كلمةً تختصر الطريق كلَّه، وتجمع الغاية كلّها، قولَ الله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]

فلا سعادةَ حقيقية بعيدًا عن الله، ولا طمأنينةَ صادقة إلا في القرب منه؛ فالقلوب لا تهدأ، والأرواح لا تستقرّ، إلا إذا عرفت خالقها، وعادت إلى من إليه مرجعها، ونسأل ربَّنا — كما علّمنا في كتابه الكريم— أن يثبّت قلوبنا على هداه، فنقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]

***

خاتمة الكتاب

هذا ما وفّقني الله تعالى إلى جمعه وكتابته، وكان جهدي فيه متواضعًا، وبحثي فيه صادقًا، وكلماتي منبعها القلب، أسأل الله أن يجعل فيها نفعًا وقبولًا.

فإن أصبت فمن فضل الله وتوفيقه، وإن أخطأت فمن نفسي ومن تقصيري، وحسبي أنني بذلت ما استطعت من جهد، مستعينًا بالله، طالبًا للحق.

وقد استعنتُ في هذه الرحلة بما يسّره الله من أسباب ووسائل، راجيًا أن تكون عونًا على الوصول إلى الحق، لا حجابًا عنه.

وقبل أن نختم، أود أن أوضح أمرين يتعلقان بمنهج هذا الكتاب :**كثرة الأمثلة، وتكرار بعض الأفكار** .وقد تعمدت ذلك لسببين رئيسيين:

أولًا: لأن التكرار من أكثر الوسائل فاعلية في ترسيخ المعاني والبراهين في الذهن، حتى تستقر الأفكار الأساسية وتصبح أوضح وأثبت في الفهم.

ثانيًا: لأن تنوع الأدلة وكثرة الشواهد، مع إعادة عرض المعاني من زوايا مختلفة، يجعل بناء الحجة أكثر قوة وثباتًا أمام الشبهات؛ فالفكرة التي تقوم على براهين متعددة لا تسقط بشبهة عابرة.

كما أن ضرب الأمثلة من أقرب الطرق إلى توضيح المعاني العميقة وتقريبها إلى الأذهان، وقد كان لهذا الأسلوب أثرٌ كبير في فهمي لهذه القضايا، فأحببت أن أقدمه للقارئ بالطريقة نفسها؛ إذ إن المعاني قد تخفى في صورتها المجردة، فإذا ضُرب لها مثال اتضحت وزال إشكالها.

وكما قال علماؤنا رحمهم الله" :**بالمثال يتضح المقال، وبالمثال يزول الإشكال**".

وحسبي أنني بذلت ما استطعت من جهد، فإن جعل الله لهذا الكتاب أثرًا طيبًا في قلب قارئ، أو كان سببًا في زيادة يقينٍ، أو هدايةِ باحثٍ عن الحق، فذلك فضلٌ عظيم وغايةٌ أرجوها، مصداقًا لقول النبي ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه:

«فواللهِ لأن يهديَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمرِ النَّعَم» متفقٌ عليه.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣)

اللهم ثبّتنا على الإيمان، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح، واجعلنا هداةً مهتدين، لا ضالّين ولا مضلّين، وانفع بهذا العمل كاتبه وقارئه، واجعله خالصًا لوجهك الكريم.

وللتواصل مع مؤلف الكتاب:

+٢٠١٢٧٨٧٧٤٤١٨

والحمد لله أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، على ما أنعم ويسّر، وله الفضل والمنّة وحده.